

محنة فلسطين VIPI-∙۸PI

تأليف : ديڤيد جيلمـــور ترجمة : شاكر إبراهيم

الناسر عميمتية مجبولي - القاهرة

جميع الحقوق محفوظة 1212هـ- 1998مر

MADBOULI BOOKSHOP

مكتبة مدبولى

المُنْ الْمُنْ اللَّهِ الْمُنْ الْمِنْ الْمُنْ الْمُنْمِالْمِنْ الْمُنْ الْمُنْ الْمُنْ الْمُنْ الْمُنْ الْمُنْ الْمُل

المطرودون

محنة الفلسطينيين ١٩١٧–١٩٨٠ ديفيد جيلمو

يصف هذا الكتاب التجربة التى عاشها الفلسطينيون فى القرن التاسع عشر... أى قبل استيلاً الحركة الصهيونية على فلسطين وما أعقب ذلك من طرد لسكانها العرب وسنى البؤس التى أمضاها الفلسطينيون فى بلاد أخرى أو خت الحكم المسكرى الاسرائيلى، كما يصف مابذلوه من محاولات فى سبيل استرداد وطنهم .

زار المؤلف الدول التي يعيش فيها الفلسطينيون وتخدث معهم حول ذكرياتهم عن فلسطين وعن حياتهم في المنفى وآمالهم في المستقبل... تخدث إلى أطفال مخيمات اللاجئين وإلى أعيان القدس الطاعنين في السن وإلى رجال الأعمال من الفلسطينيين في الخليج وإلى قادة الفدائيين في بيروت.... ومن رواياتهم استطاع الكاتب أن يرسم صورة لأمة تعيش في المنفى ... صورة شعب يدرك أنه لاينتمى لغير البلد الذى أغلقت حدوده في وجهه .

والفلسطينيون مشتون في جميع أنحاء العالم العربي حيث يحيون أساليب حياة متنوعة في ظل ظروف متباينة، ومع ذلك فإن حياتهم في المنفى هي العامل المشترك بينهم، ومن ثم فإن الأحساس بالاغتراب والحنين للعودة إلى الوطن جعلا القومية الفلسطينية من أقوى القوى السياسية في العالم العربي... ولامناص، كما يرى المؤلف في الفصل الختامي من هذا الكتاب، من أشباع هذا الحنين إذا ما أريد حل المسألة الفلسطينية وتحقيق العدالة لهذا الشعب .

كلمة شكر

لولا تعاون المات من الفلسطينيين ممن التقيت يهم ومخدلت اليهم في غضون السنوات الخمس الماضية لتعذر وضع هذا الكتاب. ويصعب هنا أن نورد كل أولئك الذين قدموا لي يد العون، ومن اذكرهم فيما يلى من فلسطينيين وغيرهم ليسوا سوى أولئك الذين قدموا إلى مساعدة خاصة وخصوني بكرم الضيافة أمثال موسى العليمي ومحمد جار الله واسرائيل اسحق وروحى الخطيب من القدس، وأحمد طوقان وانطون عطا الله من عمان، وحاتم أبو غزالة وعائلته من غزة، وتوفيق زايد وسليم جبران عطا الله منصور من الناصره، ويوسف رضا من نابلس، وعلى سعد من دمشق، وعبد المحسن قطان وخالد الحسن من الكويت، ونبيل حجازى وزكى نسيبه وابراهيم ابراهيم من المخاد الإمارات العربية، وليلى البارودى ووليد جنبلاط وسامى العليمي وأفراد من عائلة السعيد والدوشقي وأبو الجبيان من بيروت .

كما أنى أشكر سيرجون جلوب لما قدمه لى من معلومات حول الأردن. وسير كريستوفر تشانسلور الذى سمح لى أن أنقل عن وثائق أبيه، وأخص بالشكر جون ويدوامى وروبرت سوان وفيليب مانسل والغى ماليس الذين قرأوا المخطوط وأسدوا لى نصيحة قيمة حول مضمونه، وكذلك فيليدا اشتون التى ساعددتنى فى نقل الأسعاء العربية إلى الانجليزية وهيلارى متولى التى نسخت المخطوط مرتين .

د.ج

مارس ۱۹۸۰م

القعرس

علمة شعر	V
هقدهه ، تخيلات وخرافات	9
الجزء الأول ، فلسطين والفسطينيون قبل عام ١٩٤٨	۱۸
ا- فلسطين العربية	PI
٧- طعور الشخصية القومية	۲۸
الجرء الثاني : الناستات الجديد	٦V
ا- العجرة الجديدة كروج ٤٧ ~ ٤٨	٦٨
ع- الهنفيون	۸۸
0- العرب في استرائيل	ŀΛ
٦- القدس والأرافي المحتلة	IEI
الجزء القالث ، الحرب والسياسة	IVP
٧- تنظيم المقاومة	IVE
٨- منظمة التحرير الفلسطينية والعالم العربي	r ·I
9- لبنان والفلنسطينيون	۲۲-
-1- الحرب الأهلية في لبنان	737
اا- فلسطين والمجتمع الدولي	۲٦-

الكراقط

777

فلسطين العربية

ثلاث مراحل للاستيلاً على فلسطين

V3PI- A3PI- VFPI

المقدمة

تخيلات وخرافات

فى قلب فلسطين القديمة يرتفع جبل ايبال (EBAL) شاهقا فوق قباب نابلس ومازنها بمنحدراته القاحلة الكثيبة التى لا يخفف من كآبة حجارتها، التى تبدو وكأنها لاتنتهى، سوى بمض الماعز والشجيرات الشوكية، ومن قمة الجبل تمتد أراضى فلسطين فى كل انجاه: إلى الشمال الناصرة والملامح غير الواضحة للجليل، وإلى الشرق تمتد، عبر نهر الاردن، تلال موآب فى خط مستقيم إلى ما وراء البحر الميت، وإلى الجنوب تقع القدس، وإلى الغرب، عبر ضباب خفيف ينمطف السهل الساحلى حول جبل الكارميل ابتداء من عكا إلى غزة وعسقلان .

أسماء مألوفة ومعالم طبيعية من كثرة ما وصفت؛ شكى رجل المجليزى في عام ١٨١٢ من أنه وقد يعتقد أن اللين كتبوا حول هذا الجزء من العالم قد استنزفوا هذا الموضوع ولم يتركوا ما يمكن أن يضيفه كاتب آخره، يدو أن تلك الشكوى لاتنطبق على السكان اذ ندر أن اهتم بهم الرحالة الذين كتبوا عن فلسطين فلم يكن يهتمون بهم كشعب، بل انصب اهتمامهم على الماضى. وبعد انسحاب الامبراطورية العثمانية من سوريا طمع الغرب في فلسطين على أساس تاريخها اذ منذ أن اصطبغت بديانتان مشرقيتان؟ اليهودية والمسيحية، بالصبغة الغربية وجد من طالب بضرورة فصل موطن ماتين الديانتين عن العالم الشرقي. فالصليبيون والمبشرون والصهاينة طالبوا بفلسطين لما كانت عليه في الماضى دون إهتمام بواقعها الفعلى كدولة عربية بل وأساما إسلامية— هكذا كانت عليه في الماملة لسكانها .

أن مايتسم به هذا القرن من جهل لايقل سؤا عما كان عليه أجدادنا. وعلى الرغم مما تعرضت له فلسطين من غزوات وتغيير حكامها كان الاستقرار العرقي هو

الطابع المميز لسكانها عبر آلاف السنين، وظلوا طيلة الألف والثلاثمائة سنة الماضية لهم ثقافة عربية لا لبس ولا غموض فيها وإن كنا قد حاولنا أن ننساها أو نغفلها، بل زحمنا في بعض الأحيان، أنه لا وجود لها. ففي إعلان بلفور عام ١٩١٧ - تلك الوثيقة التي قررت بصورة فعالة مستقبل العرب الفلسطينيين وكانوا يشكلون آنذاك ٩٠ كوزير للخارجية البريطانية إعترف؛ أنه في فلسطين لا نقترح حتى المرور بشكلية مراعاة كوزير للخارجية البريطانية إعترف؛ أنه في فلسطين لا نقترح حتى المرور بشكلية مراعاة رغبات السكان الحاليين وفكان إعتقاده ان الصهيونية أكثر أهمية من رغبات وأهداف ٥٠٠ ألف عربي يعيشون في تلك البلاد القديمة عما كان الصهاينة القدامي يتجاهلون بدورهم سكان البلاد الحقيقيين، وطبقا لما ذكره اليهودي الروسي، آشر جنسبرج فانهم كانوا يعتبرون الفلسطينيين اما همجاً يعيشون كالحيوانات أو أنه بكل بساطة لا وجود لهم.

وبعد سنوات عديدة أعلنت جولدا ماثير، رئيسة وزراء إسرائيل، أنه لم يكن لهم، في الواقع أى وجود الم يكن هناك ما يسمى بالفلسطينيين.... لم يكن في فلسطين شعب يعتبر نفسه شعبا فلسطينيا وتحن جثنا وطردناه وانتزعنا منه بلاده أنه لم يكن موجوداه وترجم الوزير الإسرائيلي للتعليم هذه الرواية الخيالية إلى سياسة رسمية بقوله للمعلمين الإسرائيليين: امن الأهمية بمكان أن يعرف شبابنا أننا حين عدنا إلى هذه البلاد لم نجد بها أية أمة أخرى وأنه بالتأكيد لم تعش هنا أية أمة منذ مئات السنين، وأوضح أن العرب الذين إلتقوا بهم لم يكونوا سوى لاجئين مصريين حلوا بالبلاد في منتصف القرن التاسع عشر.

لم يكن هذا اللون من الدعاية مقنعاً خارج حدود إسرائيل لأن الكثيرين من رحالة وتجار ومبشرين وجنود شاهدوا بأعينهم الفلسطينيين ويعرفون أنهم موجودون، وأن

كانوا يعرفون عنهم أكثر من ذلك .

لكن مواقف الغرب عجّاه العرب إنما حدوها بصفة تكاد تكون دائمة، الجهل أو التعصب أو كلاهما، لقد تشكلت بعض هذه المواقف بدون وعى على أساس ما ورد فى التوراة؛ الإسرائيليون ضد الفلسطينيين مترفى مصر وغيرها «كما تشكل بعضها بفعل التعصب الأوروبي ضد الإسلام الذي يرجع إلى غزوات العرب لأسبانيا وفرنسا في القرن الثامن عشر والذي ينعكس في الأدب الأوروبي ابتداء من اغنية رولاند حتى ليبانتو لشسترتون»، كما يعبر عن هذا التعصب تعبيرا صادقا عنوان كتاب لعميد نورويتش في عام ١٦٩٧: «الطبيعة الحقيقية للخداع البين في حياة محمد».

وفى القرن التاسع عشر عندما أخذت أعداد السائحين إلى الشرق الاوسط تنزايد شرع الأوروبيون فى تقسيم العرب إلى فغات: عرب المدينة ويصفونهم بالقذارة، والخمول، والفساد، ويرمونهم بالإحتيال والخديمة فيصفهم جورج ووكر فى قصص وترولوبى، بأنهم جنس منحط ومزيف وجبان وفى الجانب الاخريقف عربى الصحراء الذى ينمتونه بالجائل الطليق فى الافاق الواسعة، والنبيل ذو الدماء النقية الذى لايهتم بألوان الترف، فصورة الباشا بكرشه وحريمه تقابلها صورة البدوى بوجهه الشبيه بالصقر وهو يكابد مشاق الصحراء، ولعل هذا الافتتان الرومانتيكى القائم إلى حد كبير، على الجهل كان أسلوبا المجليزيا خالهما وإن أخذ به بعض الفرنسيين، وكان كلما حظى العرب الرحل بالإعجاب المطلق ازداد الإزدراء بأهل الحضر. ويفسح فى يوميات الأوروبيين، ومذكراتهم للتغنى بمحاسن البدو مساحات لاتقل عن تلك التى تخصص لوصف فساد وشرور المذن وأهلها، وليس أدل على ذلك النمط الرومانتيكى من رد فعل ارثر واتشوب، المندوب السامى البريطاني فى فلسطين حين قال عند لقائه بوفد عربى:

ولا يسع المرء إلا أن يشعر بأن الدماء النبيلة التي جرت في عروق صلاح الدين

لا تزال مجرى في عروق شيوخ هذا العصر، .

إن كتابات رجال أمثال دوفني، وبيرتون، ومآثر لورانس، وجلوب الولعك الذين عرفوا البدو وعاشوا معهم - هي التي نشرت الإعجاب بعرب الصحراء. ولم يبدأ هذا الافتنان يضعف إلا بإكتشاف النفط، وإدراك أن البلدي يمكن أن تفسده الثروة المادية بنفس السهولة التي تفسد أي شخص آخر، ومع ذلك لايزال إعجابنا بالبدوى قائما إلى حد ما، فالسائحون في القدس تقلهم العربات المكيفة لالتقاط صور للبدو الحقيقيين وهم على ظهور إبلهم، وإذا كانت الصورة قد فقدت بريقها، فإنها أجمل من أن تفسيح كلية وكثيرا ما يصور رسام الكاريكاتير في الصحف الشعبية، العرب بثيابهم الفضفاضة وإنوفهم المعقوفة وهم فوق ظهور الإبل بهدف ترك الإنطباع بالقذارة .

ولامراء من أن مواقف الغرب بجاه العرب إنما تأثرت بالمحاولات الصهيونية الرامية إلى تصويرهم بالشعب الجاهل المتخلف الذى يحتاج إلى معونة أجنبية تمكنه من التطور. ومن ثم فإن باحثا يهوديا مثل روكليف- لامان يؤكد في تعليقه على قذارة القرى العربية ونتانة ملابس الأطفال ونقص التعليم بأن 9 العربي عاجز تماما عن تطوير يلاده بمفرده، وكان الزعيم الصهيوني حايم وايزمان مغرماً بهذا التكتيك ولذا ففي رسالة بعث بها في عام ١٩١٨- إلى بلفور- ولم يكن قد زار فلسطين اطلاقا-أراد أن يحاضره فيها عن السمات المميزة للعربي الفلسطيني قال:

«بالرغم من مهارته السطحية وسرعة بديهته فأنه خائن بطبيعته ويمارس الإبتزاز ما استطاع إلى ذلك سبيلا فإن كان مسئولاً فهو فاسق وفاسد وغير كفء، يندم على الأيام الخوالى التى كان فيها «البقشيش» هو الوسيلة الوحيدة التى تنجز بها الأمور الإدارية، وإن كان فلاحاً فأنه متخلف عن عصره بما لا يقل عن أربعة قرون، وإن كان من الاعيان فهر أمى وغير أمين، شره، وغير وطنى، فضلا عن أنه غير كف» .

وفى غضون الثلاثينيات من هذا القرن عندما بلغت الخيالة ذروة تقدمها، باتت تستخدم فى تأكيد مثل هذه الأفكار عن الفلسطينيين وقد عرض أحد هذه الأفلام فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٣٥ وقامت بتمويله المنظمة العمهيونية وصندوق مؤسسة فلسطين، وكان هدف الفيلم الوحيد وعنوانه وأرض الميعاد، هو عقد مقارنة بين المجتمع المتخلف فى فلسطين العربية والحماس المثالى للرواد الصهانية ويبدأ الفيلم بلقطات لشبة الجزيرة العربية ومصر (وأن كان الهدف هو إقناع الجمهور بأنها لقطات لفلسطين، يعقبها تعليق سريع: وهده هى الأرض التي وعد الله بها ابراهيم، لقد عاش اليهود ذات يوم فى العالم الإسلامى حين كان مركزا لحضارة، عظيمة، وعندما طرد اليهود أخذت تلك البلاد فى الإنهيار وعادت الحياة البدائية، ويمضى الفيلم فى سرد كيف يعمل الصهاينة المجدون على القضاء على الحياة البدائية، فينما كانت التربة مند عثرين عاما أم مستنقعات أو ينبشها محراث ليس إلا. تغير اليوم كل شئ وبدأت حياة جديدة وكادت الحاصيل تررع على مدار السنة، بل هناك زعم بأن برتقال يافا ذاته الذى عرفه الصليبيون هو من نتاج النشاط اليهودى، فحقول البرتقال أو كما يسمونه بالعبرية والتفاح الدهبي، يغطى الأرض التي لم تكن تنبت حتى الشوك منذ سنوات عشر خلت .

ليست هذه المواقف بجناه الفلسطينيين قاصرة على العمهاينة فقد كانت، وربما لاتزال، واسعة الإنتشار بين المعاصرين من الصحفيين ومعلقى الإذاعة والتليفزيون مما جعل أدموند ويلسون وهو واحد من أبرز كتاب أمريكا في هذا القرن من أن يكتب مثل هذا الهراء المقذذ في عام ١٩٥٦ حين قال: هكذا فإن وضع العرب في إسرائيل - كما يراهم المرء في البلاد - شبيه بوضع «النافاهوة في جنوب غرب أمريكا: إناس متخلفون على نحو يدعو إلى الشفقة، كان طابعهم في يوم من الأيام، وأن كان لايزال صوريا، كما أنهم انفصلوا عن المجتمع الرئيسي وأن كانوا يثيرون مشكلة متكررة... ففي مدينة

كبيرة مثل عكا تثير قذارة الشوارع المكتفلة في نفس الإسرائيلي عين ما تثيره من استياء في نفس أي زائر غربي، فمنظر مجموعات كبيرة من الأولاد الفقراء الأميين المرضى وهم يصبون وبشحدون في الشوارع الضيقة القذرة يثير في نفس اليهودى رعبا أخلاقيا .

كذلك سجل آرار كوستلر عبارة اشد بشاعة في علم ١٩٤٩، وإن كان من غير المحتمل أن يفعل ذلك الآن، فقى وصفه لمأساة ١٩٤٨ عندما مخول إلى المنفى أكثر من للاثة أرباع مليون فلسطيني، كتب يقول: أن المسنين يشدون على ظهر الحمار حشية ووعاء القهوة النحاسي، فالمرأة العجوز تقود الحمار الذي يمتطيه الرجل المسن وقد التف بكوفيته وغرق في تفكير عميق في ضياع فرصة إغتصاب حفيدته الصغرى.

وبينما ينظر الغرب بازدراء إلى العالم العربي، فإن إحدى الصور المعاصرة الأكثر إلحاحا التى ترسم للعربي الفلسطيني هى صورة جديدة تماما وباتت كلمة فلسطيني ترسم فى ذهن الملايين من البشر صورة الارهابي، وهى صورة شخص فظ مراوغ يحمل مدفعا ومستعد لأن يقتل البشر في أى سن ومن أى جنس أو لون دون سبب واضع .

تلك هي الصورة التي تسعى االصهيونية إلى غرسها في الأذهان لأنها تضعف، ولا شك، التعاطف الدولي مع الفلسطينيين. ولقد وصف مناحم بيجن، رئيس وزراء إسرائيل منظمة التحرير الفلسطينية بأنها أشر المنظمات باستثناء منظمات القتل النازية، في تاريخ البشرية .

ذلك على الرغم من أن ارجون زفاى ليوفى دوهى الجماعة الارهابية التى قادها بيجن نفسه فى الأربعينات قد قتلت بعد ظهر يومين إثنين قدر ما قتل الفلسطينيون خلال خمسة عشر عاما من النضال ضد إسرائيل، فلقد أدى نسف فندق الملك داود فى ٢٢ يوليـو عـام ١٩٤٨ ومـذبحـة دير ياسين يوم ١٠ أبريل عـام١٩٤٨ على يد

جماعة ارجون إلى مقتل ٣٤٥ نسمة .

لكن صورة الفلسطيني كإرهابي أقل شيوعا في العمل الادبي منه في الرسوم الكاريكاتورية أو في أعمدة الرسائل في الصحف وأن ظهرت مثل هذه الصور من حين لآخر كما هو الحال في رواية هارولد روبين المفزعة التي صدرت بعنوان «القرصان» ورواية الرعب «الشرقي» لاريك اميلر، فالوغد في الرواية الاخيرة، وهو قائد حرب عصابات أسمه «غالد» (حقيقة أنه لا يوجد فلسطيني أو عربي بهذا الاسم تدل على جميل الكاتب بالموضوع الذي يتناوله)، هو شخص بغيض لا يطاق، الصق به اميلر جميع الصفات التي يرغب الصهاينة في خلقها على الفلسطينيين، فهو دائم الحديث عن قتل المدنيين الإسرائيليين، وقصف تل أبيب بصواريخ الكاتيوشا أو الخوض في بحر من الدماء، أما الشخصيات العربية الاخرى في تلك الرواية فهي الأنماط القديمة التي توصف بأنها ونتنة، أو «كريهة» أو بها آثار الجدرى .

ومن بين الفلسطينيين في العالم اللين يتراوح عددهم ما بين (٣٠٥ أو ٤) مليون نسمة، فإن عدد المسلحين يقل عن واحد بالمائة، فبعض الفلسطينيين يعيشون أقلية في الضفة الغربية لنهر الاردن وقطاع غزة، أما الغالبية فهم اللاجئون المنتشرون في جميع أنحاء الشرق الأوسط ولم يندمج في الدول المضيفة غير نفر قليل، ذلك لأن الرعي القومي الفلسطيني والشعور بالشخصية المستقلة أقوى من حملهم على الاندماج، إنه شعور طابعه القوة والاصرار، لايشعر به غير شعب سلب منه وطنه .

هناك في جامعة بيرزيت بالقرب من رام الله لوحة معلقة على أحد الجدران فوقها نص منقول عن جورج برنارد شو يقول: الو حطمت قومية أمة فإنها لا تفكر الا في إعادتها إلى ما كانت عليه، ولن تصغى لأى مصلح أو فيلسوف أو واعظ حتى مخقق مطلبها القومي، ولن تهتم بأى عمل، مهما كان حيويا سوى وحدتها وحريتها . ولجزء الأوق

الفصل الأول

فلسطين العربية

في عام ١٩٤٨ فقدت فلسطين اسمها وأراضيها، كما فقدت عددا كبيرا من شعبها، فقد استولت على ثلاثة ارباع الأراضي حركة ظل هذا الشعب يقاومها زهاء شعبها، فقد استولت على ثلاثة ارباع الأراضي حركة ظل هذا الشعب يقاومها زهاء نصف قرن من الزمان، واستولت مملكة شرق الاردن على الجزء الأكبر من الربع الباقي، مصر سيطرتها، لقد يخول أكثر من نصف سكان فلسطين إلى لاجئين في ربوع المالم العربي: في لبنان وسوريا وشرق الأردن ومصر والكويت كما المجههت حفئة منهم إلى الغرب: إلى بريطانيا واستراليا والولايات المتحدة، وحالف بعضهم الحظ وتسنى له مواصلة الحياة في مناطق لم يستول عليها الصهانية، وظل في قراهم اقل من العشر ليصبحوا مواطنين إسرائيليين .

لقد مخطم المجتمع الفلسطيني وحملت الأمة، التي ناضلت في سبيل استقلالها منذ انهيار الامبراطورية العثمانية، كفاحها معها إلى المنفى حيث مخلم بالعودة وتخطط لها، ولم ترض قط أن تكون وحدها بين جميع الشعوب العربية محرومة من حتى تقرير مستقبلها فوق ارضها .

فأى نوع من الناس اولئك العرب الفلسطينيين الذين أصبحوا، مثل اليهود والأرمن، احد شعوب العالم المشتتين؟ وكيف يشكلون شعباً مستقلاً له شخصية متميزة؟

قبل أن تتسنى لنا الاجابة على أى من هذين السؤالين، علينا أن نعود إلى ما قبل عام ١٩٤٨، حين كان الفلسطينيون لا يزالون يعيشون فى أرضهم وأن نبحث فى ظروفهم الثقافية والاقتصادية، وفى عاداتهم والأسس التى يقوم عليها مجتمعهم . لقد ترك الغزاة بصماتهم على سكان فلسطين منذ أيام الاموريين، ربما تخدثوا الآرامية وتقبلوا العادات الاغريقية لكنهم ظلوا كما هم، فالفلسطينيون والكنعانيون الذين عاشوا في القرن العاشر قبل الميلاد لم يفادروا البلاد اطلاقا وبقوا في فلسطين لتشكل سلالاتهم جوهر سكان البلاد الأصليين .

أما الحدث الذي غير بشكل حاسم الطابع المميز للبلاد، فهو الفتح العربي في القرن السابع الميلادي، فقد جاء العرب المسلمون ومعهم نظام حكمهم ولغتهم وعقيدتهم فتقبلتها غالبية السكان واصبحت فلسطين وشعبها عربا، وأن ظلوا نفس الشعب دون أن يحدث تغيير عرفي يذكر إذ كان الفاتخون العرب قلة. ويوضح البروفسير رودنسون ذلك يقول: فأن جماعة عربية صغيرة من شبه الجزيرة العربية فتحت البلاد في القرن السابع الميلادي، وسرعان ما اصطبغ الشعب الفلسطيني بالصبغة العربية في ظل الحكم العربي كما اصطبغ من قبل بالصبغة الآرامية بل وبالصبغة الهيلينية إلى حد ما. واصبح الشعب الفلسطيني عربيا على نحو يتعدر معه أن يصطبغ قط بالصبغة اللاتينية أو العثمانية ذلك لانه ذاب في الفاتخين.

وعلى الرغم من أن فلسطين القديمة يمكن رؤيتها من فوق جبل ايبال، إلا أن تباين الأرض والشعب يدعو إلى العجب، فغزة تشبه احدى مدن دلتا النيل كما يشبه سكانها، ببشرتهم السمراء، المصريين، وفي الجليل عدد كبير من الشقر ذوى المينين الزرقاوين كما يوجد في اربحة عدد من الزنوج الذين لاتربطهم أية صلة عرقية بالبدو الرحل الذين على بعد أميال قليلة في الصحراء، ولمل تلك هي الفروق الصارخة التي يشاهدها من يزور الأماكن القديمة جيث يعيش فلسطينيون .

ويقدر عدد الفلسطينيين حاليا بما يتراوح بين ٣٥، و ٤ مليون نسمة، مما يدل على الزيادة المهولة في عدد السكان خلال السبعين سنة الماضية، لقد كان عدد

الفلسطينيين حسب التعداد التركى للسكان الذى اجرى عشية الحرب العالمية الأولى 1977 نسمة أما فى التعداد البريطانى الذى اجرى فى عام ١٩٢٧ فقد بلغ عددهم ٢٧٠,٠٠٠ نسمة. عددهم الاربيطانى الذى اجرى فى عام ١٩٢١ نسمة. وكشف التعداد البريطانى الثانى الذى اجرى فى عام ١٩٣١ عن أن أجمالى السكان العرب قد يجاوز ٥٠٠،٠٠٠ نسمة، وحسب التقدير الرسمى الذى اجرى فى مارس العدب قد يجاوز ٥٠٠،٠٠٠ نسمة، وحسب التقدير الرسمى الذى اجرى فى مارس المعلى المذى اجرى فى الموب قد عددهم مرة اخرى ليصل إلى ١٩٣٠،٠٠٠ نسمة. هكذا يتضح أن عدد الفلسطينين العرب قد تضاعف خلال الثلاثين عاماً ما بين إنهيار الإمبراطورية العثمانية وقيام دولة إسرائيل، كما أنه خلال الثلاثين عاما التالية بلغ عددهم ثلاثة أضعاف ما كانوا عليه .

وابتداء من القرن السابع عشر أخذ السئيون، وهم أكبر طائفة إسلامية، يشكلون الغالبية الساحقة من السكان، لكن فلسطين تضم عادة مجموعة من الأقليات التي وفد بعضها نتيجة لحدث تاريخي بعينه، ففي الثمانينات من القرن التاسع عشر، وجد لورنس اوليفانت تسع جماعات عرقية أو دينية متميزة تشتغل بالأرض بالقرب من حيفا شملت العرب المسلمين من بوسبينا وهرزجوفيينا التي رفضت أن تعيش مخت الحكم النمساوى، والشراكسة من القوقاز ومستوطنة يهودية في زيمارين وقبيلة بدوية من السلاحقة الاتراك ومستعمرة من التمبلرز الالمان في حيفا. أما المهاجرون الآخرون فقد شملوا البهائيين من بلاد القرس وبضعة آلاف من البربر من شمال افريقيا .

أما الشيعة، وهى طائفة إسلامية تشكل أقلية رئيسية، فلم تضم يوماً أكثر من بضعة آلاف نسمة، وتعتبر قراهم فى الشمال إمتداداً لطائفة الشيعة الكبيرة فى جنوب لبنان، شأنهم فى ذلك شأن الدروز الذين يتمركز إخوتهم فى العقيدة فى منطقة الشوف بجنوب لبنان وفى جبل الدروز يسوريا. وبلغ عدد الدروز فى فلسطين فى نهاية

الحرب العالمية الأولى نحو سبعة آلاف نسمة منتشرين في عدد من قرى الجليل وجبل الكرمل؛ وفي القرن التاسع عشر كان الدروز يحظون بتقدير الاوروبيين ولاسيما السياح الانجليز. ومن بين ما وصفوا به «الصلابة» و «الشجاعة» و «الاستقلال»، فقد وصفهم ميجور كوندر، عالم الجغرافيا البريطاني، بأنهم «كفء» و «شجعان» وأكثر شعب سوريا جاذبية بعد السامريين (طائفة صغيرة في نابلس) وأعرب عن أسفه لأن شخصيتهم المستقلة تجملهم لايصلحون كخدم، وذكر لورنس أوليفانت أن الدروز هم السكان الوحيدون الذين يمكن الإعتماد عليهم وأن الحياة في وسطهم أفضل منها بين الطبقات الأخرى.

وكان المسيحيون أكبر الأقليات وأهمها، وفي عام ١٩٤٤، قدرت السلطات البريطانية عددهم بحوالي ١٣٥،٠٠٠ نسمة، وهكذا كانت تشكل أكثر بقليل من عشر السكان الناطقين بالعربية؛ وبعض المسيحين من سلالة الذين إعتنقوا المسيحية في القرنين الثالث والرابع والذين ظلوا على عقيدتهم طيلة الحكم الإسلامي، فعائلة دعطا الله مثلا، عاشت كمائلة مسيحية فوق نفس قطعة الأرض في القدس زهاء ١٥٠٠ سنة، كما أن بعضهم ينتمي إلى القبائل المسيحية التي قاتلت إلى جانب الجيوش الإسلامية ضد الإمبراطورية البينزنطية في القرن السابع. هذا بالإضافة إلى الذين ينتمون لأصول أكثر حداثة مثل أسلاف صليبيين أو من اعتنقوا مبادئ إحدى الطوائف المسيحية الغربية في القرن التاسع عشر.

والمسيحيون، من الناحية التاريخية، هم مجتمع حضرى، فقد تركزوا باستثناء الجليل، حيث كان يوجد بعض القرى المسيحية، في المناطق الغربية وفوق التل الرئيسي، ويوجد في القدس، ويافا، وحيفا، عدد كبير من المسيحين، كما كانوا في رام الله، والناصرة، وبيت لحم يشكلون الغالبية. وابتداء من منتصف القرن التامع عشر،

عندما بدأت البعثات المسيحية الأجنبية في فتح المدارس في القدس ورام الله أساسا، اصبح المسيحيون يتمتعون بمستوى رفيع من التعليم، ففي الوقت الذي كان فيه المسلمون يتلقون تعليمهم في المدارس الحكومية حيث كانت العلوم تدرس باللغة التركية، أو في مدارس إسلامية خاصة ندر أن وفرت التعليم الثانوى، استفاد المسيحيون من مدارس ممتازة مثل «كوليج دى فرير» ومدرسة «سانت جورج» في القدس «فرتوز جيراز آند بويز» التي أنشأتها طائفة «الكويكرز» الأمريكية في رام الله.

كانت الطائفة المسيحية مقسمة بالتساوى تقريبا بين الكنيسة الارثوذكسية الشرقية ومنافستها اللاتينية التى تضم الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكاثوليك اليونانيين ومقرهم حيفا، ومجموعات أصغر مثل الموارنة (وهم فرع من الطائفة المارونية في لبنان) والكاثوليك السوريين والارمن، كما كانت هناك بعض الجماعات الاصغر مثل الأقباط والانجليكان والارثوذكس السوريين المنتشرين حول القدس، ومع ذلك كانت طائفة الارثوذكس اليونانيين هي الطائفة الرئيسية منذ فشل الصليبيين، لكن هذه تماني منذ القرن السادس عشر من إنقسام داخلي جعلها ضعيفة سياسياً فابتداء من عام ١٩١٧، عندما استولي الاتراك على القدس سيطر على الكنيسة الارثوذكسية في فلسطين رجال من الطائفة اليونانية في داخل الإمبراطورية العثمانية، ومنذ عام ١٥٤٣ جاء كل بطريرك من اليونانيين وبالتالي كانت من بينهم معظم الأثاقفة وكبار رجال الدين، لكن هذه السيطرة اليونانية ورفض الكثيرين منهم تعلم اللغة العربية أثار استياء صغار رجال الدين وجمهور الشعب الذي كانت غالبته عربا حتى أن القوات التركية في عدة مرات اضطرت إلى التدخل لحسم أعمال العنف (كما حدث في عامي

لقد كانت الغالبية الساحقة من الشعب الفلسطيني، نحو ٨٥ بالمائة من السكان،

من المسلمين السنيين الذين يتتمى معظمهم إلى المذهب الشافعى، أما البقية الباقية فكانت مقسمة بين المذهبين الحنفى والحنبلى، وبالرغم من أن مدينتى القدس والجليل كانتا تمثلان المركزين الدينيين، فإن السنيين انتشروا فى جميع أنحاء فلسطين وسيطرت على الحياة السياسية، وبحكم أنهم مجتمع ريفى فى أساسه، بعكس اليهود أو المسيحيين، فإنهم كانوا يشكلون فى أواخر عهد الإمبراطورية العثمانية، السواد الأعظم من مزارعى فلسطين .

ولم تكن فلسطين، على النقيض من سوريا في الشمال، بلاد الضيعات الواسعة، كانت هناك، ولاشك، بعض الأسر التي تمتلك مساحة تتراوح ما بين عشرة وخمسة عشر ألف فدان، ويعتقد أن أسرة الشواف في غزة تمتلك ما يقرب من خمسة وعشرين الف فدانا، ومع ذلك كانت معظم أراضي فلسطين مقسمة إلى ملكيات صغيرة، وكان نصف المؤارعين يعيشون في مستوى الكفاف ويزرعون مساحات تقل عن ثمانية افدنة. هذا فضلا عن ان ثلث الأسر الريفية لم تكن تمتلك أية أراضي بما اضطرهم إلى العمل لحساب جيرانهم، ومع نمو السكان (بمعدل اسرع بكثير من الزيادة في المدن) انخفض متوسط مساحة ملكيات الأراضي من حوالي عشرين فدانا في علم ١٩٣٠، إلى نحو عشرة افدنة في عام ١٩٤٤ حسب الإحصائيات البريطانية (لقد تضخمت إلى نحو عشرة افدنة في عام ١٩٤٤، هذه الارقام اذ شملت الضيمات الكبيرة، ولولا ذلك لكان متوسط مساحة الملكيات

وكانت هناك أنظمة عديدة لحيازة الأرض في فلسطين في ظل الحكم العثماني، فإلى جانب إستقجار الأرض من كبار الاقطاعيين، أو المؤسسات الخيرية الدينية كان «الملك» أو «الميرى» هو أهم النظم المتبعة في حيازة الأرض، فالملك هو نظام التملك الحر وإن كان من حق الأبناء، وفقا للشريعة الإسلامية، أن يرثوا ما لايقل

عن ثلثى ممتلكات ابيهم مقسمة بين البنين والبنات بنسبة ٢:١، أما الميرى فهو النظام الذى كان متبعا فى معظم انحاء فلسطين، فكانت الاراضى تعتبر، من الناحية الفنية، ملكا للدولة وتؤجر للافراد، ومن الناحية الفعلية كان المستأجرون يتمتعون بحق الملكية إذا كان بوسعهم تركها لابنائهم من يعدهم رغم انها لم تكن مسجلة بأسمائهم .

وكان تنوع الإنتاج الزراعى فى فلسطين يرجع إلى المفارقات الحادة فى المناخ والتربة من منطقة إلى أخرى، فمناخ وادى الأردن شبه استوائى وينتج التمور وبرتقال البحا الرائع، والى جوار البحر بالقرب من يافا يزرع البرتقال الشموتى، وبين السهل الساحلى ونهر الأردن، رقعة تمتد مسافة ثلاثين ميلا، تسودها أحوال مناخية شبيهة بأحوال مناخ جبال الألب، ومن أعالى نهر الأردن فى منتصف فصل الصيف يمكن برؤية ثلوج جيل الشيخ وأشجار صنوير الجليل، كما أن المناطق التى تنمو بها الفاكهة فى غزة لاتبعد سوى اميال من صحراء النقب أو التلال الجرداء فى جنوب القلس، هكذا يتضح بجلاء السبب فى تنوع الزراعة الفلسطينية: النبيذ من النطرون وبيت لحم، من رام الله والموز من جنين والقمح من اسدراليون والسمسم من حيفا واللوز من رام الله والموز من يافا والبطيخ من طولكرم، لقد تركز النشاط على الزراعة لأن مستوى تربية الماشية كان ضعيفا، وغالبا ما كانت الحمير تستورد من قبرص أو سوريا ولم يكن صوف الاغتام يصلح لغير صناعة السجاد .

وبالرغم من تنوع الفواكه والخضراوات فإن فلسطين تعد أرضا زراعتها صعبة، والأرض الوحيدة الخصبة بطبيعتها فهى السهل الساحلى ووادى اسدراليون، اما البقية فهى أساسا تلال جيرية منحدرة. وتعتمد معظم فلسطين على مياه الأمطار، فإن لم يسقط المطر تعذر وجود مصدر بديل للمياه، وإمتداداً من جبل الزيتون حتى اربحا لاتوجد أية مياه طبيعية على الإطلاق، كما يعمل المناخ ضد السكان، فحرارة وادى

الأردن المرهقة التى تصل إلى ٤٨ درجة مثوية فى الصيف لا تساعد على العمل الدوى، كما تتعرض البلاد من حين لآخر، إلى جانب الجفاف لكوارث طبيعية اخرى مثل الزلازل ووباء الجراد، ذلك الوباء الذى يقع بصفة تكاد تكون منتظمة كل ست سنوات، أو نحو ذلك. لقد دمر الجراد فى عام ١٨٨٦ معظم أشجار الزيتون فى فلسطين

وهناك ايضا مشكلات هي من صنع الإنسان، وفي تعليق على الكساد الإقتصادى في عام ١٨٧٩ كتب القنصل البريطاني في القدس يقول: «أن استنزاف جميع القادرين من الرجال للحرب الأخيرة وندرة المحاصيل ونقص الأمطار وارتفاع الأسعار وما لحق بالمثات من خسارة مدمرة نتيجة لعدم سداد فوائد سندات الحكومة التركية... هذه العوامل مجتمعة قد اسفرت عن فقر مدقع واسع النطاق وعن كساد عجاري وصناعي .

ومضى القنصل البريطانى ليزعم بأن فساد الادارة التركية زادت من سوء هذه الأوضاع. والواقع أن المسئولين العثمانيين كانوا في الغالب فاسدين وانصبت الضرائب على الزراعة والتجنيد الاجبارى على سكان الريف بمن يعيشون في فقر شديد، وإبان الحرب المالمية الأولى إزداد وضع الفلاحين سوء عندما قطعت معظم غابات فلسطين واستخدمت في الوقود، وفي ظل الإنتداب البريطاني تحسنت أحوال المعيشة بإدخال الخدمات الصحية وبداية التدريب على الزراعة، ومع ذلك كانت صرامة الاساليب البيطانية في تحصيل الضرائب على النقيض تماما من اساليب العثمانيين غير الكفء.

ولم يتسن للفلاح الفلسطيني من أن يرتفع بمستوى معيشته فوق حد الكفاف، فقد كانت الأرض والمناخ والعثمانيون يعملون جميعهم ضده، ومع ذلك كانت الزراعة صناعة تتسم بقدر معقول من الكفاءة، وكما ذكرت لجنة سيرجون هوب سمبسون في تقريرها في عام ١٩٣٠م :

«الفلاح ليس كسولا ولا يفتقر إلى الذكاء، فهو ماهر وخبير زراعي كفء، ومن المؤكد أنه لواتيحت له الفرصة لتعلم أساليب أفضل، ولو توافر له رأس المال اللازم لاستخدام تلك الأساليب لسارع في مخسين وضعه أن حرث الفلاح للأرض يرتى فوق مستوى النقد، وإعداد حقله للغرس لايقل في مستواه عن إعداده باية معدات أفضل، بل وفي بعض الاحيان يفوقها جميعا، لكن البطء هي نقطة الضعف الوحيدة.

كانت فلسطين قبل عام ١٩٤٨ تضم أكثر من ستمائة قرية وكان عدد كبير منها يشكل مجتمعات زراعية مستقلة يتركز نشاطها في انتاج ما يكفيها بدلا من الاهتمام بأسواق المدينة، ولما كانت معظم هذه القرى في مناطق نائية، لم يهتم الفلاح كثيرا بتصدير انتاجه، وانحصر اهتمامه في سد حاجته وحاجة أسرته، ومن ثم كان يزرع العديد من المحاصيل في مساحات صغيرة، كما كان يزرعها بترتيب معين فينضج محصول بعد الآخر فيوفر، بذلك، لنفسه الغذاء على مدار السنة. وكان يخدم هذا النمط من الزراعة وجود مساحات من الأرض على ارتفاع متباين يتناسب مع حاجة الفلاح إلى تنويع محاصيله، فالخضروات والموالح تزرع في الوديان واشجار الزيتون والوز والتين في المنحدرات المنخفضة، وفي مساحات اعلى تزرع الحبوب والكروم وأشجار التفاح. وكان الفلاح في فصل الشتاء يزرع محاصيل مثل القمح والشعير والعدس، وفي فصل الصيف تتنوع مزوعاته بصورة أكبر لتشمل الطماطم والشمام والسمسم.

ولأسباب صحية ومناخية وأمنية، كانت القرى تقام فوق التلال، فقد آثر العرب الحياة في الجبال حيث يكونون في مأمن من الملاريا ومن غارات البدو، ولم ينزلوا إلى الوديان أو السهل الساحلي الا لغرس البذور وحصد المحصول. وفي القرن التاسع عشر عندما نخسنت الأحوال الأمنية في المنطقة، بدأ سكان جبال نابلس بينون مستعمرات في الساحل ناحية الفرب، وفي نهاية القرن أصبحت تلك المستعمرات قوى مستقرة حتى وأن احتفظ سكانها بروابط وثيقة مع قراهم الأصلية بالقرب من نابلس .

وكانت القرية عادة تتمتع بالإكتفاء الذاتي إقتصاديا وإجتماعيا، بما مكنها من ال تكون مستقلة ومتميزة، فقد تولد عن صعوبة الاتصال والفوارق الحادة في البيئة سمات فردية متميزة، فيمكن لقريتين أن تعيشا متقابلتين ولايفصل بينهما سوى واد ضيق أن يتكلم سكانها لهجتين مختلفتين ويطهون وجبات مختلفة ويرتدون ملابس متباينة، وذلك نتيجة لتقاليدهم المحلية القوية وما جبلوا عليه، وقد يمكن التمرف على احدى القرى الفلسطينية من تطريز ثوب نسائها .

أما المنازل فكانت اقل تباينا ولم تختلف الا بإختلاف المنطقة، ففى وادى الأردن وعلى إمتداد السهل الساحلى كانت المنازل تشيد من اللبن بينما كانت الأغصان والطين تستخدم فى الجليل فى بناء الجدران، وتغطية العوارض الممتدة عبر السطح، وفى المناطق الجبلية وفى وسط البلاد كانت الحجارة تستخدم فى البناء، ولما كان الخشب نادراً فى جنوب الجليل اتخذت أسقف المنازل شكل قباب من الحجارة، ومع ذلك كان طراز البناء متماثلا، وعادة ما كان بيت الفلاح يتكون من غرفة كبيرة مقسمة إلى أجزاء مختلفة وفناء، وعندما يتزوج الأبناء ويكبر حجم الأسرة كانت تبنى غرف إضافية، وفى أيام الحصاد غالبا ما كان الفلاح يترك بيته ويميش فى الحقل فى كوخ مصنوع من الأغصان.

وتدور حياة القرية حول العائلة أو العشيرة التى لعبت فى ريف فلسطين دورا حاسما من النواحى الإجتماعية والإقتصادية؛ ففى السياسات الداخلية للقرية كانت تمارس على أساس عائلى ولاينحاز سكان القرية إلى جانب دون الآخر على اساس طبقى أو مصلحة إقتصادية بل تبعا لموقف رئيس العائلة، وكما هو الحال فى كافة المجتمعات العربية ومجتمعات البحر المتوسط فإن العائلة يسيطر عليها الرجال، ورغم أن الابناء يظلمون بدون امتلاك أية اراضى حتى وفاة ابيهم فانهم يخلفونه فى معظم ممتلكاته، وعند زواج شقيقاتهم، أو بنائهم يحصل الرجال على كل «ثمن العروس» تقريبا وإذا كان الاختيار موفقا فانه ينتظر من الشاب أن يتزوج فتاة من اقارب ابيه وعادة ما كان يعطى حتى الرفض، وأن كانت العروس من غير الاقرباء فعادة ما يخيم من القربة.

فى مثل هذا المجتمع الذى يفتقر إلى أى نوع من التأمين، تقع مسئولية العائلة على رئيسها، وتتعدد المسئوليات وتتراوح بين رعاية علاقات الاناث غير المتزوجات فى الأسرة وتوفير العمل لأبناء العمومة وأبناء الأشقاء والشقيقات، أما درر المرأة فى هذا المجتمع فكان دور التابع وإن كان دورا هاما ومحددا، فإلى جانب رعاية البيت وتربية الأطفال كانت المرأة تقوم بنشاط زراعى بارز، فكانت تعمل فى الحقل ومجمع المحصول فضلا عما تضطلع به من إعداد الخير وتخزين الحبوب وحفظ الفاكهة.

لقد كانت حدود القرية بالنسبة للكثيرين هي اقصى ما يسافرون اليه، وكان شيخ البلد هو السلطة الوحيدة التي يراها الكثيرون من القروبين إلى جانب فرق التجنيد العثمانية التي كانت تزور القرية من حين إلى آخر. وكان الوالى العثماني قبل عام ١٨٦٤، يمين الشيخ لحفظ النظام وجمع الضرائب في منطقة تتكون عادة من أربع أو خمس قرى. والواقع أن هذا التعيين كان شكليا، إذ كل ما كان الوالى يفعله هو الإعتراف بقوة الرجل الأقوى في المنطقة التي لاسيطرة حقيقية تذكر عليها للوالى نفسه، وكان الشيخ عادة هو أكبر إقطاعي في المنطقة ورث اللقب عن أبيه أو عن أخيه الأكبر، وفي معظم الأمور كان يتصرف باستقلالية تكاد تكون كاملة عن السلطات

العثمانية، إذ كان يجمع بين الهيمنة السياسية والسلطة القضائية والعسكرية، وفي الثلاثينات من القرن التاسع عشر قوض الإحتلال المصرى سلطة الشيخ، وعندما اغيدت من جديد فلسطين داخل حدود الامبراطورية اصدر العثمانيون سلسلة من القوانين الإدارية شملت الإصلاحات التنظيمية بهدف تدعيم نفوذ الحاكم في المناطق الريفية، وبموجب تلك القوانين جرد الشيوخ من سلطاتهم القضائية والعسكرية، وحلت محل الشيوخ شخصية اقل منه قوة هو مختار القرية، ومع ذلك ظلت مكانة الشيوخ الاجتماعية أرفع بكثير من مكانة المختار لدرجة إنهم استطاعوا الاحتفاظ بقدر كبير من سلطتهم حتى وقوع الاحتلال البريطاني في عام ١٩١٧م.

لقد أنشتت وظيفة الختار في عام ١٨٦٤، ولم تكن هذه الوظيفة وراثية بمكس وظيفة الشيخ، فكان المختار مجرد موظف مكلف بعدد من الواجبات الدنيا ولايملك أية سلطة مستقلة. وبالرغم من أنه في ظل الحكم المثماني، كان يشترط في المرشحين لهذاه الوظيفة أن يجيدوا القراءة والكتابة وأن يكون لديهم بعض الأملاك، نادرا ما كان المختار أفضل المتعلمين أو أغنى أفراد القرية. وفي ظل الحكم البريطاني أسقط شرط الملكية ومنح المختار راتبا حكوميا، ومن ثم اصبح أكثر إرتباطا بالسلطة نما جعله يفقد ثقة أهل القرية.

فى أواخر القرن التاسع عشر، أحدت المنافسة بين الشيخ والمختار تفقد مغزاها وبدأت السلطة تنتقل من المناطق الريفية إلى العائلات الكبيرة فى المدن ولاسيما العائلات الأرستقراطية العريقة فى القدس، وشجع العثمانيون هذا التحول إذ كانت مراقبة الاعيان فى المدن أسهل من مراقبة شبوخ الريف، بل كانوا أكثر ميلا إلى التعاون مع السلطات. ولهذا تمت ترقيتهم إلى مناصب ارفع فى داخل فلسطين وفى ربوع الامبراطورية. فعمل الفلسطينيون فى سوريا والعراق واصبح أحدهم واليا على

اليمن، بل أضحى عدد منهم نوابا في البرلمان العثماني. كذلك استمرت هيمنة عائلات المدينة على الشئون السياسية خلال فترة الإنتداب البريطاني ومن بين أعضاء اللجنة العربية العليا الاثنين والثلاثين خلال الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٤٨ لم يكن من أصل ريفي سوى أربعة أعضاء .

لم تصبح القدس أبرز مدينة في فلسطين الا في القرن التاسع عشر حتى وأن كانت في عام ١٨٥٨ لاتزال، وفقا لما ذكره ادوارد لير «اقذر وأبشع مكان على وجه الأرض» وقد ترجع زيادة أهمية القدس السياسية إلى القرار الإدارى العثماني بجعل القدس تابعة مباشرة للباب العالى العثماني بدلا من تبعيتها لولاة صيدا أو دمشق كسابق عهدها. فهذا التطور الذى رفع من مكانة القدس إلى مستوى دمشق نفسها أكد أن المدينة أرفع شأنا من المدن الفلسطينية: يافا، ونابلس ،وغزة، وهكذا ظل أعيان القدس، حتى إنهيار فلسطين، زعماء سكان البلاد، تلك الحقيقة التي كثيرا ما أثارت السياء سكان المناطق الأخرى .

وفى الخمسينات من القرن التاسع عشر وصف القنصل البريطاني الوضع فى القدس بقوله: فما يجدر ذكره أن رابطة متماسكة من المائلات العربية، لايعترف بها القانون وان تكن ذى نفوذ بحكم مكانتها، قد إغتصبت فيما بينها جميع وظائف البلدية. وبالرغم من وجود عائلات مسيحية عربقة مثل عائلتي القطان وعطا الله، فإن العائلات السنية الكبيرة هي التي كان لها وزن سياسي حقيقي ومن ابرزها عائلات الحسيني والخالدي والعليمي والنشاشيبي وجار الله ونسيبه. ولم تكن قوة تلك المائلات تستند إلى الغروة والممتلكات (وان وجدت عائلات مثل عائلة عبد الحديث، كانت تمتلك مبعة عشر قرية بالقرب من نابلس) بقدر استنادها على المكانة المورثة. ولما كان تمتلك صبعة عشر قرية بالقرب من نابلس) بقدر استنادها على المكانة المورثة. ولما كان تعتلك ونقيب الأشراف (رئيس الأوقاف) أهم منصبين في الإدارة العثمانية لم يتولاهما

غير واحد من العائلات الكبيرة حتى وإن كان المنصبان غير وراثيين. فمنذ القرن الثامن عشر تعاقبت عائلتى الحسينى والعليمى فى تولى المنصبين، كما كانت عائلة جار الله تشغل منصب مفتى القدس من حين لآخر .

وظلت تلك العائلات حتى أواخر القرن التاسع عشر تعيش معا في المدينة القديمة، فكانت كدليل قوى على الاستمرارية التاريخية، تقطن نفس الأماكن التي عاش فيها أجدادهم وقاموا بما كانوا يقومون به من واجبات. فمنذ القرن السابع وتقوم عائلة نسيبه بالوصاية على القبر المقدس (فمن أجل تجنب المنافسة بين الكنائس اوكلت تلك المهمة إلى مسلم) كما أنها تخصصت في التعليم وفي الأعمال الحكومية اما عائلة جار الله فكانت أسرة دينية تولت أمور الشريعة كما انصب اهتمام عائلة الخالدي، وهي الأسرة اللبيرالية البارزة، على التعليم والشئون السياسية، ومن عائلة الخطيب خرج وعاظ وخدام المسجد الأقصى لفترة ثماني مائة عام .

وشهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر مخولات سريعة فى أسلوب حياة تلك المعاثلات، لقد كانوا حتى ذلك الوقت يعيشون فى الأحياء القديمة داخل المدينة المسورة التى قسمت بين المناطق الإسلامية والأحياء المسيحية والأرمنية واليهودية الاصغر مساحة فما لبثوا أن بدأوا، بقيادة عائلة العليمى، يخرجون من المدينة إلى البساتين وجوانب التلال المحيطة بالقدس، وكانت المنازل التى شيدوها تتألف من حجارة نابلس الخفيفة، التى يعدها بناؤو الحجر من بيت لحم، وأسطح من القرميد الأحمر ونوافله مرتفعة على الطراز الفينيسى. وفى عام ١٨٩٩ انتقلت عائلة عطا الله مسافة ميلين ناحية المجوب وشيدت المنازل على امتداد الطريق إلى بيت لحم، وحذت حذوها العائلات المسيحية الاخرى. اما المسلمون، امثال عائلات العليمى والسعدى وجار الله نقد آلروا البجانب الشمالى من المدينة حيث أقاموا حى الموسرارا إلى الغرب من الطريق فقد آلروا البجانب الشمالى من المدينة حيث أقاموا حى الموسرارا إلى الغرب من الطريق

إلى نابلس.

كان التعليم الغربي مسئولا عن بعض التغييرات، فلقد تركت المدارس الأمريكية والبريطانية تأثيرها، ولا شك، على أفكار تلاميذها وأخلاقهم، كما كان التغيير في الزخرفة المداخلية هو أحد النتائج المتطورة لهذا التأثير. ولم ينته القرن التاسع عشر حتى كانت عائلة العليمي قد تخلصت من الاثاث الدمشقي الثقيل والمطعم يعرق اللؤلؤ لتحل المقاعد ذو المساند والأرائك محل المتكآت. ولقد ذكر لورنس اوليفانت في عام ١٨٨٤، أن أحد الأعيان وشرع في الأخذ بالعادات المتحضرة، فبذاً ينام فوق سرير بدلا من الحصير كما كان يفعل أسلافه وأضاف بأن النساء، حتى الطبقات الفقيرة، أخذن يرتدين قمصان النوم كما أن مائدة وأربعة مقاعد بدأت تضاف إلى أثاث المنزل بل يرتدين قمصان النوم على ما يشبه الأسرة.

كان طبيعيا أن يترك هذا التغيير تاثيره على الملابس فإختفاء المتكات كان، إلى حد بعيد؛ نتيجة إلى إرتداء السراويل والفراك الذى جعل من الصعب جلوس القرفصاء، وأشار ميجور كوندر إلى أن الثورة الغربية قد بدأت في عام ۱۸۷۲، ولم يمض على ذلك عقد من الزمان حتى كان المسافرون في بلاد الشرق يشاهدون الملابس الغربية والأفكار الغربية بل واللغات الغربية. كما زعم لورنس اوليفانت انه لم يبق من اللباس الشرقي غير الطربوش الذى احتفظ به أثرياء الفلسطينيين، وأعرب فرانسيس نبوتن، بعد الشرقي غير الطربوش عن أسفه لأن حتى هذا الطربوش قد حلت القبعة محله. وبنهاية القرن أصبحت بيروت، المركز الرئيسي لتوزيع الملابس الغربية، كما أخذت الأقمشة المطبوعة والمظلات النسائية والشباشب المرتفعة تنقل إلى ساحل فلسطين.

لقد كان الاقتصاد الفلسطيني يعتمد أساسا على الزراعة لافتقار البلاد إلى المواد الخام، ومن ثم لم تكن هناك فرصة لظهور طبقة كبيرة من المقاولين، وأن وجدت دائما طائفة صغيرة من التجار تعتمد على بعض الصناعات القليلة، وبالرغم من أن الطريق البحرى إلى الهند قد أضعفها في القرن الخامس عشر، إلا أنها ظلت قائمة بصورة متواضعة وكانت نابلس، طبقا لما ذكره س.ف. قولني، أكثر المدن رخاء خلال القرن الثامن عشر معتمدة في ثروتها على القمع وزيت الزيتون وكان الصابون المصنوع من زيت الريتون يمثل دائما الصناعة الرئيسية في فلسطين وكانت نابلس مركزا لهذه الصناعة، وأن وجدت ايضا بعض مصانع الصابون في غزة ورام الله والجليل. كما اشتهرت غزة بنسيج القطن حيث كان يوجد، وفقا لما ذكره قولني، نحو خمسمائة نول ولاتوال مدينة الخليل مشهورة بصناعة الرجاج.

وبالاضافة إلى الزراعة كانت المناطق اللاخلية في فلسطين مركزا للصناعات الصغيرة وللحرف التى يقوم المسيحيون بالكثير منها، وطبقا للاحصاء السكاني الذى اجرى في عام ١٩٣٨ كان اثنان من بين ثلاثة مسلمين يشتفلون بالزراعة، حين كان مسيحي من بين سبعة مسيحيين يعمل في هذا الجال، فالمسيحيون المتعلمون يشتفلون بالتجارة والمهن الحرة: وكان الاطباء والمحامون والصياغ والبقالون والبناءون والحدادون مسيحيين أكثر منهم مسلمين، كما شملت بعض الحرف التقليدية الاخرى التي كان المسيحيون يزاولونها (النجارة والطحن وصناعة الخزف والدباغة، وكانت المائلات المسلمة تقبل على الأعمال الحكومية التي كان من النادر أن يقوم بها المسيحيون حتى المائلات الربطاني .

وفى العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين أخذ الفلاحون يتركون الأرض بأعداد كبيرة، وذلك فى الوقت الذى انفق فيه شراء اليهود للأراضى الزراعية الجيدة مع زيادة سكان الريف الفلسطينين، ومن لم يستطع الهجرة التى لم تكن فرصة متاحة للكثيرين منهم بدت موانى البحر المتوسط وكأنها توفر الفرصة الوحيدة للحياة الكريمة وكانت يافا وحيفا هدفين رئيسيين، وبحلول عام ١٩٣٥ بشأت مدن كبيرة من الأكواخ خارج هاتين المدينتين. وأصبحت يافا ميناء هاما بعد عام ١٨٦٤ عندما زود الميناء بفنار ومكان انزال، وإزدادت أهميتها في عام ١٨٩٠ بافتتاح الخط الملاحي مع ليفربول، ومع ذلك ظل الميناء يفتقر إلى العمل بكفاءة، فقد كان مليئا بالصخور بالدرجة التي تختم معها نقل الركاب في قوارب صغيرة إلى الشاطع، أما ميناء حيفا فكان المنافس الوحيد بعد أن تدهور ميناء عكا، وصار قلعة مهجورة، وإبان حكم السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٩) إزداد سكان كل من حيفا ويافا زيادة كبيرة، وتعززت مكانة حيفا بفضل مشروعات التنمية إبان فترة الانتداب. وكانت غزة ثالث ميناء من حيث الاهمية. فبينما ركزت يافا على تصدير الصابون والبرتقال والسمسم كانت غزة المنفذ الرئيسي لتصدير ما كان يزرع من حبوب حول الخليل وسبع فضلا عن أنها كانت من الموردين الرئيسيين للشعير لصناعة الجهة الالمائية في القرن التامع عشر .

كذلك أخذت وسائل المواصلات تتحسن في النصف الثاني من القرن الناسع عشر، فثبكة الطرق التي مدها الرومان في الأصل تم توسيمها، وفي عام ١٨٦٧ افتتح الطريق الذي يربط بين القدس ويافا لتتبعه طرق في نابلس والجليل حتى أن لورنس اوليفانت الذي يصعب إرضاؤه كتب في عام ١٨٨٥ يقول: «إنني أعتبر الطريق الممتد من القدس إلى اربيحا في الوقت الحالي آمنا كبرودواي فلا تقع به أية حوادث في النهار «كذلك بدأوا في انشاء خطوط السكك الحديدية، وفي عام ١٨٩١ أكمل الخط الحديدي الممتد من يافا إلى القدس، كما تم مد خطوط أخرى من حيفا في سنوات لاحقة .

أما البدو فكانوا قبل عام ١٩٤٨، على هامش الحياة الإجتماعية والإقتصادية في

فلسطين، ومع ذلك فهم عرب فلسطينيون وبالرغم من أن الاوربيين كانوا يبجلون حياة البدو على حساب العرب المستقرين (في الصحراء وحدها يعيش العربي الحقيقي) ملاحظة يرددها السافرون الانجليز. الا ان تلك الحياة كانت أقل رومانسية بما تصورته نساء عصر الملك ادوارد، فلم يكونوا على اتصال ببقية السكان، وتباينت أساليب حياتهم، وكانوا يعيشون اما في كهوف أو في خيام من شعر الماعز الأسود حيث يعضون حياتهم على حافة الصحراء، أما علاقتهم بغيرهم من الفلسطينيين فكانت ضعيفة، ولم تكن كما يرى الفلاحون علاقات طيبة، فكانت قرى الفلاحين تقام فوق قمم التلال وليس في الوديان الخصيبة لسبب رئيسي هو سهولة حماية أنفسهم من البدو المغيرين بحثا عن الطعام. وكثيرا ما اضطر الفلاحون على أن يدفموا لاحدى القبائل أجرا لحمايتهم من القبائل الأخرى، ومن أجمل الأغاني الفلسطينية رئاء فتاة

وعانت جماعات صغيرة من البدو عند أطراف الأراضى المزروعة فى شمال فلسطين، ولم تتركز حياة البدو فى الجليل على الجمال (كما هو الحال فى الجنوب) بل على الأغنام والماعز وبصورة أقل على الجاموس، وكانت هذه الجماعات الشمالية لتتحدث لهجة عربية خاصة وكان بعضها من أصل كردى وتوركمانى، ولكن السواد الأعظم من بدو فلسيطن يتركز فى صحراء النقب الخفة بسيناء والأردن والبحر الاحمر، ويعرف هؤلاء يقبائل غزة وقدر عددهم ابان الانتداب البريطانى بما يتراوح بين الاحمر، ويعرف هؤلاء يقبائل غزة وقدر عددهم ابان الانتداب البريطانى بما يتراوح بين الخامس ظل حجمهم صغيرا وأهميتهم محدودة حتى وقوع هجرات جديدة أيام الغزو المغمانى لفلسطين بعد الف سنة. وحاول الاتراك توطين البدو فى المجتمعات الزراعية الكن دون جدوى، وواصلت القبائل الرئيسية -قبيلة «التياها» بفروعها الثمانية والعشرين الكن دون جدوى، ولوصلت القبائل الرئيسية -قبيلة «التياها» بفروعها الثمانية والعشرين الكن دون جدوى، ولحسلة الفيائل الرئيسية -قبيلة «التياها» بفروعها الدمانية والعشرين العدالية والعشرين المنالية والعشرين العدوب العالمية والعشرين العدوب العالمية والعشرين المنالية والعشرين العدوب العدوب العالمية المنالية والعشرين المنالية والعشرين المنالية والعشرين العدوب العدوب العالمية المنالية والعشرين المنالية والعشرين العدوب العدوب العالمية المنالية والعشرين المنالية والعشرين المنالية المنالية والعشرين المنالية والعشرين المنالية والعشرين المنالية المنالية المنالية المنالية والعشرين المنالية والعشرين المنالية المنالية المنالية المنالية المنالية المنالية المنالية المنالية والمنالية المنالية المنالية المنالية والعشرين المنالية المنالية المنالية المنالية المنالية المنالية المنالية والمنالية والمنالية المنالية المنالية المنالية والمنالية المنالية والمنالية المنالية والمنالية والمنالية والمنالية والمنالية والمنالية والمنالية المنالية والمنالية والمنال

الاولى، ثم حدث تغيير جذرى فى أسلوب حياتهم لاكتنيجة للحكم البريطانى بل نتيجة للتغييرات التقنية التى قللت من عدد البدو فى جميع انحاء العالم، فقد وجددت اعداد كبير من رجال القبائل نفسها مضطرة إلى ممارسة عمل زراعى دائم عندما انهارت دعائم الانتشاء البدوي، فاستخدام العربة قض على اهم الانتشاء البدوية وهى تربية الجمال والخيل، واشار مفوض بمر سبع ابان الانتداب البريطانى إلى أن الجمل الدى كان يتراوح ثمنه بين عشرين وثلاثين جنيها فى عام ١٩١٤م لم يزد سعره عن ثلاثة جنيهات بعد ذلك بعشرين عاما .

الفصل الثانى

ظعور الشخصية القومية

تساءل ليفي اشكول، رئيس وزراء إسرائيل في أواخر الستينات، ماهي حقيقة الفلسطينيين ١٦ ولم يكن سؤالا بريئا صادرا عن عقل يبحث عن الحقيقة، ولم يكن اشكول ينتظر في لهفة ردا، لأن السؤال كان قد طرحه من قبل مرارا الزعماء الإسرائيليون في محاولة منهم لرفض مطالب الشعب الفلسطيني. ولما أراد انشتين معرفة ما سوف يحدث للعرب إذا ما نجحت المخططات الصهيونية، أجاب وايزمان في سخرية: أى عرب؟ ليست لهم أهمية تذكر(١). أن الموقف الصهيوني الدائم هو: ليس للفلسطينيين أهمية وفي سبيل اقناع غيرهم بهذا الموقف تعين على جولدا مائير ورفاقها ان يزعموا بأنه لاوجود للفلسطينيين في واقع الأمر، وحتى لو ارغم الإسرائيليون علم. الاعتراف بوجود الفلسطينيين كبشر، فانهم لايعترفون بهم كفلسطينيين بل كعرب، هذا هو السبب الذي حمل ابا ايان في سيرته الذاتية على أن يضع كلمة الفلسطينيين بين الاقواس ويصر الصهاينة على أن الفلسطينيين لايشكلون امة وانه لا يمكن فصلهم عن عرب الهلال الخصيب، كما يعلنون أن فلسطين كيان اصطناعي خلقه البريطانيون الذين «ابتدعوا» الفلسطينيين في عام ١٩٢٥ عند اعادة تسمية سكان الامبراطورية العثمانية القديمة، ويردد الصهاينة بأن لفظ ٤سوريا، كان حتى الحرب العالمية الاولى، يشمل المناطق المعروفة الآن باسم لبنان والأردن وفلسطين، ويشيرون إلى أن معاهدة لندن في عام ١٨٤٠ تشير إلى منطقة عكا (في شمال فلسطين) بجنوب سوريا .

ويقيم الصهاينة مزاعمهم على أساس ما كان قائما فى سنوات انهيار الامبراطورية العثمانية حين كان أحد الأسس الهامة فى السياسة التركية هى عدم تشجيع الولاءات الأقليمية، لقد كان تفكك الامبراطورية العثمانية على المدى البعيد حتميا لأن الدول الغربية لم تستطع كبح جماح أطماع كل منها الأخرى في دول البلقان والشرق الاوسط، لكن السياسة الحكيمة التي انتهجها السلطان عبد الحميد في المناطق الغربية الخاضعة له ابطأت عملية التفكك، وفي محاولة منه لتأكيد تطابق المصالح بين الاتراك والعرب أقام المساجد والمدارس في جميع أنحاء سوريا والشرق، وامر بانشاء خط الحجاز الحديدي، وفي عام ١٨٨٧، انتخب المجلس النيابي الذي سرعان ما أغفل، ثم انتخب آخر في عام ١٩٠٨ وثالث في عام ١٩١٢ بعد خلع السلطان، وجاء النواب من جميع أنحاء الامبراطورية، نصفهم من الأتراك والربع تقريبا من العرب والبقية من الألبانيين واليونانيين والأرمن وعن طريق اظهار أنفسهم بمظهر حكام الامبراطورية المتعددة الجنسيات االذين يمنحون السيادة السياسية وحق التمثيل النيابي للأقليات الخاضعة لهم، استطاع عبد الحميد وخلفاؤه من تمديد عمر حكوماتهم بهالرغم من أن فساد العثمانيون ومطالبهم الخاصة بالتجنيد ونظامهم الضرائبي أثار قدرا من الاستياء في فلسطين، فإن الأتراك لم يواجهوا كراهية شعبية حتى نشوب الحرب لعالمية الاولى، ولاغرابة في أن الكثيرين من الفلسطينيين الطاعنين في السن ينظرون لى العهد العثماني بحنين وخاصة في ضوء ما مروا به في عهود لاحقة. ويذكر موسى لعليمي، وهو من أبرز الشخصيات الفلسطينية في جيله، أن العرب كانوا يعتبرون لأتراك شركاء وليسوا قاهرين. وكانت الحاميات العثمانية صغيرة والمعارضة الشديدة ادرة، وفوق هذا كله كان يحكم فلسطين إلى حد كبير مسئولون فلسطينيون ويزعم وسي العليمي وان درجة الحرية والحكم الذاتي في فلسطين كانت أعظم منها في كثير من الاقليم التركية»(1) .

أما حركة القومية العربية، التي قضت بالاشتراك مع الجيش البريطاني على لامبراطورية العثمانية فكانت في بدايتها قوة ثقافية وإن كان هناك أي محتوى سياسي ي الشعور العربي القومي في نهاية القرن التاسع عشر، فكان موجها ضد التدخل الغربى فى العالم العربى وليس ضد الأتراك. وفى غضون العقد التاسع من القرن التاسع عشر قدم القنصل البريطانى فى القدس تقريرا حول الشعور القومى المعادى لبريطانيا اثناء الحملات ضد (عرابى فى مصر والمهدى فى السودان)، ومن ذلك لم تكن ثمة قلاقل سياسية تذكر ضد العثمانيين .

كانت القومية العربية، التي بدأت كحركة فكرية، تعمل على نشر الوعى العربى عن طريق احياء الثقافة العربية وخاصة اللغة العربية، وعجمع المفكرون في جمعيات مثل الجمعية العلمية السورية وجمعية الفنون والعلوم، وعلى الرغم من أن تلك الجمعيات أدت إلى قيام المزيد من المنظمات السياسية انحصرت المعارضة للامبراطورية العثمانية حتى نشوب الحرب العالمية الاولى في الدوائر الفكرية .

وكان عدد الفلسطينيين الأعضاء في جمعيات تهدف إلى الاطاحة بالأتراك قبل عام ١٩١٤ يمد بالمشرات، ويتذكر احمد طوفان وهو فلسطيني من تابلس، وأصبح وزيرا لخارجية الأردن، العثمانيين بوضوح تام ويذكر أنه لم تكن هناك أية حركة شعبية ضد الاتراك حتى بمد نشوب الحرب، ويعتقد أنه لولا الاجراءات القمعية التي اتخذها الحاكم التركي ضد قادة الحركة الوطنية لما شهدت سوريا وفلسطين انتفاضة عربية، وحتى بعد إعدام عدد كبير من القوميين في بيروت ودمشق أحجم الكثيرون من الفلسطينيين وخاصة من القدس عن تغيير ولاثهم وبعد أن فرضت بريطانيا وفرنسا سيطرتهما على الشرق الاوسط في أوائل العشرينات، طالبت جماعة كبيرة من الفلسطينيين، من بينهم أعضاء من معظم الأسر الكبيرة في القدس بعودة الحكم التركي.

ولما بددت الحرب الأمل في عودة الأنراك عاد الفلسطينيون للقومية العربية، وادراكا منهم بالخطر الذي يتهددهم من جانب القوى الغربية ولاسيما من الحركة لصهيونية التى ربطت بريطانيا نفسها بها، طالبوا باستقلال العرب وبالوحدة مع سوريا، وفى تقرير للجنة الأمريكية التى بعث بها الرئيس ويلسون إلى الشرق الاوسط جاء: وأن العرب من مسلمين ومسيحين يرغبون فى الاحتفاظ بوحدة بلادهم مع سوريا فهم يعتبرون فلسطين من التاحيتين التاريخية والجغرافية جزء منها .

وبينما كان الفلسطينيون ينتظرون أن تفى بريطانيا بوعادها التى قطعتها لشريف مكة ابان الحرب، فانهم كانوا يتطلعون إلى الارتباط بالدولة العربية الموعودة، وعندما بات واضحا أن الشرق الاوسط سوف يقسم وأن فرنسا سوف تسترلى على سوريا بأى حال، شرع الفلسطينيون يركزون نضالهم ضد بريطانيا والصهيونية، ولم يكن هناك حتى عام ١٩٢٠ شعور شعبى ازاء مصير فلسطين، فلم يكن الشعب الفلسطيني يعتبر نفسه منفصلا عن بقية العرب، اما اولئك الذين كانوا يعيشون في سنجق القدس ويعتبرون القدس عاصمة لهم، ربحا كان لديهم شعور بالكيان أو بالشخصية الثقافية والاقتصادية المستقلة إلى جانب الانتماء السياسي لاسطنبول، ومع ذلك كانت هناك روابط ربطت الفلسطينيين دوما وجعلت منهم كيانا متميزا إلى حد ما عن جيرانهم.

لقد وجد إسم فلسطين على سبيل المثال بصور متباينة منذ عهد الاغريق وكلمة (PALAESTINE) اليونانية اصبحت PALAESTINE في اللاتينية ثم فلسطين في العربية، فمبر كل هذه العصور وحتى الحقبة العثمانية كانت فلسطين وحدة ادارية مقسمة إلى مناطق اصغر، وفي ظل الهيمنة التركية ابقى على السنجقيات منفصلة بوجه عام حتى وان اصبحت مناطق نابلس وغزة لفترة وجيزة في العقد السادس من القرن التاسع عشر جزء من سنجق القدس. وأسهمت عوامل اخرى في بروز الشخصية الفلسطينية مثل الاحتفالات الدينية في النبي موسى التي كان يحضرها المسلمون من كافة أنحاء فلسيطن والسلطة القضائية للجماعات المسيحية التي وضعت في اعتبارها الحدود

التاريخية لفلسطين، هذا بالاضافة إلى جعل القدس في عام ١٩١٠ مركزا قانونيا بوجود محكمة الاستثناف الخاصة بها وتأسيس صحيفة فلسطين في يافا بعد ذلك بعام واحد. وزيادة على ذلك فان اوروبا وامريكا كانتا تعتبران فلسطين وسكانها بوجه عام كيانا متميزا عن جيرانه. وفي عام ١٩١٠، نشر ماكسيم ويكامب، رفيق فولبريت في السفر، كتاب صدر تحت عنوان ومصر والنوبة وفلسطين وسوريا، وفي عام ١٨٧٦ صدر دليل بعنوان وفلسطين وسوريا، وفي وقت لاحق اثناء المراسلات الشهيرة بين تيودور هرتول والسلطان عبد الحميد، اشار الرجلان بنوع الخصوص إلى فلسطين، ولم يكن لدى أي منهما، فيما يبدو، شك عما يتحدثان .

وكان واضحا عندما بدأت اوروبا في تصفية الامبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى، انها تعتبر فلسطين كيانا متميزا من حقه أن ينال الاستقلال في نهاية المطاف، وفي عام ١٩٢٢ منحت عصبة الام بريطانيا حتى الانتداب على فلسطين، وكما جاء في المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الام، فإن الانتداب يستند إلى مبدأ حتى تقرير المصير والاعتراف المؤقت بالشعب الفلسطيني كأمة مستقلة، وأن بعض المجتمعات التي كانت تنتمي سابقا للامبراطورية التركية (أي سوريا والعراق ولبنان وشرق الاردن وفلسطين) قد بلغت مرحلة من التنمية يمكن من الاعتراف المؤقت بوجودها كأم مستقلة في حاجة إلى المشورة الادارية ومساعدة دولة انتداب حتى يأتي الوقت الذي تتمكن فيه من الوقوف بمفردها.

والقومية بين الفلسطينيين لم تبرز، شأنها شأن شعوب أخرى، الا بوجود تهديد خارجى. فالحركة الصهيونية التى نشطت فى فلسطين ابان السنوات الأخييرة للامبراطورية العشمانية كانت، تمثل بلاشك، هذا التهديد، ومن ثم كانت مسئولة جزئيا عن نمو القومية الفلسطينية، ففى بداية هذا القرن إتسع نطاق المعارضة للصهيونية مع تطور الاحتكاك بين الفلاحين الفلسطينيين والمستعمرين الصهاينة الذين كانت تمولهم اسرتى روتشيلد والبارون دى هرستش، وازداد هذا الاحتكاك بريادة الهجرة اليهودية، وبالرغم من أن جماعة اليهود الشرقيين الصغيرة في فلسطين كانت دائما على علاقات طبعة مع العرب، فإن المهاجرين الجدد كانوا من يهود اوروبا الذين لم يحاولوا قط الاندماج في المجتمع القائم، فرفضوا تعلم اللغة العربية، وقاطعوا، كمبدأ، المحال التجارية العربية والعمال العرب، فكان الصهاينة يهدفون إلى اقامة مجتمعهم الخاص، ولم يكن يعنيهم غير هذا الهدف واعرب مراسل الصحيفة الصهيونية الرئيسية في فلسطين «هاعولام» عن اسفه في وقت مبكر في عام ١٩١١ حين قال: لقد نسينا تماما ان هناك عربا في فلسطين ولم نكتشف وجودهم الا في السنوات الاخيرة.. ولم نعرهم أي اهتمام، بل ولم نحاول قط ان نختار من بينهم اصدقاء .

لقد أصبحت الصهيونية بالنسبة للعرب قضية سياسية، قبل الحرب العالمية الاولى بوقت قصير، فقد ناقشها البرلمان العثماني، وطرحت في الصحافة، كما ان تأثيرها على الرأى العام العربي جعلها قضية انتخابية في عام ١٩١٤ حين تعهد راغب النشاشيبي أحد المرشحين الفائزين في القدس قائلا: لو انني انتخبت نائبا لبذلت قصارى جهدى وعملت ليل نهار من أجل القضاء على الخطر الذي يتربص بنا من جانب الصهيونية والصهاينة، وخلال السنوات الاخيرة للامبراطورية ساد بين العرب الوعى بخطر الصهيونية وأدراك مطمعها النهائي. وذكر احد القوميين الفلسطينيين في يومياته ولولا سعى الحركة الصهيونية لبناء وجودها على أنقاض شعب آخر، لما مقتهاه.

هكذا اصبحت اعداد متزايدة من الفلسطينيين واعية بالخطر الصهيوني، وفي العقد الثالث من القرن التاسع عشر، بات المخطط الصهيوني واضحا بجلاء للسواد الاعظم من الناس بالرغم مما قام به وايزمان ورفاقه من محاولات اخفاء اهدافهم، وعلى

أية حال كانت هذه الاهداف مسجلة ويمكن لمن اهتم بها الاطلاع عليها. ففي مؤتمر بال عام ١٨٩٧ زعم هرتزل أنه أسس الدولة اليهودية حتى وان حاول واحد من خلفائه وأن يجد اسلوبا غامضا للتمبير عما نريد بشرط ان يكون بطريقة تساعد على بجنب اثارة الاتراك الذين يسيطرون على الارض التى نشتهيها، وفي وقت صدور اعلان بلفور، عندما كان الزعماء الصهاينة لايتحدثون جهارا الا عن الوطن القرمي، كانوا يرسمون بشكل سافر حدود دولتهم المستقبلة، فكتب صهيوني امريكي بارز في عام ١٩١٩ وأن دولة فلسطين اليهودية حقيقة وإننا نقوم الآن بتحديد حدود الدولة .

وأعلن إسرائيل زامجويل، احد انبياء الصهيونية، في نفس العام ولابد من ان يمتللك اليهود فلسطين، كما يمتلك العرب شبه الجزيرة العربية، او يمتلك البولنديون بولنداه.

وبالرغم من كلماته المسولة لوزارة الخارجية البريطانية، فإن وايزمان نفسه لم يستطع الادعاء إلى اجل غير مسمى أن كل ما يهدف اليه هو اقامة وطن قومى بدون أى مغزى سياسى، ففى برقية بعث بها إلى زميل فى بداية عام ١٩١٩ أعرب وإيزمان عن أهله فى أن تتشكل الادارة الفلسطينية بأكملها على النحو الذى يجمل فلسطين كومنولث يهودى تحت الوصاية البريطانية ووسؤ الحظ رأى لورد كرزون البرقية وتساعل، ما معنى كومنولث؟ لقد بحثت فى معاجمى فوجدت انها تعنى ودولة، ووجهاز سياسى، و وجماعة مستقلة، ووجمهورية، ... إذا ما فائدة أن نغلق اعيننا عن حقيقة أن هذا هو ما يهدف البه الصهاينة وان الوصاية البريطانية ليست سوى ستار يختفون وراءه لتحقيق هذه الغاية؟ وتصبح المسألة اشد سوءا عندما يقول وايزمان الصديقه شيئا ويعلن للرأى العام شيئا آخره.

وفي نفس اليوم كتب كرزون إلى بلفور يقول «انني على يقين تام من ان

وايزمان يقول شيئا لك او بينما انت تقصد شيئا معينا بالوطن القومى فانه يهدف إلى تحقيق شئ مغاير تماما، فهو يتطلع إلى اقامة درل «يهودية وامه يهودية وسكان تابعين من الخرب يخضعون لحكم اليهود، والى يهود يمتلكون اجود الاراضى ويتولون الادارة».

كان هذا استنتاجا شاركه فيه سياسيون ومسئولون آخرون، فالجنرال سير لويس بولز، كبير الاداريين في بداية الانتداب، شكى من دانه يستحيل ارضاء الانصار الذين لايطالبون بأكثر من وطن قومى، لكنهم في الحقيقة لايرضون بأقل من دولة يهودية وبكل ما تنطوى عليه سياسيا».

إذا كان هذا هو هدف الصهاينة فما هو الدور الذى تصوروه لسكان البلاد من الفلسطينيين؟ ومرة احرى نقول انه بمجرد ازاحة قناع الخداع تبدو الاجابة على السؤال واضحة. حدث مرة ان اخبر وايزمان، في لحظة فقد فيها سيطرته على عواطفه، جمهور من الانجليز ان الصهانية قسوف يقيمون في فلسطين نوع الجتمع الذى يجملها يهودية بقدر ما انجلترا انجليزية وأمريكا أمريكية، فما تأثير هذا على الفلسطينيين؟ لقد قدم هرتزل الجواب على هذا السؤال قبل ذلك بعشرين عاما أو يزيد حين قال: سوف يصادر الصهاينة في هدوء الممتلكات العربية وسوف يعملون على تشجيع السكان الفقراء على عبور الحدود بتوفير عمل لهم في الدول التي يعبرون إليها مع حرمانهم من أي عمل في بلادنا .

وكان حمل السكان على ترك البلاد أو طردهم عبر الحدود يحتل مكان الصدارة في جدول أعمال وايزمان، ففي عام ١٩٣١، أوضح للمندوب السامي في القدس أنه يرغب في توطين الفلسطينيين في شرق الأردن. وبعد ذلك بسبع سنوات عندما أوصت لجنة بيل بتسليم الجليل بغالبيته العربية إلى الدولة اليهودية، ابلغ وايزمان سكرتير

الاستيطان أنه على إستعداد أن يعاون بريطانيا في نقل العرب من الجليل عبر نهر الأردن .

بل كان بعض الصهاينة أكثر صراحة فيما بينهم على الأقل، فكتب جوزيف فيتز المكلف بمهام توطين اليهود في عام ١٩٤٠، يقول:

ينبغى أن يكون واضحا فيما بيننا انه لامجال للشعبين ان يعيشا معا في هذه البلاد... وسوف لانستطيع تحقيق هدفنا كدولة مستقلة مع وجود العرب في هذه البلاد الصغيرة، والحل الوحيد هو قيام فلسطين على الاقل فلسطين الفربية (غرب نهر الاردن) بدون عرب.. وليس هناك من طريقة سوى نقل العرب من هنا إلى الدول المجاورة، نقل العرب جميعهم، دون ترك قية واحدة أو قبيلة واحدة .

وأكد صهيوني بريطاني، رائد بحرى، ج.م كنورثي، عضو البرلمان هذه السياسة؛ فقى مناقشة أجراها المعهد الملكي للشئون الدولية في شهر يناير عام ١٩٣١، دعت إلى توسع يهودى اكبر، وتساءل: هلاذا لا يسمح لليهود بالاستيطان في شرق الأردن، وهي، منطقة خصبة مخلخلة السكان يجب السماح باستيطانها كما استوطن الأمريكيون الارض الواقعة غرب بنوانجلاند؟ قواذا واجهوا أي عدوان فانه بوسعهم الدفاع عن الهنود الحمر ولا حاجة بنا الى القول بأن اهتمام كنورثي بمصير العرب الفلسطينيين قدر اهتمامه بمصير قبائل الهنود الحمر.

وبينما لم يدرك الفسطينيون إلى حد كبير تعقيدات الدبلوماسية الصهيونية فى الغرب، كان هناك ما يمكنهم من الألم بما يجرى من الأدلة الكافية الدامنة، هذا الغرب، كان القليلين من الصهاينة حاولوا إخفاء نواياهم، فهناك فقرة واسعة الانتشار كتبها سير الفريد مونت (لورد ملشات فى وقت لاحق) يقول: «ان اليوم الذى سوف يعاد فيه بناء الهيكل (هيكل سليمان) فى مكان المسجد الاقصى .

وحيث أن المسجد هو اقدس مكان اسلامى خارج شبه الجزيرة العربية، استبد القلق بالفلسطينيين، ولديهم ما يبرر قلقهم ازاء مصير أماكنهم المقدسة، ولقد زودوا طبلة فترة الإنتداب بمؤشرات عن المخطط الصهيونى ففى طبعة ١٩٢٦، لدائرة المعارف البريطانية جاء أن «اليهود يتطلعون إلى نداء إسرائيل.. واسترداد الدولة اليهودية». وفى طبعة سابقة (١٩١٩)، اوردت العلم الوطنى اليهودى على انه علم دولة فلسطين وعندما طلب تفسير لذلك اعترف المحرر بأن «استنتاجه كان سابقا لأوانه إلى حد ماه. وفى عام ١٩٤٥، كادت أن تقرم المظاهرات فى مدرسة «فرندزاند بويز» فى رام الله عندما أهدى القنصل الأمريكانى إلى مكتبة المدرسة نسخة من دائرة معارف كومبتون التيرت مجمة داود هى العلم الفلسطينى .

أما أكثر المظاهر مدعاة للحيرة من وجهة النظر الفلسطينية نكانت الطريقة التى تمكن بها الصهاينة من يخقيق استقلالهم عن الحكومة وعن المجتمع الاصلى. فحتى في ظل العثمانيين سجل الصهاينة مكاسب عديدة فقد بدأوا في انشاء مدارسهم الخاصة واقاموا مصرفهم الخاص ومحاكمهم المدنية الخاصة، وما أن وضعت الحرب اوزارها حتى أسسوا حركة الكيبوتز، وإنشأوا الجامعة العبرية وانخاد العمال العبرانيين، ويحلول عام ١٩٢٠، كان الصهاينة قد وضعوا اطارا لمجتمع منغلق على نفسه عا الاوبعث ففي العرب وخيب آمالهم، لقد عدد سير لويس بولز اسباب استياء العرب في رسالة بعث في عام ١٩٢٠ قال: وأن ادخال اللغة العبرية كلفة رسمية، واتامة نظام قضائي يهودي وتكوين اللجنة الصهيونية التي كان العرب على بينة منها وامتيازات السفر الخاصة التي كان يتمتع بها اعضاء اللجنة الصهيونية الأمر الذي اقتع بشكل حاسم وقاطع العناصر غير اليهودية (أي العرب) بتحيزنا، وفي نفس الوقت ذكرت لجنة واستطلاع بريطانية أوكل اليها مهمة التحقيق في اطارابات يافا التي وقعت في العام السغب في يافا وما تبع ذلك من اعمال العنف

هو استياء العرب الممتزج بالعداء لليهود لأسباب سياسية واقتصادية والمرتبط بالهجرة اليهودية ويتصورهم للسياسة الصهيونية، ذلك التصور المستمد من المفسرين اليهود .

وبما أن العداء اليهودى – الفلسطيني يدور، فوق كل شئ، حول مسألة الأرض، كان طبيعيا أن تطغي هذه المسألة على ما عداها من مسائل. وكان بيع الاراضى لليهود قد بدأ قبل الحرب العالمية الاولى بتشجيع مرى من السلطات العثمانية التي كانت تأمل في أن يجذب رأس المال اليهودي إلى اقتصادها المنهار. وتركزت تلك المبيعات أساسا في الوديان الخصيبة في الشمال وعلى امتداد السهل الساحلي، وفي غضون العشرينات من القرن العشرين واصل الصهاينة شراء الأراضى في تلك المناطق آخلين في التوسع حول خليج حيفا وكذلك في الجليل، وكانت اكبر صفقاتهم مع عائلات سرسوك وطيان في بيروت التي كانت تمتلك ضيعات واسعة في وادى اسدرالون سرسوك وطيان في بيروت التي كانت تمتلك ضيعات واسعة في وادى اسدرالون عوادى حواريث، وكان الاقطاعيون غير الفلسطينيين الذين يعيشون بعيدا عن الارض هم الذين باعوا مساحات كبيرة من أكثر الاراضى خصوبة في فلسطين، وطبقا لما ذكره عالم 1974 كانت ملكا للاقطاعيين غير المتواجدين.

وبعد أن تم شراء اراضى مجار بيروت الذين كانوا قد اشتروها كمعلية استثمارية عقب قانون الاراضى العثمانى لعام ١٨٥٨، مجول الصهاينة إلى مكان آخر وكان احد الاهداف المناسبة اراضى البطريركية الارثوذكسية الشرقية التى كانت تعانى من كارثة مالية عقب الثورة البولشيفية عام ١٩١٧، فبعد أن جردت من ممتلكاتها فى داخل روسيا وحومت من الهبات التى كانت الكنيسة الروسية تبعث بها اليها واضطرت البطريركية إلى بيع الكثير من ممتلكاتها فى فلسطين لتستمر فى الوفاء بالتزاماتها، كذلك كانت الطبقة الارستقراطية الفلسطينية ذاتها هدفا آخر، وبينما كان افرادها

يلومون بشدة أى شخص يبيع أرضا للصهاينة بل وكونوا هيئات مثل «الشركة العربية لاستعادة الاراضى في فلسطين، كان بعضهم يبيع سرا اجزاء من ممتلكاتهم الخاصة. وكما ذكر القنصل الالماني في القدس بطريقة جافة في عام ١٩٣٣، فإن الزعماء العرب «كانوا يصرخون في النهار ضد الهجرة اليهودية، وفي ظلام الليل يبيمون الارض لليهود.

وابتداء من مبيعات الأرض الأولى في عام ١٨٧٨م وحتى نشوب الثورة الفلسطينية في عام ١٩٣٦م، حصل الصهاينة على ما يزيد عن نصف اراضيهم من ملك الأراضى غير المتواجدين والربع من الاقطاعيين الفلسطينيين ومعظم الباقى من الكنائس والشركات الاجنبية. وجزء صغير يقل عن العشر قد تم شراءه من الفلاحين الذين فرضت عليهم عمليات البيع في معظم الحالات، فعندما اغلق البريطانيون المصوف الزراعي الخاضع لاشراف العشمانيين حالوا دون حصول الفلاح على أية قروض ومن ثم ارغم اما على بهع جزء من اراضيه لتنمية الجزء الباقي أو الالتجاء إلى المرابين الذين كان من المحتمل أن يطالبوا بفائدة تصل إلى حوالى ٣٠ في المأثة، وهو معلل للفائدة يستحيل على معظم الفلاحين الوفاء به. ومن ثم لم يكن امام الفلاحين في حالات كثيرة، من اختيار سوى بيع اراضيهم وهذا ما اوضحه سير جون تشانسلور، في حالات كثيرة، من اختيار سوى بيع اراضيهم وهذا ما اوضحه سير جون تشانسلور، المندب السامي، في رسالة بعث بها إلى الملك جورج الخامس في مايو عام ١٩٣٠ في ومدينون بشدة للمرابين المستغلين، وعندما يضغط عليهم الدائنون ويظهر في الافق سمسار الاراضي اليهودى وفي يده المال، لايجد العرب امامهم من بديل سوى بيع اراضيهم لتسديد ما عليهم من ديون .

لقد قام هدف الصهيونية ومبرواته (ويتلخص في شعار زانجويل ١٩رض بلا شعب

وضعب بلا أرض على مغالطة كبرى منذ البداية، فلم تكن الارض بلا شعب في يوم من الايام، فحتى في عام ١٨٩١م كتب اليهودى الروسي، آشر جنسبرج، انه كان من الصعب ايجاد أى اراضى غير مزروعة في فلسطين. وبعد ذلك باربعين عام رفع سيرجون هوب سمبسون تقريرا إلى حكومته ذكر فيه أنه لاتوجد اراضى زراعية. حتى لسكان الريف العربي. وكما ابلغ سير جون تشانسلور الملك فإن «الحقائق الخاصة بوضع الأراضى هي أن جميع الأراضى المنزرعة في فلسطين أصبحت اليوم محتلة، وليس هناك مزيد من الأرض يمكن بيعه لليهود بدون طرد المزارعين العرب وخلق طبقة من الفير لايملكون أية أراضى، وهي عملية قد بدأت فعلا.

ولم يمض على ذلك عام واحد حتى كتب بصورة أكثر الحاحا يقول: القد أضحت فلسطين الآن مليئة بالسكان وبدون انتهاك ذلك الجانب من الانتداب الذى يتطلب منا حماية حقوق الجماعات غير اليهودية المتواجدة لايمكن السماح لمزيد من اليهود أن يدخلوا البلاد. فلو سمح بهجرة اليهود على نطاق واسع، فاننا بذلك نفرض على البلاد بالقوة البريطانية سكانا أجانب يغضهم سكان البلاد الاصليون .

وفى عام ١٩٣٠، أكد تشانسلور والحاجة إلى انتخاذ الاجراءات الكفيلة بضمان عدم طرد المزارعين العرب من أرضهم عن طريق بيمها لليهودة كان هذا، فى الواقع جوهر المشكلة لأنه فى حين كان الفلاحون يتمسكون بالأرض التى يمتلكونها لم تكن لهم أية سيطرة على الأرض التى كانوا يستأجرونها، ومن ثم كان الفلاحون هم الخاسرون فى الصفقات الضخمة التى كانت تعقد بين الصهاينة وملاك الاراضى، فاليهود استولوا على الأرض والاقطاعيون قبضوا المال ولم يعر أحد أى اهتمام بمضير المستأجرين. فعندما باعت عائلة سرسوق اللبنانية ٢٠ ألف فدان فى وادى اسدراليون فى الفترة ما بين ١٩٩١، و ١٩٧٥، حصلت على قرابة ثلاثة أرباع المليون من

الجنيهات وانطلقت في غبطة إلى بيروت، وقد سويت بالارض احدى وعشرون قرية عربية وطرد سكانها البالغ عددهم ثمانية آلاف نسمة، ومع زيادة أوامر الطرد خلال السنوات التالية استخدمت الشرطة البريطانية للقيام بطرد القروبين من ديارهم، ولم يحدث قط أن أتيحت لهم الفرصة للبقاء كمستأجرين من الملاك الجدد، اذ حالت المنظمات الصهيونية دون ذلك بصورة سافرة، فعلى سبيل المثال أعلن ودستور الوكالة اليهودية؛ أن تشغيل العمال اليهود في (أملاك الوكالة) سوف يعتبر مسألة مبدأ. وكان الصندوق القومي اليهودي يؤجر الأراضي شريطة ألا يزرعها غير العمال اليهود وأصر اصندوق تأسيس فلسطين، على ألا يستأجر مستوطنهم غير العمال اليهود اوحتى في الأعمال اليهودية الخاصة كان العمال العرب عادة يقاطعون. وفي مارس من عام ١٩٤٩ أعلنت ١جويش فرونتير، أن البطالة بين اليهود قد انخفضت إلى حد كبير في اواخر عام ١٩٣٨م، نتيجة لأنهم حلوا محل العرب في المزارع وإجراءات الأمن المتزايدة والأشغال العامة ... ولأول مرة هذا العام يستخدم عمال يهود في بساتين البرتقال التي يمتلكلها اليهود وكان المؤرخ ارنولد توينيي قد تنبأ بهذا قبل ذلك بسنين عديدة حين ذكر أمام جمهور في المعهد الملكي للشئون الدولية عام ١٩٣١ وأن كل الأراضي الفلسطينية التي تم شراؤها بأموال يهودية بدأت تصبح وقفا على اليهود، ومضى يقول اولا يمكن ما يعنيه ذلك خافيا عليكم، أنه يعنى مايسمى في جنوب افريقيا بالتفرقة العنصرية.

راح الفلاحون المطرودون، طيلة العقد الرابع من القرن العشرين يتجهون صوب الساحل بحثا عن عمل، فاستقروا في أحياء من أكواخ الصفيح على مشارف يافا وحيفا، وفي الفترات القصيرة لازدهار أعمال البناء كانوا يجدون عملا بينما يظلون بقية الوقت عاطلين. وعندما رفضت الشركات اليهودية تشغيلهم قلت أمامهم فرص العمل. وفي عام ١٩٢٧م ،نشبت أعمال الشغب في بتاح تكواه عندما منع العمال

العرب من جمع البرتقال الذي اشتراه بجار عرب.

وفى وقت لاحق تفجرت أزمة عنصرية فى يافا عندما رفض مقاول يهودى كان يشيد، على حساب الحكومة، ثلاث مدارس للعرب فى مدينة عربية تشغيل أى عامل عربى. والمثال البين على هذا الاعجاه الصهيونى يتمثل فى واقعة حدثت فى غابة زرعت تكريما لهرتزل بالقرب من اللد وهى أنه عندما علم أن الأشجار قد غرسها عرب سرعان ما اقتلعت ليعيد اليهود زراعتها.

كذلك تركت المنافسة اليهودية أثرها على قطاعات أخرى من السكان ولاسيما طبقات الحرفيين والتجاروأغلبهم من المسيحيين. لقد رفعت موجات الهجرة الضخمة من الأسعار وأسهمت الصناعات اليهودية الجديدة، التى منحت تعريفة جمركية خاصة لحمياتها والحفاظ على قدرتها على التنافس، في رفع تكاليف المعيشة، ولما كانت أجور العمال اليهود أعلى بكيثر من تلك التى يتقاضاها العمال العرب وفقا لما ورد بالدليل السياحي الحكومي كانت أجور عمال الزراعة تزيد بما لايقل عن ١٠ بالمائة وعمال السياعة غير المهرة تزيد بنسبة مائة بالمائة وقعال العربة الدبء الذي القته وعمال الصياعة على كاهل الطبقات العربية الفقيرة .

وبغض النظر عما جلبه الصهاينة معهم من مشكلات اقتصادية فإن أشد ما بعث الاستياء في نفوس العرب هو عدم مراعاة المشاعر، وهي سمة من سمات الصهائية تدعو إلى الغرابة.. ببساطة لم يراع الصهائية مشاعر الفلسطينيين. لقد حلوا ببلد محافظ اسلامي أساسا، وبدوا كأنهم يتعمدون الخروج عن السلوك المألوف لاثارة سكان البلاد. ولقد وصف الكولونيل والترسترلنج، رئيس الأركان عتب قيادة لورانس بدمشق، كيف أن العرب صدموا عندما رأوا اليهود من اللجنسين وهم يسبحون عراة... وفي صفد أشار لورانس الويفائت أنه من الغرابة أن يرفض اليهود تغيير أي عادة من عاداتهم

الاشكنازية على الرغم من أنهم يعيشون في مدينة السواد الأعظم من سكانها من المسلمين أن قلة من الصهاينة هي التي أبدت إستمدادا لاتخاذ موقف وسط، والاندماج في المجتمع الفلسطيني القائم، وسجل «سترلنج» واقعتين لرفض المستوطنين الصهاينة تعليق لافتتين لادارة البريد الفلسطينية لا لسبب الا لأنها كتبت بالعربية إلى جانب الانجليزية والعبرية .

لقد لخص سيرجون تشانسلور هذا الموقف في رسالة بعث بها إلى سكرتير الملك الخاص في مايو من عام ١٩٣٠م، بقوله: وأن مايجعل التعامل معهم (الصهاينة) صعبا هو أنهم لا يعيرون أي اهتمام بحقوق الآخرين ومشاعرهم، كما أنهم شديدو الالحاح والضغط من أجل تحقيق مطالبهم وعلى الرغم من أن اليهود أقلية في فلسطين فإن موقفهم من العرب يتسم بالتعالى والغطرسة، وهو موقف يستاء منه العرب بشدة لما جبلوا عليه من تقاليد الجاملة والأخلاق الطبية.

كانت هذه الفطرسة وعدم الاختلاط بمن يحسبونهم أقل منهم منزلة هي التي -فوق كل شيئ آخر- أقنعت الفلسطينين بأن الصهاينة هم الأعداء. ولقد وصف فريا ستارك هذا الموقف بجلاء ابان الحرب العالمية الثانية حين قال :

دأن هذا الشعور بالنفور وعدم الرغبة في الاختلاط يحس به المرء في جميع مجالات النشاط الصهيوني في فلسطين، أنه يفسد جو المستوطنات الزراعية حيث يحظر على العمال العرب العمل فيها، ويفسد الفنادق حيث لا يوافق على عمل العرب حتى في غسل الملابس أو في الحدائق، كما أنك تشعر بالضيق اذا كنت لاتخب النبيذ ليهودى وتطلب نبيذا كاثوليكيا ويتعذر حصولك عليه،

ويتذكر أحد رواد الصهيونية الاشتراكيين البارزين، «ديفيد هاكوهين» في خجل كيث أنه اضطر في السنوات الأولى للانتداب: «إلى الدفاع (امام اصدقائي الانجليز وغيرهم) عن حقيقة انى لن اقبل عربا في نقابة العمال، الهستدروت، التي أنزعمها، والدفاع عن دعوة ربات البيوت إلى عدم الشراء من المحال التجارية العربية، والدفاع عن صب أننا وضعنا حراسا للبسلتين للحيلولة دون عمل العمال العرب... والدفاع عن صب الكيروسين على الطماطم العربية وعن الهجوم على ربات البيوت اليهوديات في الاسواق وتكسير ما قمن بشرائه من بيض عربي، والى الثناء المفرط على كيرين كايميت (الصندوق القومي اليهودي) الذي بعث بهانكين إلى بيروت لشراء الاراضي من «الافندية» غير المتواجدين وطرد الفلاحين من الأرض- فكان يسمح بشراء عشرات من العربي ولكن- لاسمح الله- دونم واحد يهودي لأي عربي كان أمرا محظورا... وإلى اعتبار روتشيلد- بجسيد الرأسمالية- اشتراكيا ووصفه بالمحسن، لم يكن محظورا... وإلى اعتبار روتشيلد- بجسيد الرأسمالية- اشتراكيا ووصفه بالمحسن، لم يكن امامنا خيار- فاتني لم اكن سعيد بذلك».

فى بداية الامر استمع الفلسطينيين غير مصدقين لمطالبة الصهاينة بأرضهم، فقد كان الفلسطينيون يشكلون أكثر من ٩٠ بالمائة من عدد السكان، وعلى هذه الارض عاش أجدادهم آلاف السنين فضلا عن أن آخر الحضارات العظيمة التى ينتمون اليها، وهى الحضارة العربية، قد وجدت فى فلسطين بصفة تكاد تكون مستمرة زهاء الف وثلاثمائمة سنة، لم يكن الفلسطينيون يتصورون أن أرضهم تنتزع منهم وتعطى لأجانب مطلبهم التاريخى أضعف بما لايقاس من مطلبهم. لقد تبين هـ. جـ. ويلز بدوره أن الخطط يدعو إلى الغرابة حين ذكر: «إذا كان من الصائب اعادة بناء دولة يهودية لم يكن لها وجود زهاء الف سنة، لماذا لانعود إلى الوراء ألف سنة أخرى ونعيد بناء الدولة الكنانية؟ والكنانية؟ والكنا

وإلى جانب الحجج التاريخية والحقوق المستمرة من ملكيتهم الفعلية للارض فإن العرب يدفعون بأن بريطانيا وعدتهم بفلسطين في عام ١٩١٥ مقابل مساعدتهم لها ضد الاتراك، وإن ماجرى بين شريف مكة (الشريف حسن) وسير هنرى ماكماهون، بعمقته نائبا عن الحكومة البريطانية، كان موضع تخليل وبحث مفصل خلال الستين سنة الماضية، وليس ثمة جدوى من وراء تكرار حجج الجانبين. لكن من المعروف جيدا أن ماكماهون، في رسالته بتاريخ ٢٤ اكتربر ١٩١٥، قد وعد بأن وبريطانيا العظمى مستعدة لأن تعترف وتؤيد استقلال العرب في جميع المناطق الواقعة داخل نطاق الحدود التي طالب بها شريف مكة، مع بعض تعديلات معينة. وأشارت التعديلات إلى الأراضى والواقعة إلى الغرب من مناطق دمشق وخمص وحط وحلب، وحيث أنه لايوجد أي جزء من فلسطين إلى الغرب من هذه المناطق وان ماكماهون لم يذكر أو يجاول الشريف حسين حول المطالبة بالمنطقة، اعتقد العرب أن المنطقة التي تعهدت بها ببريطانيا بحكومة عربية مستقلة فيها لابد من انها تشمل فلسطين .

وهذا الرأى يدعمه أحد محاضر اجتماع لوزارة الخارجية البريطانية في عام ١٩١٨ حيث جاء دأن فلسطين قد شملتها ضمنا المطالب الاصلية للملك حسين ولم تستبعدها صراحة رسالة سير هـ. ماكماهون بتاريخ ١٩١٥/١٠/٢٤، ومن ثم لم يفترض أننا بموجب هذه الرسالة قد تعهدنا للشريف حسين بأن فلسطين سوف تكون عربية ومستقلة .

ظل العرب طيلةفترة الانتداب يدفعون بأن بريطانيا في عام ١٩١٥ وعدتهم بغلسطين، وبالتالي رفضوا الاعتراف بوعد ثان قطعة آرثر بلفوره وزير خارجية بريطانية في رسالة بعث بها إلى اللورد روتشيلد بعد ذلك بعامين، واعتقدوا، وهم في ذلك على حق، بأن اقامة وطن قومي يهودي كما تصوره بلفور انما يتعارض مع هدفهم في أن تكون فلسطين عربية مستقلة، كما رأوا أن تمهد بلفور بعدم القيام بما من شأنه أن يضر بالحقوق المدنية والدينية الملطوائف غير اليهودية (أى العربية) الموجودة فى فلسطين يتمذر الرفاء به اذا ما خرج المخطط الصهيوني إلى حيز التنفيذ. وكما صرح اللورد جراى، وزير الخارجية الليبرالي السابق، في مجلس اللوردات في مارس من عام ١٩٢٣ فإن اوعد بلفور قد تعهد بوطن صهيوني دون الاضرار بالحقوق المدنية والدينية لسكان فلسطين. وما لاشك فيه، أيها اللوردات، أن وطناً صهيونيا يعني أو ينطوى على حكومة فلسطين. وما لمنطقة التي يقام فيها الوطن وإن كان ٩٣ بالمائة من سكان فلسطين هم عرب فانني لا اتصور كيف يمكن اقامة اى حكومة عربية دون الاضرار بحقوقهم علينة .

وكان رد الفعل العربى الطبيعى لوعد بلفور ولغرض الانتداب هو التنديد بكليهما ورفض التعاون مع السلطات البريطانية. واعتقد الزعماء الفلسطينيون أن بوسعهم ارغام بريطانيا على أن تتنكر للوعد ولا تقر شرعيته وعلى الرغم من أنهم وفضوا العنف كوسيلة لتعزيز موقفهم ظلوا متشردين وتمسكوا في اصرار على ثلاثة مطالب اساسية. وضع حد للهجرة والغاء وعد بلفور ومنح الاستقلال للعرب، بهذه الروح قاطعوا في عام وضع حد للهجرة والغاء وعد بلفور ومنح الاستقلال للعرب، بهذه الروح قاطعوا في عام بعث الاساليب تغيير السياسة البريطانية فضلا عن اضافة فرصة أن يكون لهم بعض التأثير في تقرير مستقبلهم، غير الفلسطينيون أساليبهم، في حين أنهم واصلوا اعلان رفضهم الكامل للصهيونية وللموقف البريطاني منها ،كانت النتيجة التي توصلوا اليها هي أنهم لن يحققوا أية مكاسب سياسية الا بالتعاون مع بريطانيا، لقد كان الكثيرون من أعضاء البرلمان لاسيما مجلس اللوردات يعطفون عليهم، ومن ثم راودهم الامل في من أعضاء البرلمان العالم البريطاني الحكومة على اعادة النظر في سياستها، والواقع أنه مع استمرار الانتداب توصل الكثيرون من الساسة والمسئولين البريطانيين في فلسطنين المستمرار الانتداب توصل الكثيرون من الساسة والمسئولين البريطانيين في فلسطنين

ولندن إلى نتيجة أن الانتداب غير ناجح، وتكهن سير جون تشانسلور، المندوب السامى في الفترة ما بين ١٩١٨ و ١٩٣١، باستمرار الصراع ما لم تفى الحكومة بالتزاماتها مجاه العرب حين قال:

وحقيقة الموقف هى أن الحكومة البريطانية قد أعطت، فى ظل ظروف الحرب المالمية الاولى القاسية، وعودا للعرب، ووعودا لليهود، يتعارض كل منها مع الاخر ولايمكن الوفاء بها. والسياسة الامينة هى أن نعترف بمعضلتنا ونقول لليهود أنه وفقا لوعد بلفور أيدنا اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين، وأن وطنا قوميا يهوديا فى فلسطين قد أقيم بالفعل وسوف يظل، وأنه بدون انتهاك الجزء الثانى من الوعد وبدون الاضرار بمصالح العرب لا نستطيع القيام باكثر مما فعلنا .

وابتداء من السنوات الاولى للانتداب انقسمت الزعامة الفلسطينية إلى فريقين يعرب كل منهما عن مشاعر الولاء لبريطانيا وتتزعمه احدى عائلات القدس الكبيرة. وكان الحاج أمين الحسيني هو الرجل اللى اختارته بريطانيا لتخلق منه الشخصية السياسية الرئيسية في فلسطين. فما كان من سير هربرت صمويل الآأن اختاره في عام ١٩٢١، لمنصب المفتى بعد أن قام البريطانيون بتزوير الانتخابات (الواقع أن الحاج أمين جاء ترتيبه الرابع في الانتخابات) وبعد عام واحد منح سلطة جديدة بانشاء المجلس الاسلامي الأعلى برئاسته، وكان الحاج أمين الحسيني كقومي متشدد رجلا نابها شديد الطموح كما كان عنيدا ضيق الافق لايقبل النصيحة، فلم يحدث قط أن أخط بنصيحة أحد وكان يفتقر بشدة إلى الحكم السديد على الامور السياسية. لكن بفضل مكانته الدينية المرموقة ولما لأسرته من مركز أدبي رفيع ويتأثير شخصيته القوية استطاع أن يجذب إلى جانبه القوميين الفلسطينيين الأشد مايكونون عزما وتصميما .

أما الحزب الآخر المعروف بالمعارضة الذي كان يتزعمه عمدة القدس، راغب

النشاشيبي، فكان تشكيلا اكثر تفككا لايدين بوحدته الضعيفة لانسان بعينه ولا لأية الديولوجية خاصة، بل لكراهية الكثيرين من ملاك الاراضى الفلسطينية للمفتى وعدم ثقتهم به ولقد ذكر النشاشيبي لكلونيل كيش التابع للوكالة اليهودية أن ممارضته للحاج أمين الحسيني أقوى بكثير من معارضة الصهاينة أنفسهم، فكانت المعارضة تمقت أساليب المفتى الاستبدادية وعناده ورفضه تقديم أية تنازلات، وكمجموعة، كانت أقل حماسا في قوميتها من جماعة الحسيني واكثر استعدادا للتعاون مع سلطات الانتداب. لقد أدرك زعماء المعارضة أن الوطن القومي لليهود قد تأسس وكانوا يأملون في الحد من توسعه وليس القضاء عليه كلية. وعلى الرغم من أن سياستهم يدت للبعض أنها سياسة واقعية فإن الكثيرين منهم قد انهموا وبحق بالتعاون مع الصهاينة. فمن الواضح أنهم قبلوا عن طيب خاطر الأموال اليهودية لمساعدة صحفهم وما يقومون به من أنشطة سياسية هذا فضلا عن أن معظم ملاك الاراضي من الفلسطينيين عمن تورطوا في صفقات بيع الاراضي لليهود كانوا من اتباع راغب النشاشيبي ومن يبنهم أفراد من أسرته .

كانت القدس، بطبيعة الحال، مركزا للنشاط السياسي الا أن المنافسة بين الحسيني والنشاشيبي انسعت لتشمل جميع أنحاء البلاد، فكان رجال الاعمال وملاك الاوراضي ينزعون إلى التحالف مع راغب النشاشيبي بينما انحاز المثقفون بوجه عام إلى المفتى، وعلى الرغم من أن العامة السياسية كانت في أيدى المسلمين عادة فإن الطوائف المسيحية قد شاركت في المثنون السياسية، وكان للكثيرين منهم، وخاصة من بين البروتستانت والارثوزوكس اليونانيين، دور نشيط في النضال الوطني كصحفيين وكتاب (كان المسيحيون بمتلكون معظم الصحف في فلسطين) وكأعضاء في الوفود التي أرسلت إلى بريطانيا وأوروبا لشرح وجهة النظر العربية. ومن نواحي معينة، كان المسيحيون يشعرون بأنهم أكثر عرضة لتهديد الصهيونية من المسلمين، فقد كانوا،

مثلهم مثل اليهود، ومن سكان المدن أساسا، ومن ثم كان من المرجع أن يعانوا من المنافسة اليهودية أضف إلى هذا أن المناطق التي كان الصهاينة متحمسين للحصول على الاراضى فيها الجليل واسدراليون كانت تضم نسبة كبيرة من السكان المسجين .

في غضون العشرينات من القرن العشرين كانت عائلات القدس تتشاحن بين الحين والآخر، لكن خلافاتهم خلال تلك الفترة لم تكن عنيفة لا مع بعضهم البعض ولا مع البريطانيين. لقد احتفظوا بمواقفهم الاساسية ضد الصهيونية متبعين أما سياسة الحسيني أو النشاشيبي، لكنهم لم يتخذوا أية خطوات للتصدى بالقوة للحركة الصهيونية، لقد كان النزاع حول حائط المبكى وأعمال الشغب التي وقمت في عام العبها كنية، لكنها كانت حوادث فردية لايجب النظر اليها كجزء مما وقع في وقت لاحق من صواع مسلح .

لقد كان الفريقان في سنوات ما قبل عام ١٩٣٥، يؤيدان الاعتدال وحاولا اقناع البريطانيين بمنحهم مؤسسات للحكم الذاتي، وقد قام هذا الاعتدال أساسا على الاعتقاد بأن المخطط الصههيوني أخذ يضعف، فبعد الحماس المبدئي الذي أعقب وعد بلفور واقامة الانتداب بدأ الصهاينة يفقدون القوة الدافعة، فأخدت التبرعات من يهود الشتات تنهار وارغمت الوكالة اليهودية على تخفيض ميزانيتها، وصاحب ذلك نقصا شديدا في هجرة اليهود لدرجة أن عدد اليهود الراحلين فاق عدد القادمين. وبحلول عام 19۳۰ بلغت جملة المهاجرين سنويا أقل من خمسة آلاف شخص ومن المفهوم أن عددا كبيرا من الفلسطينيين كانوا، في مثل هذه الظروف، يشعرون، ولاشك، بأن الصهيونية ليست بالخطر الذي يستحق القتال .

لقد تغير الموقف بشكل مثير بظهور العداء للسامية في أوروبا وما تمخض عنه من

زيادة مهولة في الهجررة اليهودية إلى فلسطين، ففي عام ١٩٣٤، دخل البلاد أكثر من 25ك آلف يهدوى، وإزداد هذا الرقم حتى بلغ ٢٦ ألفا بعد ذلك بعام واحد، وعادت الصهونية تشكل خطرا يتهدد الفلسطينيين واشتد الضغط على صغار الملاك والمزارعين لبيع أراضيهم وأخدت تتكرر عملية الطرد من الارض هذا فضلا عن أنه تعذر على الفلاحين المطرودين أن يجدوا عملا في مدن السهل الساحلي لأن النشاط الاقتصادي اليهودي أصر على تشغيل العمال اليهود فقط.

وحيث أن البريطانيين لم يتخدلوا أية خطوة للحد من عدد المهاجرين لجأ الفلسطينيون إلى صور أكثر ايجابية من الاحتجاج، ففي خريف عام ١٩٣٣، وقعت مظاهرات ضخمة في القدس ويافا قتل رجال الشرطة أثنائها عددا من العرب، وذكر سير ارتور ووتشوب، العندوب السامي، أن اشعورا وطنيا حقيقيا في فلسطين يزداد قوة ومرارة ضد الحكومة البريطانية والسبب في ذلك، حسب فهمه. هو أن الفلسطينيين أخداوا يبدون أكثر تطرفا في مطالبهم حيث أنهم أصبحوا أكثر يأسا ازاء خطر الصهيونية، ولم يكن هذا الشعور قاصرا على الزعامة التقليدية بل شاركتهم فيه غالبية قطاعات الشعب، والواقع أن عرب قفلسطين قد بدأوا في منتصف الثلاثينات من القرن المشرين يظهرون ما يدل بجلاء على خيبة أملهم في زعامة عائلات القدس المتطاحنة العشرين يظهرون ما يدل بجلاء على خيبة أملهم في زعامة عائلات القدس المتطاحنة

وفى بعض الاحيان بدت المنافسة بين الحسينى والنشاشيبى وكأنها تظغى على ما عداها من قضايا أخرى، واستغلت العائلتان واتباعهما معظم الانتخابات فى تشويه كل منهم الآخر، وذلك بتوجيه الاتهام ببيع الاراضى لليهود والتعاون مع السلطات البريطانية. ولما كان حق الانتخاب فى المدن الفلسطينية قاصرا على الرجال من ذوى الأملاك فإن فريق النشاشيبي فى معظم تلك الانتخابات، لكن فى عام ١٩٣٤م تخلت

عائلة الخالدى، وهى من أبرز العائلات فى القدس، عن فريق النشاشيبى، ثما أدى إلى هزيمة راغب النشاشيبى الذى كان مرشحا عمدة للقدس، وكان هذا مؤشرا لأقول نجم الممارضة، فالممتدلون العرب اللذين ازدهروا قبل أن يعطى ظهور هتار فى المانيا للحركة السهيونية دفعة قوية، اضطروا إلى افساح المجال لغيرهم أن ثبت علم جدوى سياسة التعاون التى كثيرا ما تبجحوا بها. وهكذا استطاع قريق الحسينى بموقفه السياسى لأكثر تشددا أن يسيطر على منافسه. بيد أن أساليب المفتى الاستبدادية وعدم الأخذ بمشورة أحد حولت الكثيرين ضده وساعت فى تشكيل أحزاب سياسية جديدة بمشورة أحد حولت الكثيرين ضده وساعت فى تشكيل أحزاب سياسية جديدة لدعم احدى الشخصيات البارزة وعائلته، ومن ثم لم تتمتع بتأييد شعبى يذكره وعندما لدعم احدى الشخصيات البارزة وعائلته، ومن ثم لم تتمتع بتأييد شعبى يذكره وعندما بدأ الكفاح الفلسطيني يقوى خلال الفترة ما بين ١٩٣٥ و ١٩٣٦ ا انضحت عدم كفاءة الزعامة التقليدية. وعلى الرغم من أن المفتى كان يقوم بشئ من التوجيد لكنه لم يكن نوع التوجيه الذى أراده الشعب. لقد عقد واتشوب مقارنة بينه وبين صلابة القروبين وعنادهم فى معارضتهم لبريطانيا وبين ضعف الشخصيات العربية البارزة وافتقارها إلى سمات الزعامة .

فالثورة الفلسطينية التي تخولت من سلسلة من الأحداث الصغيرة في عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨، إلى مجابهة عسكرية خطيرة في عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨، لم يبدأها الزعماء العرب، لكنها كانت حربا شعبية حقيقية حاول زعماء القدس اللحاق بها وليس توجيهها: وجاء في تقرير حول اجتماع عقد مع المندوب السامي في شهر مايو من عام ١٩٣٦ أن وراغب النشاشيبي صرح بأن التوتر في البلاد شديدا وان موقف الزعماء قد أملاه ضغط الشعب عليهم فالشعب حاليا هو الذي يحكم الزعماء وليس الزعماء هم الذين يحكمون الشعب، وعلى الرغم من أن فريق الحسيني الاتفاق مع الثورة والمشاركة فيها بصورة مباشرة مني فريق النشاشيبي بالفشل وانسحب من حلبة

النضال وتخالف مع الامير عبد الله في شرق الاردن واذعن لتقسيم فلسطين ظنا منه أن ذلك سوف يقيده على حساب فريق الحسيني .

ويصعب حتى الآن أن نقطع بصحة أى من تلك الاساليب التى اتبعت آنذاك. فهناك من يرى أنه لو اتخذ الفلسطينيون موقفا أشد عنفا من الانتداب البريطانى عند اقراره في بادئ الأمر، لما أتبحت للمخطط الصهيونى الفرصة لتدعيم موقفه ولتخلت عنه بريطانيا فى وقت قصير: وهناك من يزعم بأنه كان يجب على الفلسطينيين أن يتصرفوا عكس ذلك تماما، إذ لو أنهم تعاونوا مع بريطانيا وعرضوا قضيتهم على اللجان الملكية التى أرسلت للتحقيق فى الاضطرابات العديدة التى وقعت فى فلسطين، وشاركوا فى انتخابات المجلس التشريمي ربما نجحوا فى أن يكونوا فى وضع يمكنهم من التأثير على السياسة البريطانية، ولو أنهم ناضلوا فى سبيل الممكن لا من أجل المستحيل ربما أقرت بريطانيا موقفهم ووضعت حدا لنجاح الصهيونية الزاحف، فموسى العليم الادى لا يؤمن بأن الوطن القومي لليهود حقيقة يجب التسليم بها فحسب بل أيضا أنه لو تم الاعتراف بهذه الحقيقة لامكن الحد من توسعه يرى فى الثلاثينات من القرن العشرين سلسلة من الفرص الفائعة ويقول: وهناك أخطاء كثيرة ارتكبناها كما أتيحت لنا فرص عديدة كان يمكن أن تكون فيها الاوضاع مختلفة وافضل حالا لوأننا اتبعنا سياسة مغايرة وكنا أكثر واقعية، لكن قادتنا كانوا يعتقدون أن من واجبهم وض كل اقتراح فرفضوا الحديث للجانالملكية، بل لا، لا، لا... أن يصبح عقيدة .

وبحلول عام ١٩٣٥ كانت الزعامة الفلسطينية التقليدية قد خسرت ولاء أنصارها. فالزيادة المهولة في أعداد المهاجرين وما صاحب ذلك من صفقات بيع الاراضي خلق شعورا نضاليا جديدا عجز زعماء القدس من السيطرة عليه. كما أن رفض بريطانيا تقديم التنازلات سواء فيما يتعلق بالهجرة أو اقامة مؤسسات للحكم الذاتي، واكتناف، في اكتوبر ١٩٣٥، أن اليهود يهوبون الأسلحة عبر ميناء يافا أسهما في خلق هذا الشعور واقناع الكثيرين من العرب بأنه لا أمل في الاحتفاظ بوطنهم الا عن طريق العنف. وجاءت المناوشة الاولى في شهر نوفمبر عندما أمسكت القوات الريطانية بمجموعة صغيرة من الوفدائيين العرب في التلال الخيطة بجنين، وكان قائد الجماعة عز الدين القاسم شيخا متدينا متزمتا تتألف اتباعه من المطرودين من احياء حيفا القدرة والقروبين من الريف الجاور وعلى الرغم من مقتل القاسم في هذه الواقعة الاولى فلا يزال الفدائيون الفلسطينيون يعتبرونه حتى اليوم مؤسسهم.

ولقد أعقب خطة القاسم التي لم تدم طويلا أضراب عام في ربيع عام ١٩٣٦، لكته جاء بالفشل نتيجة للدمار الذي الحقه باقتصاد الريف الفلسطيني ولاعتماد الطائفة اليهودية على نفسها بالقدر الذي جعلها إلى حد كبير محصنة ضد أى ضغط اقتصادى، وفي أوائل الصيف قرر العرب القتال فشكلوا وحدات عسكرية صغيرة في المناطق الجبلية بوسط وشمال فلسطين، ومن هناك بدأت حملة التخريب ضد الطرق والجسور وخطوط الأنابيب. ودار قتال عنيف في شمال الجليل وامتد حتى الجنوب وتلال نابلس، والى الجنوب حول القدم والخليل وبعر سبع وعلى امتداد الساحل بين غزة وبافا استطاعت القوات البريطانية احتواء الثورة بوجه عام .

وأصبحت الثورة، خلال العامين التاليين، أشد تهديدا وازداد حجم القوات العربية حتى بلغت ثلاثة آلاف مقاتل يفرزهم عدد اكبر من المقاتلين غير المتفرغين والمتعاطفين في القرى. وفي صيف عام ١٩٣٨ بلغت هذه القوات ذروة قوتها اذ تمكنت من السيطرة على التلال وعلى مدينتي نابلس ورام الله، وفي اكتوبر احتلوا مدينة القدس القديمة لفترة وجيزة .

أما الذي ساعد على نمو الثورة في عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨، فكانت توصية

اللجنة الملكية في يوليو ١٩٣٧ بضرورة نقسيم فلسطين، على أن يسلم الجليل بغالبيته العربية للدولة اليهودية المقترحة وتظل القدس وبيت لحم ومصر إلى البحر مخت الارتداب، أما بقية فلسطين فتوحد مع شرق الاردن مخت حكم الامير عبد الله. ولم تبد استعدادا لقبول ضياع مدن عربية تاريخية مثل عكا وصفد غير قلة من الفلسطينيين، ودفعت تلك المقترحات عائلة الحسيني وانصارها إلى الانضمام الكامل للشورة، في حين أن غالبية جماعة النشاشيبي ممن كانوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بالامير عبد الله أبدت المشروع اذ بدا لهم أنه أفضل وسيلة للاطاحة بالمفتى ولتمكينهم من الهيمنة أبدت المشروع اذ بدا لهم أنه أفضل وسيلة للاطاحة بالمفتى ولتمكينهم من الهيمنة العربية العليا التي كانت قد شكلت في بداية الشورة لتكون بمثابة قناع لوحدة القيادة العليا التي كانت قد شكلت في بداية الشورة لتكون بمثابة قناع لوحدة القيادة بعسائدة المفتى بل أنه أصبح إلى حد ما زعيمهم، بارهاب عائلة النشاشيبي وحلفائها، بمسائدة المفتى التقسيم أو عدم تأبيد الثورة. كما هرب آخرون من البلاد، الأمر الذي خلق رد فعل يتزعمه فخرى النشاشيبي أين عم راغب، الذي أشرف على تنظيم عصابات مسلمة في مختلف المناطق مهمشها عم راغب، الذي أشرف على تنظيم عصابات مسلمة في مختلف المناطق مهمشها حماية انصار النشاشيبي ومساعدة البريطانيين في مطاردة الثوار.

لقد فقدت الثورة بعض قوتها الدافعه عدما عارضت لجنة وود هيد في توفمبر عام ١٩٣٨ مشروع التقسيم السابق، وانتهت في العام التالي وقد قضت عليها الخلافات بين صفوفها وتصدى القوات البريطانية لها. وبقدر عدد الاصابات في أول بخسيد لحركة المقاومة الفلسطينية ينحو ٢٠ آلف عربي، ومن بين الخمسة آلاف أو يزيد اللين لقوا مصرعهم قتل ثلاثة أوباعهم في ميدان القتال، ووبما بلغ ضحايا الارهاب اليهودي وضحايا العرب الآخرين حوالي ١٢٠٠ قتيل كما نفذ البريطانيون حكم الاعدام في 1١٠٠ عربية، وكان معظم الضحايا من الفلاحين أو سكان الاحياء

القذرة الذين كانوا قد وصلوا للتو من الريف، فقد كانت تلك الحرب حربا غبية بمعنى الكلمة وليست حربا توجه من أعلى. ويتحليل الخلفية الاجتماعية والاقتصادية لما يقرب من ٣٠٠ ضابط من الثوار اكتشف البروفسير بوراث، المؤرخ اليهودى، أن الفالبية العظمى كان من القروبين المسلمين. وأشار إلى أن نسبة الريفيين إلى سكان الحضر كان يمكن أن تكون أكبر من ذلك بكثير لو أمكن فحص سجلات الفدائين العاديين.

لذلك تكشف دراسته أن طائفة الدروز عارضت الثورة بوجه عام وأن المسيحين على الرغم من بروزهم بين المثقفين القوميين، لعبوا دورا في القتال كما كان الدور الذي لعبته العائلات التي تمتلك مساحات واسعة من الاراضي استثناء عائلة الحسيني محدودا. وعلى الرغم من أن اللجنة العربية العليا كانت نشيطة بالقدر الذي حمل بريطانيا على اعتبارها لجنة غير شرعية ونفى بعض أعضائها إلى جزيرة سيشل وبات واضحا أن الدافع للثورة جاء من مصدر آخو .

كانت الثورة كارثة بالنسبة للفلسطينيين ذلك لانها أضعفتهم وفرقت بينهم، وظلت الانقسامات بينهم قائمة إلى أن جاء اليوم الذى اضطروا فيه إلى مقاتلة الصهاينة بعد ذلك بعشر سنوات. ولكن بعد أن أمتلأت بالمستوطنين الاجانب كما انتزعت منهم أراضيهم، ولما ناشدوا بريطانيا، الوصية عليهم، أن مخمى حقوقهم ما كان منها الا أن مجاهلتهم فحقيقة أن الغالبية في بلادها ينكر عليها حق ممارسة أى سيطرة على مستقبلها هي التى دفعت إلى العنف وفي عام ١٩٣٨ صرح أحد النواب في مجلس العموم البريطاني قاتلا:

اليس هناك نواب عرب في البرلمان ولاتوجد دواتر انتخابية تمارس نفوذها على أعضاء البرلمان، كذلك ليست هناك سيطرة عربية على الصحف في هذه البلاد حتى يكاد يتعذر نشر رسالة مؤيدة للعرب في صحيفة االتايمز، ولاتضم العاصمة بيوت مال عربية تتحكم في رؤوس أموال ضخمة ولاتوجد سيطرة عربية على اعلانات الصحف في هذه البلا، وليس ثمة وزراء مستعمرات سابقين من بين العرب.... أن العنف وحده هو الذي أثار اهتمامنا بمطالبهم،

ولجزء وككني



الفصل الأول

خروج IPEV م

احتفظت بريطانيا بانتدابها على فلسطين لمدة تسع سنوات بعد هزيمة الثورة العربية. وفي تلك الفترة هيمنت الحرب العالمية الثانية والهجوم المدمر الذي شنته الجماعات الارهابية اليهودية ضد البريطانيين في فلسطين. وكان اغتيال اللورد موين في القاهرة على يد عصابة شتيرن ونسف فندق الملك داوود، واعدام الجنود البريطانيين على يد أرجون زفاى ليومي التي كان يتزعمها مناحم بيجن، أسوأ ماحدث في تلك الحملة. وفي وضع لم يكن يبشر بأى أمل في التحسن قرر البريطانيون الذين أضعفتهم الحرب واستأسدت عليهم الولايات المتحدة، التي حال انحيازها السافر المستمر للصهيونية دون تنفيذ سياسة متوازنة في فلسطين- قرروا التخلي عن الانتداب وأعلنوا عن نيتهم في التخلي تاركين المشكلة بين أيدى الأم المتحدة والواقع أن مصير فلسطين قرره عضو واحد بدلا من الأمم المتحدة ككل فالولايات المتحدة، التي كانت قد اختارت التقسيم وخلق دولة يهودية، عقدت العزم على فرض سياستها داخل الجمعية العامة. وعندما أصبح من غير المؤكد أن يجتذب المشروع أغلبية كافية، رد الامريكيون بعنف فأعطيت هايتي وليبيريا والفلبين والصين واثيوبيا واليونان وجميعها عارضت التقسيم جرعات مركزة من الضغط السياسي والاقتصادي وباستثناء اليونان، أمكن اقناعهم جميعا بتغيير موقفها حتى أن مندوب الفلبين وجد نفسه في وضع مثير السخرية: فبعد أن ألقى خطبة خماسية ضد التقسيم، انتهت بلاده بالتصويت إلى جانبه .

لقد كان مشروع التقسيم الذى فرض على الجمعية العامة في نوفمبر عام ١٩٤٧، مغايرا تماما للمشروع الذى طرحته اللجنة الملكية قبل ذلك بعشر سنوات، فبموجب المشروع الأخير، كان الفلسطينيون سيخسرون أراضيهم الأكثر خصوبة على طول الساحل وفى الجليل، لكنهم كانوا سيحتفظون بمعظم وطنهم. أما فى مشروع الام المتحدة منح الصهاينة حوالى ستين بالمائة من مساحة البلاد بما فى ذلك الجليل المشرقى والسهل الساحلى الممتد من نقطة عند شمال اشدود مباشرة وحتى عكا تقريبا ووادى سيراليون فى المزارع الغنية الممتدة على طول نهر الاردن من جنوبى بيسان إلى طبرية وتقريبا منطقة بفر سبع من البحر الميت إلى خليج العقبة. أما الحصة العربية فقد كانت تتألف من الجليل الغربى وجيب عند يافا وقطاع غزة والهضاب الوسطى الممتدة من جنين إلى بئر سبع على أن تستبعد القدس وبيت لحم من كل من اللولتين ووضعهما فى منطقة دولية .

وبالرغم من الهجرة الواسعة النطاق كان اليهود في عام ١٩٤٧ لايزالون يشكلون أقل من ثلث سكان فلسطين، ولم يكونوا يشكلون الغالبية الا في منطقة فرعية واحدة، هي منطقة يافا حيث تل أبيب كما أنهم لم يملكون في أي منطقة فرعية أرضا أكثر من الحرب. ويمكن التدليل على عبث المشروع على أساس حقيقة أنه في الدولة اليهودية المقترحة كان العرب أكثر من اليهود. ففي الجليل الشرقي، الذي يتألف من مناطق صغد وطبرية وبيسان لم يكن اليهود يشكلون غير ربع السكان، وفي منطقة بمرسبع كان ينتظر من ١٠٢٠ عربيا أن يخضعوا لـ ١٠٢٠ يهوديا وهذا الامتداد الاخير من الارض وهو منطقة عربية يسكنها العرب وحدهم تقريبا، أعطى للصهاينة ليس لأنهم طالبوا به، بل نجرد أنهم كانوا يريدون ميناء على البحر الاحمر.

ان البريطانيين، الذين كانوا يتخبطون خلال فترة الانتداب وهم يحاولون الوفاء بوعود اعترف واحد من مندوييهم الساميين بأنها كانت متضاربة ولايمكن الوفاء بها، حاولوا على الاقل أن يكونوا غير متحيزين. أما الام المتحدة الخاضمة للهيمنة الامريكية فلم تبذل أية محاولة للانصاف على الاطلاق وكان نصيب مسائل الحقوق والمبادئ هو النسيان واستبعد بالكامل المبدأ القائل بضرورة أن يكون لأى شعب رأى في تقرير مستقبله. وكثيرا ما يقال أنه لو كان الفلسطينيون قد قبلوا التقسيم، لما خسروا اكثر مما خسروا من أراضيهم في حرب ١٩٦٧م، الاجزاء الباقية القليلة من وطنهم. الا انه يتعين على كل انسان أن يمي حقيقة انه لم يكن يمكنهم قط قبول التقسيم بادئ ذى بدء اذ كيف يمكن أن ينتظر من أى شعب أيا كان اعتداله وواقعيته أن يتخلى مختارا عن الجزء الأعظم من بلاده؟ لقد رأى ايمون دى فاليرا، رئيس أيرلندا، بوضوح أن ذلك مستحيل. فقد رد على زائر كان يرغب في الحصول على تأييده للتقسيم قائلا: فقرأت المهد القديم (التوراه) منذ سنوات عليدة، وأخشى أن أكون نسيت أشياء كثيرة مما قرأت، لكننى الذكر احدى القصص بوضوح. انها قصة الني سليمان والحكم سليمان باقتسام الطفل صرخت الأم الحقيقية قائلة: كلا.. كلا اعطوا الطفل للامرأة الاخرى ذلك هو ردى على التقسيم، ان الاصحاب الحقيقيين للأرض لن يوافقوا أبلدا القسيم .

وهكذا رفض الفلسطينيون مشروع التقسيم على الفور. والواقع أن العمهاينة رفضوه بدورهم فبالرغم من أن الوكالةاليهودية قررت ظاهريا قبول القرار، فإن صهاينة عديدين لم يهتموا حتى بتأييده شفاها. وقد أعلن آنذاك مناحم بيجن، رئيس وزراء اسرائيل السابق: وأن التقسيم الوطنى عمل غير شرعى.. ولن يعترف به ابدا، أن توقيع مؤسسات وأفراد على اتفاق التقسيم هو توقيع باطل. وهى لن تكون إلى الابد عاصمتنا. وسوف ترد أرض امرائيل إلى شعب اسرائيل. كلها والى الابده .

أما الرجل الذي سرعان ما أصبح رئيسا للوزراء، ديفيد بن جوريون، فلم يكن هو الآخر مستعدا لقبول قرار الأمم المتحدة حول القدس: «أن عشرات الآلاف من سبيبتنا على استعداد لأن يهبوا أرواحهم من أجل القدس. أن كل ماهو ممكن سوف يتم عمله من أجل القدس. انها تقع داخل حدود دولة اسرائيل شأنها في ذلك شأن تل أبيب، كان هناك قادة آخرون أقل صياحا حول ذلك الموضوع الا أن مجرد نظرة عابرة إلى الخطط العسكرية الصهيونية في ربيع عام ١٩٤٨، تثير إلى مدى ضآلة مراعاتهم لحدود التقسيم المقترحة. ومن الواضح أنهم لم يكونوا على استعداد للاعتراف بالوضع العرلى في الجليل الغربي .

أن الرواية الاسرائيلية عن حرب ١٩٤٨م، الواردة في مؤلف حكومي نشرته هيئة الاعلام الاسرائيلية في عام ١٩٦٧، تقول: «لو لم تكن الدول العربية قد خاضت حربا سافرة ضد اسرائيل غداة قيامها في مايو ١٩٤٨، لما نشأت قط مسألة اللاجفين العرب»، وهذا الادعاء مثير للسخرية لدرجة أنه من الصعب أن يجد انسانا أمكن خداعه به. ففي نفس اليوم الذي أعلنت فيه اسرائيل استقلالها كان هناك بالفعل ٢٠٠٠٠٠ لاجثا فلسطيني، وكانت القوات العمهيونية قد احتلت اجزاء واسعة من الأراضي الخصصة للدولة العربية المقترحة وكذلك اجزاء من القدس التي كانت النية متجهة إلى الخصاعها لادارة دولية. وفي منتصف ليل ١٤ مايو، عند انسحاب آخر الجنود البريطانيين وعند اعلان الدولة الجديدة، كان الصهاينة قد استولوا على الاحياء العربية للقدس الغربية وتسللوا إلى المدينة القليمة كما استولوا على يافا وفتحوا ممرا بين الساحل والقدس ودمروا العشرات من القرى العربية. وفي أوائل أبريل اقترفوا أبشع جرائمهم: عندما ذبحوا ٢٠٤ مدنيا من قرية ديرياسين. ومع أن القتلة كانوا أعضاء في عصابة الارجون التي كان يتزعمها بيجين، فإن العملية نفذت بتشجيع من قائد القوات النظامية الصهيونية (الهجانة) في القدس، وكانت ديرياسين تقع على بعد ثمانية عشر ميلا من الحدود التي زعم القادة الصهاينة انهم قبلوها في مشروع التقسيم .

ان المرحلة الأولى من حرب ١٩٤٨ وتتمثل في الهجوم الصهيوني الذي انتهى من ١٥ مايو، كشف الكثير عن نوايا مخططوها. ان الاستراتيجية الصهيونية، التي كانت تتألف من سلسلة من العمليات المرتبطة تخت اسم خطة داليت، قد وصفها وصفا جيدا كل من الليفتنانت— كولونيل نيتانيل لورتش، الذي عين مؤخرا مديرا للاعلام في وزارة الخارجية الاسرائيلية ، وبيجال آلون، وهو وزير خرجية اسبق وقائد للهجانه في عام ١٩٤٨.

لقد كان لتلك الاستراتيجية هدفان: تثبيت الاراضى الخصصة للدولة اليهودية وطرد سكانها العرب، والاستيلاء على مناطق محددة وعدت بها فلسطين العربية بقوله وان الاعتبارات الاستراتيجية التى حددت خطة الاستيطان الصهيوني قررت إلى حد كبير مصير الكثير من المناطق فى البلاد، بما فى ذلك مناطق يسكنها العرب أساسا أو وحدهم، مثل طبرية، وتسيماح، وبيت شيمان، وعكا، وحيفا، ويافا، وكلها تخيط بها قرى يهودية.

وكان يفترض أن تكون عكا وبافا ضمن الدولة العربية مع ذلك هوجمتا واحتلتا، وطرد معظم سكانهما، ليس لأن الدولة العربية خاضت حربا سافرة ضد اسرائيل وبل لأنهما، كما اعترف واحد من أكبر القادة الميدانيين الإسرائيليين، كانتا قرب مستوطنات يهودية. أما حقيقة أن الأم المتحدة خططت لترك هاتين المدينتين مخت السيطرة العربية وان آلون وزملائه قالوا انهم سوف يقبلون تلك الخطة، فانها لم تكن، فيما يبدو، شيئا تلزم مراعاته. لقد كان الصهاينة يريدون يافا وعكا ولذا استولوا عليهما. وكان ذلك جزءا من خطة داليت مثل الاستيلاء على حيفا، واحتلال الجليل والهجوم على القدس. ولم تنجح كل العناصر في الخطة وان مخقق الكثير فقرى اللطرون التي تسد الطريق الرئيسي بين يافا والقدس لم يتم الاستيلاء عليها قط كما لم يتم تسد الطريق الرئيسي بين يافا والقدس لم يتم الاستيلاء عليها قط كما لم يتم

الاستيلاء على المدينة القديمة. فبحلول ١٥ مايو، عندما شدت الدول العربية حربا سافرة ضد اسرائيل ومن ثم بناء على ما ذكرته هيئة الاعلام الاسرائيلية بدأت المشكلة برمتها، كان الصهاينة قد استولوا بالفعل على مناطق كبيرة مخصصة للدولة العربية المقترحة واقتلعوا اعداد غفيرة من اللاجمين من ديارهم .

وتكاد المرحلة الاولى من الحرب تكون من جانب واحد. فقد تمكنت الهاجاناه من حشد ٣٠٠٠٠ جندى على الخطوط الامامية تساندهم قوات حاميات قوامها ٣٢٠٠٠ رجل، وشرطة المستوطنات وقوامها ١٥٤١٠ رجل ، ٣٢,٠٠٠ رجل من الحرس الداخلي. وكان إلى جانب هؤلاء الجماعتان الارهابيتان، الارجون، التي بلغ إجمالي اعضائها خمسة آلاف عضوا، وعصابة شتيرن، التي كانت تتألف من ألف مقاتل من أجل حرية اسرائيل وكانت القوة التي تصدت لهم في الجولة الاولى هزيلة. ويبدو أن المفتى ومؤيديه في الحكومات العربية لم يدركوا أن هناك حاجة إلى جيش، وفي ديسمبر ١٩٤٧م، قرروا تشكيل قوة غير نظامية من المتطوعين من مختلف البلدان العربية سموها على نحو غير موفق جيش التحرير العربي. ولما كان هذا الجيش يتألف من حوالي ٥,٠٠٠ رجل، جاء أداؤه طيلة الحرب في فلسطين مخيبا للآمال: فلم يكسب معركة، وبعد سلسلة من الانتكاسات المبكرة، كان ينسحب قبل أن يضطر إلى المواجهة. وتشير الابحاث التي جرت مؤخرا حول عملياته في الجليل إلى أن تأثيره على السكان المدنيين هو ذلك التأثير الذي أضعف بوجه عام من روحهم المعنوية والى جانب هذه القوة، قام بالدفاع عن فلسطين في مرحلة ماقبل ١٥ مايو القرويون أنفسهم الذين دافعوا عن ديارهم بأقصى ما تتيحه لهم أسلحتهم العتيقة. ولم تكن هناك استراتيجية ولاتنسيق بينهم. وقد خذلهم قادتهم بصورة مخزية حيث كان معظمهم يعيشون في بيروت، والقاهرة، ودمشق. ولم يبق خلال الحرب في فلسطين من اللجنة العربية العليا غير عضوين هما: أحمد حلمي والدكتور حسين فخرى الخالدي، ولم

يشارك في القتال غير واحد فقط من من أعيان القدس، هو عبد القادر الحسيني الذي قتل قبل ١٥ مايو بوقت طويل خلال هجوم صهيوني على القسطل .

وليست القيادة وحدها، كما كان الحال من قبل في أغلب الأحيان هي التي خذلت الفلسطينيين، فرد الفعل من جانب الدول العربية لم يكن بدوره كافيا. وباستثناء شرق الأردن لم يكن لدى أية دولة منها، فيما يبدو، أى فكرة عما يعنيه خوض الحرب. فالجامعة العربية التي كانت قد تأسست لتوها وكانت تضم مصر والمراق وسوريا ولبنان والعربية السعودية وشرق الأردن واليمن، لم تشعر أن القتال الفعلي سوف يكون ضروريا. وتصورت لجنتها السياسية أن وحشد القوات العربية الحالية على الحدود سوف يكون كافيا لاقتاع الدول الكبرى بالتدخل واجبار اسرائيل على الاذعان للمطالب العربية ووحي عندما بات واضحا أنه سوف يتعين عليها القتال ظلت الدول العربية راضية عن نفسها بصورة تدعو إلى العجب، وقدمت سوريا لواء قوامه ١٨٧٦ رجلا، ولبنان كثيبة قوامها ٧٠٠ رجل وعندما أبلغ جلوب باشا، الذي قوامه العربية بأن لدى كان يقود الفيلق العربي التابع لشرق الاردن، الأمين العام للجامعة العربية بأن لدى الصهاينة ٢٠٠٠ رجل غت السلاح، أجاب الاخير وانني أتوقع أن تسير الامور على ما يرام وعملت الترتيبات اللازمة للحصول على سبعمائة رجل من ليبيا، وعندما سئل ما يرام وعملت الترتيبات اللازمة للحصول على سبعمائة بندقية من ايطاليا.

على أن دخول الجيوش العربية إلى فلسطين في ١٥ مايو وضع حدا للهجوم الصهيوني الأول. ومع أن المجموعة المتنافرة من الجنود السوريين واللبنانيين في الشمال كانت عاجزة عن انقاذ بقايا الجليل، فان وجود لواء من الجنود المصريين في الجنوب وما قام به الفيلق العربي حول القدس أزاح الضغط عن القرويين الفلسطينيين. وبعد قتال دام اسبوعين تمكنت كتيبة تابعة للفيلق العربي تطهير المدينة القديمة من

الهاجانا، بينما سيطرت كتيبة أخرى على الممر الضيق الحيوى عند اللطرون على بعد بضمة أميال غربى القدس. وكان ذلك أهم كسب استراتيجى فى فلسطين. كما اعترف الاسرائيليون عندما استولوا عليه فى سنة ١٩٦٧م، ودمروا القرى العربية المحيطة. لكن الفيلق العربي سيطر عليه فى عام ١٩٤٨، بالرغم من الهجمات المتكروة، ولو كان قد سقط لتغلفل الصهاينة فى منطقة رام الله إلى الشمال من القدس وقلب الموقف العربى كله .

لكن دخول القوات المسلحة العربية لم يوقف النجاح الاسرائيلي الا بمسورة مؤقتة. فعندما جرت الهدنة الاولى في ١١ يونيو استغل الاسرائيليون الفرصة لاعادة تنظيم قواتهم واحضار كميات ضخمة من الاسلحة من تشيكوسلوفاكيا ولم يفعل المرب شيئا على الاطلاق. ولا كانوا يعتقدون، لسب ما، أنه لن يكون هنالك مزيد من القتال، فانه لم تتخذ أى خطوات لزيادة حجم جيوشهم أوكفاتها. كما لم تبذل أى محاولة للاتصال فيما بينهم، وطوال فترة الحرب رفض المصريون اطلاع ميرانهم في الجبهة، الفيلق العربي، عن أى تفاصيل لخططهم، تكتيكية كانت ام استراتيجية .

وخلال الجولة الثالثة، التى وقعت بين اهدنتين فى منتصف شهر يوليو ركز الاسرائيليون على أهداف مختارة فى المناطق العربية. وفى ١٢ يوليو تم الاستيلاء على على مدينتى الملد والرملة المتجاورتين على السهل الساحلى شرقى تل أبيب واخلاؤهما من سكانهما فى غضون ساعات قليلة. وتبع ذلك هجوم فاشل آخر ضد الفيلق العربى عند اللطرون. وبعد ذلك بأربعة أيام سقطت الناصرة، آخر مدينة عربية فى الشمال. وانتهت المقاومة الجادة فى الجليل. ووقعت المرحلة الاخيرة من الحرب فى اكتوبر عندما اخترق الاسرائيليون المواقع المصرية فى الجنوب واستولوا على بئر سبع. ورجعت الموات المصرية إلى غزة وتركت الجبهة الواقعة إلى جنوب القدس، ولولا قوة من الغيلق

المربى، لاستولى الاسرئليون، ولاشك، على الخليل ولم يمض على ذلك أيام قليلة حتى طورت فلول جيش التحرير العربى نهائيا عبر الحدود اللبنانية وانتهى القتال، وفي أواخر عام ١٩٤٨م، كانت سوريا ولبنان وجيش التحرير العربى وتركت القتال بينما كانت القوات المصرية التى فقدت جنوب فلسطين كله تقريبا، محصورة في غزة، ولم يثبت في مواقعه غير الفيلق العربى وقوة عراقية في شماله لكنهما لم يكونا في حالة تسمح لهما بمواجهة الجيش الاسرائيلي بأسره، وعندما أعلن العراقيون، يدورهم عن نيتهم في الانسحاب، اضطر شرق الاردن إلى توقيع هدنة، رغم أن ذلك كان يعنى التخلى عن سلسلة من القرى على بعد أميال قليلة من الساحل، ولم يكن الاسرائيليون قد استولوا على أى من هذه القرى وكانت كلها مخصصة للدولة العربية. لكن الاسرائيليين طالبوا بها كثمن للسلام ولم يكن شرق الاردن في موقف يسمح له بأن

أما الشئ الوحيد الذي يدعو للغرابة في حرب ١٩٤٨م هو عدم استيلاء الاسرائيليين على البلاد بأسرها رغم أن ذلك كان هدفهم الواضع، لقد كشف بعد ذلك كاتبان صهيونيان أن العملية التي استهدفت الاستيلاء على فلسطين الشرقية كلها ثم التخلى عنها في أواخر عام ١٩٤٨م ادعانا للرأى العام العالمي. ويبدو أن القادة الاسرائيليين لم يكونوا مستعدين للمجازفة بوضعهم في سبيل واحتمالات غير مؤكدة لعملية عسكرية أخرى، من شأنها أن تؤدى إلى تفاقم مشكلة اللاجئين العرب بشدة ويبدو انهم ندموا فيما بعد على حذرهم ففي عام ١٩٢٤، ألمح بن جوريون، بشدة ويبدو انهم ندموا فيما بعد على حذرهم ففي عام ١٩٢٤، ألمح بن جوريون، رئيس الوزراء المتفاعد، إلى أن ذلك كان خطأ القادة العسكريين: وفقد كان يمكن لأرض اسرائيل أن تكون أوسع لو أن الجزال موشى دايان كان رئيسا للاركان خلال حرب ١٩٤٨، وأنحى الجزال آللون باللائحة على بن جوريون: فقد زعم أنه عندما أمر رئيس الوزراء بوقف اطلاق النار وكنا في ذروة الانتصار... من الليطاني (نهر في

لبنان) شمالا إلى صحراء سيناء فى الجنوب- الغربى. وكانت أيام أخرى قليلة من القتال كفيلة بتمكيننا من غرير البلاد كلها وبالنسبة للمراقبين لابد أن يبدو غريبا أن الاسرائيليين غير مكتفين بمكاسبهم فقد كانوا فى اواخر عام ١٩٤٨ يسيطرون على اكثر من ثلاثة أرباع فلسطين ويفكرونفى الاستيلاء على ما تبقى .

بالنسبة للفلسطينيين لم تكن الهزيمة العسكرية أهم سمة للكارثة لقد هزموا على حال في عام ١٩٣٨ واستطاع معظمهم مواصلة حياتهم على غرار ما كانوا من قبل يفعلون. بيد أن هذه الحرب كانت مختلفة اذ أن أكثر من نصف الشعب قد اقتلموا من أرضهم، وحولوا إلى لاجئين ولم تتح لهم فرصة المودة إلى وطنهم هذا الشتت، وهذا الخروج الجماعي إلى البلدان المجاورة، هو السلسلة المحورية للتاريخ الفلسطيني المعاصر. وما من أحد يقدر أن يضم الفلسطينيين اليوم أو يعرف افكارهم أو تطلماتهم أو سلوكهم دون فهم المأساة التي تكمن في جدور المشكلة الفلسطينية والسبب في وقوعها .

لماذا تركوا بلادهم؟ وما الذى يمكن أن يدفع أمة من المزارعين الفلاحين وحرفي المدن الصغيرة إلى هجر أرضها وديارها؟ لقد صدق الناس في الغرب لسنوات عديدة الرواية الاسرائيلية الرسمية، التي تزعم أن الخروج أعقب أوامر صريحة اذاعها رئيس الهيئة المربية العليا (المفتى) ومازال كثيرون يصدقونها: بل أن كتاب الرسائل إلى صحيفتي الجارديان والايلي تلجراف كثيرا ما يستشهدون بهذه الرواية حتى يومنا هذا. وقد قال لى صهيوني المجليزي بارز في عام ١٩٧٩: ولقد أذاع القادة العرب إلى العرب في مناطق حيفا والجليل أوامر تدعوهم الى ترك فلسطين، وانهم سوف يعودون مع الجيوش الفائحة حين يكافأون بغنائم النصر أنه اتهام شاذ وثبت بطلانه المرة تلو الإحرى، ومن الصعب معرفة ما الذي يأمل الصهاينة في مخقيقه من وراء تكراره دون

توقف. ويبدو أن منطقهم في ذلك هو أنهم لو تمكنوا من اثبات أن الفلسطينيين غادروا البلاد بمحض انحتيارهم فان ذلك يبطل بطريقة ما حقهم في العودة إلى وطنهم. ومن الصحب أن نرى السبب في ابطال ذلك الحق، الناس في المالم كله يغادرون اوطانهم في وقت الحرب لأسباب متباينة. ومع ذلك، وأيا كان سبب هروبهم، فانهم جميعا يملكون نفس الحق في العودة إلى الوطن بعد ذلك. على أى حال، فإن أحدا لم يقم أى دليل يثبت المزاعم الخاصة بالاذاعات. وقد جرت محاولات مستقلة في الخمسينات لاثبات الحقيقة من جانب النين من الباحثين هما: الدكتور وليد الخالدي، والدكتور ارسكين تثايلدرز. فقد ذهب تشايلدرز إلى اسرائيل في عام ١٩٥٨ كخشيف على الحكومة وحاول أن يجد اللليل على تلك الاذاعات. ولما عجز الاسرائيليون عن تقديم المليل قرر فحص تسجيلات الاستماع الاميركي والبريطاني لكل اذاعات الشرق الاوسط طوال عام ١٩٤٨، وذكر أنه دلم يوجد امر واحد أو نداء الم المقراح يتعلق بمغادرة فلسطين من أى اذاعة عربية، داخل أو خارج فلسطين، في عام ١٩٤٨، وتوجد تسجيلات المربودة، بل ولأوامر صريحة، إلى المدنيين الفلسطينيين الا يرحوا اماكنهم.

وثمة دليل آخر على موقف القيادة العربية ورد ضمن رسالة من اللجنة العربية العليا، بتاريخ ٨ مارس ١٩٤٨، تطلب من الحكومات العربية بشكل محدد التعاون في منع الفلسطينيين من مغادرة بلادهم. وجاء بالرسالة: دلقد قرت اللجنة العربية العليا أن من مصلحة فلسطين الا يسمح لأى فلسطيني بمغادرة البلاد الا لظروف خاصة، كالاسباب السياسية أو التجارية أو الصحية القهرية. وفي الوقت نفسه، ففي القدس نفسها، أصدر احمد حلمي وحسين الخالدي بالفعل أوامر تخظر على أي انسان مغادرة المدينة دون تصريح.

أن الامر لا يقتصر على عدم وجود برهان لاتبات الزعم القاتل بأن العرب قد رحلوا نتيجة لأوامر اذاعها قادتهم : فهناك ادلة دامغة تشير إلى أن المسولية الحقيقية عن مشكلة اللاجئين يتحمل وزرها الصهاينة، وكما قال الكونت برنادوت، الوسيط الذي أرسلته الأمم المتحدة إلى فلسطين، قبل وقت قصير من اغتياله على أيدى الارهايين الصهاينة فإن: وخروج العرب الفلسطينيين نشأ عن الذعر الذي تولد عن القتال في مجتمعاتهم والشائعات المتعلقة بأعمال ارهاب أو طرد فعلية أو مزعومة،

لقد كرمن الطرد هو الوسيلة الاكثر شيوعا التي استخدمت ضد سكان حيفا واللد والرملة، وعديد من القرى في الجليل، وفي حيفا وققا لما نشرته صحيفة باليستاين بوست (الآن جيروزاليم بوست) الصهيونية شبه الرسمية، فإن وقوات الهاجاناه قد ... سحقت في معركة دامت ثلاثين ساعة كل مقاومة، واحتلت العديد من المباني الرئيسية مجبرة آلاف العرب على الفرار عن طريق الهرب المفتوح الوحيد ألا وهو البحره، وقد وصف كاتبان صهيونيان، جون وديفيد كيمشي، ماحدث لسكان اللد والرملة:

د في يوم الحادى عشر من يوليو تحرك دايان وقواته بأقصى سرعة إلى الله، وقصفوا المدينة وخلقوا اضطرابا ودرجة من اللاعر بين صفوف سكانها.... فما كان العرب الذين يتألفون من ٣٠,٠٠٠ نسمة الا انهم هربوا أو دفعوا دفعا إلى الطريق المقضى إلى رام الله. وفي اليوم التالى استلمت المرحلة أيضا ولقى سكانها العرب نفس المصير. وقد نهب الاسرائيليون المنتصرون كلا من المدينتيين .

لقد كان الارهاب وذبح المدنيين من الاساليب المتطورة الاخرى التي استخدمها الصهاينة. ووفقا لما يذكره الأخوان كيمش مرة أخرى، فإن قتل القروبين العزل من السلاح قد بدأ في ديسمبر ١٩٤٧، فور انتهاء مناقشات الأم المتحدة لقد كانت وسيلة

رئيسية استخدمت في اجبار عرب الجليل على الهرب عبر الحدود اللبتانية أو السورية، وفي عين الزيتونة، جرى احتجاز سبعة وثلاثين صبيا كرهائن ولم يشاهدوا بعد ذلك أبدا، بينما أخذ السكان الآخرون إلى مشارف القرية وأمروا بالرحيل، وقد وصفت إحدى سكان صفصاف (واسمها الآن سيسفونة) ماحدث لقريتها عندما استولت عليها القوات الإسرائيلية في اكتوبر ١٩٤٨.

الماء للجنود. وبدلا من ذلك أخذوهن إلى بيوتنا الخالية واغتصبوهن. كما عصبوا الماء للجنود. وبدلا من ذلك أخذوهن إلى بيوتنا الخالية واغتصبوهن. كما عصبوا حوالى سبعين من رجالنا وقتلوهم رميا بالرصاص، واحدا بعد الآخر، أمام أعيننا. وأخذ الجنود جثثهم وألقوا بها على الأسمنت الذي يفطى بحر القرية وأهالوا الرمل عليه.

لقد حدثت فظائع مماثلة في عشرات من قرى الجليل وأيضا بالقرب من الخليل. ووفقًا لما يذكره جندى إسرائيلي، وهو عضو في حزب اللايام، فإن القوات الإسرائيلية ارتكبت مدبحة رهيبة في قرية دويمة السنية الواقعة بين الخليل والساحل.

لقد قتلوا حوالى ثمانين إلى مائة عربى، من النشاء والأطفال بتهشيم جماجمهم بالهراوات.... ومن بقى فى القرية من رجال ونساء تركوا فى البيوت دون غداء ثم جاء خبراء النسف ونسفوا البيوت. وأمر أحد الضباط خبيرا للألغام بوضع امرأتين عجوزتين فى البيت الذى كان على وشك نسفه. ورفض خبير الالغام قائلا أنه لن يطيع غير الأوامر الصادرة اليه من قائدة المباشر. فأمر الضابط جنوده بوضع الامرأتين العجوزتين فى البيت وتنفيذ العملية البشعة. وتفاخر جندى آخر بأنه إغتصب امرأة عربية ثم قتلها رميا بالرصاص. وامراة عربية لم يزد عمر رضيمها عن يوم واحد شغلت أعمال التنظيف فى الغناء لمدة يوم أو يومين ثم قتلت عى ورضيعها رميا بالرصاص، أن القادة المثقفين حسنى السلوك ممن كانوا يعتبرون طيبين تخولوا إلى قتلة منحطين، وقد حدث هذا ليس

فى معمعان المعركة والحماس الأعمى، وانما هو نتيجة المخطط المطرد والابادة. فلما كان الباقون من العرب أقل كلما كان ذلك أفضل.

لقد كان المقصود من وراء هذه المذابح هو دفع القروبين في المناطق المجاورة إلى الهرب هلعا. وبعد أن وتم الذبح الوحشى المعتمده، كما وصفه جاك دى رينيه، بمثل الصليب الاحمر، لـ ٢٥٤ مدنيا في ديرياسين، جرى اقتياد الناجين التمساء علنا عبر شواع القدس من أجل بث الرعب بين قطاعات السكان الأخرى، وقد وصف آرثر كيار حمام ديرياسين بأنه والعامل السيكولوجي الحاسم في هذا الخروج المثيرة، وقد استغلة الصهاينة استغلالا حادقاً. ويتذكر مبشر مسيحي في القدس أحد مكبرات الصوت وهو يديع هذه الرسالة إلى السكان العرب: ومالم تغادروا دياركم، فإن مصير ديراسين سوف يكون مصيركم، ووفقا لما يذكره مناحيم بيجين، الذي كان مسئولا عن المذبحة، فإن عرب حيفا قد هرعوا إلى زوارقهم وهم يصرخون وديرياسين.

وكتب جاك دى رنييه يقول: وكان لما حدث فى ديرياسين أصداء بالغة. فقد نشرت الصحف والاذاعة أخبارها فى كل مكان بين العرب واليهود على حد سواء. وبهذا الشكل تراكم الرعب العام بين صفوف العرب، وهو رعب أثاره اليهود بأسلوب خبيث، وتخت تأثير الخوف، ترك العرب ديارهم لكى يجدوا ملاذا بين أشقائهم، وفى البداية جرى اخلاء مزارع منعزلة، ثم قرى، وفى النهاية أخليت مدن بأكملها.

كان الضغط السيكولوجي عنصرا حيويا في الهجوم الصهيونبي وغالبا ما كان أكثر تأثيرا من الإرهاب. وقد حبك المسئولون الإسرائيليون مثل هذا الضغط حبكة جيدة. وقد وصف هارى ليفين، وكان صحفيا مجريا عمل آنذاك في هيئة الإذاعة اليهودية في القدس أصبح أول سفير لإسرائيل لدى نيوزيانده وأستراليا إحدى سمات

الحملة الصهيونية كان أحد مكبرات الصوت يجلجل باللغة العربية، حين كانت الهاجاناه تدعو المدنيين العرب إلى ترك المنطقة قبل الخامسة والربع صباحا مرددة واشفقوا على زوجاتكم وأطفالكم وإخرجوا من حمام الدم هذا. استسلموا لنا بأسلحتكم لن يلحق بكم أذى. أو اخرجوا إلى طريق أربحا، الذى مازال مفتوحا أمامكم. أما اذا يقيتم، فسوف عمل بكم الكارثة وقد كتب ليوهيمان، محارب إسرائيلى قديم في حرب ١٩٤٨، عن أساليب أكثر تعقيدا:

وبينما ساد الرعب المنتشر في ربوع الأحياء العربية، جاء الإسرائيليون بسيارات جيب أخذت تذبع وأصوات الفزع، التي سجلها والتي كان من بينها صرخات وعويل ونواح لنساء عربيات، وصفير صفارات الانذار ورنين أجراس انذار الحريق يتخللها صوت كتيب يناشد باللغة العربية وانقذوا أرواحكم أيها المؤمنون. فاليهود يستخدمون الغازات السامة والأسلحة الذرية. استحلفكم بالله أن تنجوا بأرواحكم، أما المفاجأة الأهم فمصدرها بيجال آللون، قائد قوات الهاجانا في الجليل. وكان آللون عضوا في المؤسسة السياسية والعسكرية الإسرائيلية لمدة ثلاثين عاما والفقرة التالية تعبر بجلاء عن مواقف المؤسادة الإسرائيليين تجاه الفلسطينيين:

القد استبان لنا أن ثمة حاجة إلى تطهير الجليل الداخلى واقامة امتداد اقليمى يهودى في منطقة الجليل الأعلى بأسرها، ولذا بحثنا عن وسائل لانضطر معها إلى استخدام القوة لندفع إلى الرحيل عشرات الآلاف من العرب الغاضبين الذين بقوا في الجليل. لقد حولنا استخدام تكتيك استغل الانطباع الذي خلقه مصير صفد والهزيمة (العربية) في المنطقة التي طهرتها عملية ميتاتية (العطية السابعة في خطة داليت) وهو التكتيك الذي نجح بصورة خارقة .

ولقد جمعت كل العمد اليهود بمن كانوا على اتصال بالعرب في قرى مختلفة وطلبت اليهم أن يهموا في آذان بعض العرب بأن تعزيزات يهودية ضخمة قد وصلت إلى الجليل وأنها سوف تخرق كل قرى الحوله. وأن عليهم أن ينصحوا هؤلاء العرب، بوصفهم أصدقاء لهم، بالفرار قبل فوات الاوان. وحقق ذلك التكتيك هدفه تماما. فقد سقط مبنى مركز الشرطة في هلسا في ايدينا دون طلقة واحدة. وتم تطهير المناطق الشاسعة

كانت هذه الفقرة جديرة بأن ننقلها بالتفصيل لأن قائدا إسرائيليا، ووزير خارجية ونائب لرئيس الوزراء السابق، يعترف هنا بشئ لانزال تنفيه الدعاية الإسرائيلية. فوفقا لرواية الدعاية، جاء هرب اللاجئين اثر تعليمات صريحة اذاعها «المفتى. وقد زعمت جولدا ماثير طيلة حياتها بأن مشكلة اللاجئين ليست مسئولية إسرائيل ولايزال المبرون الصهاينة في الصحف الغربية يرددون الخرافة التي تتحدث عن الاذاعات. لكن هنا سياسيا إسرائيليا بارزا يشرح بالتفصيل كيف أسهم هو شخصيا في مشكلة اللاجئين. صحيح أنه لم يذكر المذابح، فذلك أكثر ثما نتوقمه منه لكنه يكشف بوضوح أن العرب لم يرحلوا من تلقاء أنفسهم أو استجابة لرغبات المفتى فقد طردوا على نحو مؤكد عاما. وعلاوة على ذلك فإنه يكشف دافع الصهاينة من وراء الطرد، وربما يكشف، عن غير قصد، موقفهم الحقيقي تجاه الفلسطينيين. فهو يتحدث عن طرد العرب ثلاث مرات في هتين الفقرتين، لكنه بدلا من استخدام كلمات مثل «الطرد» أو «التخلص» يستخدم، في كل مرة، الفعل فيطهر، كما لو كان العرب، سكان البلاد الأصليين يلوثونها بصورة ما. وعندما «طهر، آللون الجليل من العرب، فإنه كان، وكان يعلم ذلك، يعلمهم كقذارة بالمني الحرفي للكلمة. ظاهرة تبينها آشر جينسبرج قبل ذلك بخمسين عاما، ومازال الكثيرون من زوار إسرائيل يتبينونها اليرم.

وفى عام ١٩٧٩، أضاف اسحق رابين، نائب آللون آنذاك، دليلا آخر إلى رواية اللاجئين. فقد روى رابين، الذى أصبح فى وقت لاحق رئيسا للأركان ورئيسا للوزراء، فى مذكراته كيف أمر بن جوربون بطرد سكان اللد والرملة :

سرنا إلى الخارج يرافقنا بن جوريون. وكرر آللون سؤاله: ما العمل مع السكان؟ «ولوح بن جوريون بيده فى اشارة تقول» اطردوهم... أن سكان اللد لم يرحلوا طواعية. ولم يكن هناك سبيل لتجنب استخدام القوة وطلقات الانذار من أجل دفع السكان إلى السير مسافة عشرة إلى خمسة عشر ميلا إلى النقطة التى التقوا عندها بالفيلق العربي .

وهكذا بضربة واحدة نسف سياسى إسرائيلى الخرافة الإسرائيلية الرئيسية. وانزعج إسرائيليون آخرون وسارعت لجنة رقابة تابعة لمجلس الوزراء إلى ازالة هذه الفقرة. ولولا مترجم الكتاب الذى سرب الرواية إلى نيوبورك تايمز، فلربما ظل هذا الاعتراف طى الكتمان إلى الابد.

كان هناك، بطبيعة الحال، بعض الإسرائيليين الذين رفضوا قبول الاكذوبة المتعلقة باللاجئين والذين فعلوا كل ما في وسعهم لفضحها. وبعد أن قرأ ناتان تشوفش مقالا للمحاخام مورد خاى كابلان اقتصر على ترديد الرواية الرسمية حول الخروج، كتب إلى صحيفة جويش نيوزليتر (٩ فبراير ١٩٥٩) قائلا :

إذا كان الحاخام كابلان يريد حقا معرفة ماحدث، فاتنا نحن المستوطنين اليهود القدامي في فلسطين اللذين شهدنا القتال يمكننا أن نبين له كيف، وبأى طريقة قمنا نحن، اليهود، باجبار العرب على ترك المدن والقرى التى لم يكونوا يريدون تركها باختيارهم. لقد طرد بعضهم بقوة السلاح، ودفع آخرون إلى الرحيل بالخديعة والكذب والوعود الزائفة. وتكفى الاشارة إلى مدن يافا، واللد، والرملة، وبئر سبع ،وعكا بين مدن أخرى لاحصر لها، لقد جنا وحولنا العرب إلى لاجئين يحيون حياة مأساوية، ومع ذلك

نتجاسر على الافتراء عليهم والتشهير بهم، وتلويث أسمهم، وبدلا من أن نشعر بالخزى الشديد لما اقترفناه، وأن نحاول محو بعض الشر الذى ارتكبناه، نبرر اعمالنا البشعة بل نحاول تمجيدها .

أن العدد الدقيق للاجئين لم يحدد بدقة قط. فتقرير بعثة المسح الاقتصادى التابعة للأم المتحدة في عام ١٩٤٩م، قدر العدد الاجمالي بـ ٧٢٦،٠٠٠ لاجئ، أما مكتب اللاجئين التابع للجنة المساحة الفلسطينية التابعة للأم المتحدة فقد قدر عددهم بـ اللاجئين التابع للجنة. وربما كان الرقم الصحيح بين هلين التقديرين. هكذا بحلول شتاء ٨٩٤٨، عندما انتهى القتال كان حوالي ٥٠٠٠٠٠ فلسطيني قد اصبحوا مشردين، لقد وجد البعض ملاذا لدى اقربائهم في بلدان أخرى، أما معظمهم فيسكن الخيمات في لبنان وسوريا وشرق الأردن، أو في الجزئين الصغيرين الباقيين من وطنهم، قطاع غزة والمنطقة الخلفية للقدس، التي عرفت بعد ذلك باسم الضفة الغربية لنهر الأردن، كانوا يتوقمون أن يظلوا لاجئين لمدة أسابيع، وفي أسوأ الاحوال لمدة أشهر بعدها يسمح لهم بالعودة إلى وطنهم.

والأم المتحدة، التى كانت قد أسهمت اسهاما كبيرا فى قيام إسرائيل، قد طلبت من الصهاينة السماح بعودة اللاجئين. وقد كتب الكونت برنادوت، وسيط الأم المتحدة فى فلسطين، إلى الأمين العام للأم المتحدة: «سوف يكون انتهاكا لأبسط مبادئ العدالة إذا ما حرم ضحايا النزاع هؤلاء من حتى العودة إلى ديارهم بينما يتدفق المهاجرون اليهود على فلسطين ويشكلون فى الواقع خطر أن يحلوا بصفة دائمة محل اللاجئين العرب الذين عاشوا فى الأرض قرونا عديدة، واتفقت الجمعية العامة مع برنادوت وأوصى قرارها الصادر فى ديسمبر ١٩٤٨ بـ «ضرورة السماح للاجئين الراغبين فى العودة إلى ديارهم والعيش فى سلام مع جيرانهم بأن يتمكنوا من ذلك

في أقرب وقت عملي مع دفع تعويضات عن ممتلكات أولئك الذين يؤثرون عدم العودة.

لكن الإسرائيليون اللين قاموا بطرد العرب لم يكن من المكن تصور أنهم سوف يوافقون على عودتهم مرة أخرى. وقد بين موشى شيرتوك وزير الخارجية الجديد، أن الاقتراح كان مستحيلا: فقد كتب إلى برنادوت في أول اغسطس، معلنا أن اعادة دمج العرب العائدين في الحياة العادية بل وحتى مجرد اعاشتهم، سوف يخلق مشكلة لايمكن تذليلها، أما السبب في تعذر تذليلها فليس واضحا، وعلى أي حال، فإن مشروع التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة، والذي زعم القادة الإسرائيليون أنهم قبلوه كان يتضمن أن الدولة اليهودية سوف تضم عددا من السكان العرب يماثل السكان اليهود. وماكتبه شيرتوك، قد جاء بعد ثلاثة أسابيع فقط من طرد السكان من الرملة واللد. وبصرف النظر عن حقيقة أن هاتين المدينتين قد نهبتا، الأمر الذي ربما جعل الحياة غير مريحة بصورة مؤقتة، فقد كان من الممكن تماما للعرب العودة إلى ديارهم ومواصلة حياتهم كما في السابق. وإذا كان اعادة الدمج بعني مجر عودة إلى الوضع السابق، فمن الصعب أن تصور كيف يمكن لذلك أن يشكل معضلة يتعذر تذليلها. لكن الإسرائيليين مضوا في عنادهم ولم يعد العرب. وكررت الجمعية العامة قرارها وكررت إسرائيل رفضها. وفيما بعد قال بن جوريون في الكنيست اأن إسرائيل ترفض رفضا قطعيا الاقتراح الغادر الذي يدعو إلى منح اللاجئين حرية الاختيار، واليوم وبعد اثنين وثلاثين عاما لانزال الامم المتحدة تعيد كل سنة تأكيد ذلك القرار ولا تزال إسرائيل كل سنة تتجاهله .

لقد زعم القادة الإسرائيليون أن الخروج العربي كان غير متوقع تصاما. وكتب بن جوريون في سنة ١٩٥٢ قائلا دأن الصهيونية السابقة لقيام الدولة لم تكن حتى تتصور حدوث مثل هذا الشئ ووصف وايزمان الخروج بأنه « تبسيط معجز لمهمات إسرائيل» ولكن هل كان الخروج بحق معجزة وألم تتصور الصهونية حقا حدوث مثل هذا الشيع؟ ألم يرغب هيرتزل في طرد السكان المفلسين عبر الحدود؟ الم يقترح وايزمان توطين المرب في شرق الاردن؟ ألم يعرف صهاينة عديدون من زانجوبل إلى بيجين دائما انه لابد من طرد العرب؟ كيف إذا كان سيمكن لوزايزمان أن يحقق هدفه في جعل فلسطين يهودية مثلما انجلترا انجليزية؟ كلا أن ١٩٤٨، لم تكن معجزة لم يحلم بها أحد، بل كانت خطوة متممدة ومنطقية في تقدم الصهيونية. وقد اتخذت خطوة أخرى في عام ١٩٦٧م، عندما تم الاستيلاء على المناطق الباقية من فلسطين وأصبحت مناطق أخرى قليلة ونظيفة من العرب. وخلقت مشكلة لاجئين ثانية وكرر التاريخ نفسه. فهل سمح للاجئين بالعودة هذه المرة؟ كلا، كلا، لم يسمح لهم طبما. ومن المؤكد أنك يجب أن تفهم؟ لقد كان من شأنهم أن يمثلوا مشكلة لايمكن تذليلها. أو كما قال دايان بشكل أكثر أمانة للاذاعة المرئية الامريكية عندما سفل عما اذا كانت اسرائل لاتستطيع استعيعاب اللاجئين وسكان الاراضى الذي تم الاستيلاء عليها: وأن ذلك ممكن من الناحية الاقتصادية، لكنني أعتقد أن ذلك لايتمشى مع أهلانا في المستقبل».

الفصل الثانى

المنفيون

استمر الخروج الفلسطينى طيلة صيف ١٩٤٨، المفزع الشديد الحرارة كان بدون قيادة ودون تنظيم، حيث كان طوابير طويلة من الرجال والنساء من كل الأعمال تشق طريقها إلى أقرب ملاذ .

كانوا يحملون أطفالهم الصغار والقليل من المؤن وربما حزمة من الفراش ومفاتيح بيوتهم، فقد كانوا جميعا يعتقدون أنهم سوف يعودون بعد القتال سواء كسب جانبهم أم خسر. ولا تزال أسر عديدة مختفظ بتلك المفاتيح .

لقد ذهب البعض على بعد أميال قليلة فقط داخل الحدود اللبنانية وانتظروا توقف القتال: ومع امتداد الأسابيع وامتداد حاجتهم إلى الغذاء والماء انطلقوا إلى صور وصيدا، ثم ذهب معظمهم إلى بيروت في وقت لاحق. زوتوجه آخرون إلى سوريا، إلى دمشق في العادة، وبقى قليلون في مرتفعات الجولان، وقد حكم عليهم بالعيش على مرأى من ديارهم على الجانب الآخر من بحيرة طبرية. وهربت اعداد ضخمة إلى المناطق غير المحتلة من فلسطين وأن كان الكثيرون منهم قد نقلوا مرتين أو ثلاث مرات قبل أن يسمح لهم بالاستقرار. أما سكان يافا، الذين كانوا قد هربوا من مدينتهم قبل الاستيلاء عليها في شهر مايو، فقد لجأوا إلى اللد والرملة، وفي يوليو طردوا مرة أخرى مع دورة المناسبين من القدس الغربية. وعندما بدا أن الإسرائيليين من القدس الغربية. وعندما بدا أن الإسرائيليين يستعدون للاستيلاء على رام الله إيضا، رحل الكبيرون مرة اخرى وعبروا نهر الاردن. وفي جنوب فلسطين وصل أكشر من ٢٠٠٠٠٠ لاجئ إلى قطاع غزة المكتظ بالسكان.

وهكذا بدأ النفى بكل ما انطوى عليه من بؤس وتشرد والفلسطينى دون سواه هو الذى يستطيع أن يصف ما مر به من يأس وقنوط نتيجة لكونه يعيش بغير دولة وبدون النماء، ومن مهانة أن يكون الاجعا وغريا فى كل بلد يسمح له بزيارته الاحساس بأنه لايمكن أن يكون الاحيث المعاناه، وبأنه يعيش على الاحسان وسوف يطرد اذا ما أساء النصوف، ومن مذلة كونه غريا، ومن حمله على انتظار تصاريح العمل والتأثيرات إلى ملا نهاية لأنه لايملك جواز سفر خاص به، وفوق هذا كله الحنين إلى العودة إلى الورد الولن. لقد وصف فواز تركى، فى كتابة والخرمون، بسخرية لاذعة كيف جرى ترحيله من لندن قبل أن يغادر المطار، وهو يحمل ورقة تعتبره ومشكوكا فى جنسيته، ومن ثم لايجوز السماح له وبدخول نملكة صاحبة الجلالة، وقد أضاف وأن نملكة صاحبة الجلالة لم تكن بحاجة إلى تصريح عندما دخلت بلادى وجردتنى من جنسيتى،

لقد أصبح الفلسطينيون أمة من الهائمين اللين بجولوا دون استقرار في ربوع العالم العربي وخارجه، يواجههم بشكل متعاقب الشك والتجاهل، ويبحثون دون جدوى عن سبيل لاشباع احساسهم القوى بالشخصية المتميزة. وقد حاول ثيو كنعان اعادة خلق فن القدس المعمارى في لبنان. وظل جيرا أجيرا سنوات عديدة يكتب من منفاه في بغداد قصصا قصيرة عن بيت لحم والقدس، ليتجه في وقت لاحق إلى الروايات، ويكتب دون توقف عن محنة المنفى الفلسطيني في العالم العربي، ومات توفيق صايغ في كاليفورنيا وموضوع النفي يسيطر على الشعر الذي كرس له حياته.

وربما كان متأصلا فى دورهم أن يقضى المثقفون بقية حياتهم هائمين فى أرجاء العالم، باحثين عن شىء لن يجدونه أبدا، ولقد كان بحثا محكوما عليه بالفشل دائما، لأن أحد منهم لم يكن قادرا على التخلص من هويته وإكتساب هوية شعب آخر. ورحل وليد الخالدى، الذى عاشت عائلته فى القدم لأكثر من الف سنة، إلى لندن وأصبح مدرسا فى اكسفورد. لقد كان يتحدث اللغة الانجليزية ويكتبها على نحو أفضل من معظم الأكاديميين البريطانيين لكنه ظل فلسطينيا عربيا. وعندما تواطأت بريطانيا مع الإسرائيليين فى غزو السويس فى عام ١٩٥٦، استقال من منصبه ورحل إلى بيروت.

ولعل الامر كان اسهل بالنسبة إلى رجال الاعمال والتجار، كان حنينهم إلى فلسطين، ولا شك، قويا وعاطفيا كحنين المثقفين، بيد أنهم لم يكونوا يبحثون عن دور، إذ كان لهم دور بالفعل حين أتاحت الأهمية المتزايدة للنفط والتوسع الاقتصادي للعالم العربي فرصا غير متوقعة للطبقات التجارية والمهنية الفلسطينية. وقد شارك أكثرهم في الازدهار العظيم في بيروت التي أصبحت في الخمسينات، بعد انهيار الاسكندرية والاستيلاء على حيفا، أعظم ميناء في شرقي البحر المتوسط. وبرز الفلسطينيون في دنيا المصارف والتجارة اللبنانيية وتمكن قليل منهم من الاندماج في المجتمع اللبناني. فاشتغلوا بالأعمال التجارية وأنشأوا المصارف وأقاموا شركات الانشاءات الخاصة بهم. ويعتبر فؤاد السيد مثالا حسنا لرجل الاعمال الفلسطيني الذي تمكن من بناء حياة ثانية في بيروت. ففي عام ١٩٤٨، غادر يافا مع أسرته الناشئة للإقامة مع أقارب زوجته في لبنان، وقد توقع أن يعود إلى بلاده في غضون اسبوعين، حيث يرجع إلى بيت الأسرة العتيق المحاط ببيارات البرتقال. لكن لم يسمح له بالعودة والى اليوم، بعد اثنين وثلاثين عاما، لم يربيته القديم. وقد خسر في الكارثة كل ما كان يملك باستثناء محتويات حقيبتين. كانت الأسرة قد استقرت في بيروت وأخذ ببطء يقوم بمشروع للإستيراد. وبالعمل الشاق أصبح شخصية ثرية ومرموقة للغاية في بيروت. وفي الوقت نفسه، أصبحت زوجته واحدة من أبرز نساء لبنان الحديث، لقد عملت مع الصليب الأحمر، والجامعة الأمريكية، كما أشرفت على مهرجان بعلبك الدولي وقدم لها السفير البريطاني وسام الإستحقاق وأصبحت عائلة فؤاد السيد، من كافة الوجوه أسرة لبنانية ومع ذلك لم ينسوا قط أن بيتهم كان في فلسطين. وفؤاد السيد شأنه شأن الكثيرين من الفلسطينيين، لديه نزعة قوية تدعو إلى العجب باتت حاجة ملحة وهاجسا في آن واحد هي أن يتحدث عن وطنه. وأن يصف باستفاضة جمال يافا وبيارات برتقالها كما أنه، مثل آخرين كثيرين، يتحدث دائما عن يافا كما لو أنها لا تزال ميناء الأربعينات القديم الساحر وليس ما صار اليه من مكان يدعو إلى الخجل حيث تحول إلى ضاحية مهجورة ومهملة من ضواحى تل أبيب، استؤصلت بيارات برتقالها وملت بالأسمنت .

ومع ذلك كانت كل هذه الجماعات من مثقفين ورجال أعمال ومهنيين هى واقع الأمر الجماعات المحظوظة. فكان لديها ما تستطيع أن تقدمه من مهارات كما كانت قادرة على أن تعود نفسها، وعلى أية حال كان بوسعها أن تختار مكان نفيها الأمر الذى حرم منه أربعة أخماس الفلسطينيين الذين كانوا يشكلون العمود الفقرى اللمجتمع الفلسطيني – الفلاحون ومن يعولونهم والعمال غير المهرة. الفلاحون الذين طروا من أرضهم وأصبحوا يحيون في مدن الاكواخ في حيفا. لم يكن لدى هؤلاء ما يستطيعون تقديمه للبلدان المضيفة التي كان لديها ما يكفى من العمال الزراعيين والعمال غير المهرة الخليين. وهكذا عندما بدا واضحا أنه لن تكون هناك عودة سريعة إلى مخيمات اللاجئين حيث بقى معظمهم.

وقد أقيمت المخيمات على أى أرض متاحة، مساعدة وكالة الام المتحدة لغوث وتشفيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى، وتجمعت مخيمات عديدة حول المدن الكبرى عمان، بيروت، ودمشق حيث قد تتاح لهم فرصة للمثور على عمل. وفى الأردن أقيم بعضها في الصحراء، وفي بلدان أخرى، على أرض وعرة جرداء أو على مجمعات قديمة كانت الجيوش الفرنسية والبريطانية استخدمتها في وقت من الأوقات. وفى البداية، سيق اللاجتون إلى ثكنات، حيث كانت أسر عديدة تسكن فى غرفة واحدة. أو تخشر فى خيام تبرع بها العمليب الأحمر وهيئات مماثلة. ويتذكر العليم ذلك الستاء الرهيب فى عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩، أنه رأى اثنى عشر شخصا رؤوسهم فى المستاء الرهيب فى المطر خارجها. وبعد أربع سنوات كانت غالبية لاجئى المخيمات لاتزال تميش فى المخيام. لقد كانت الاحوال فى تلك الاماكن دون استثناء، مقززة، وفى عام ١٩٥٥، قارنها حاخام أميركى بمخيمات اللاجئين اليهود فى المانيا، واعتبرها أسوأ من الأخيرة، وكانت حصص الغداء بائسة، فهى كما وصفها تقرير لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين تكفى لتجنب الموت جوعا أو أكثر بقليل دولم تكن لا وسائل صحية تذكر إذا لم تكن هناك شبكة صوف صحى ولاخدمات طبية أولية ووققا لاحصاءات وكالة غوث وتشغيل اللاجئين بلغ معدل وفيات الأطفال فى مخيم تلذية خارج رام الله ١٧٢ من كل ١٠٠٠ رضيع فى ١٩٥٤ - ١٩٥٥.

ويعد مخيم قلندية أحسن حالا اليوم، فقد أزيلت الخيام وكذلك المراحيض العامة. فتدريجيا خلال الخمسينات، انتشرت أكواخ وكالة غوث وتشغيل اللاجئين في ربوع الخيمات. وأحجام هذه الاكواخ بالأمتار ٣× ٣٥٣ بعد بعث يمكن للاجمين بالإضافة إلى بضعة أمتار مربعة تتألف منها وحظيرة، خلفية، حيث يمكن للاجمين تربية الماعز أو عدد قليل من اللجاج، أو حتى بناء غرفة أخرى. وبمرور السنين أدخلت تحسينات اضافية – فمعظم الخيمات بها كهرباء ومياه نقية عند نقاط المياء العامة لكنها لا تقلل كثيرا من التعاسة واليأس. هذا فضلا عن أنه نتيجة لممعلل الانتاج المرتفع، أصبح العديد من الخيمات مكتظا بالسكان على نحو خطيز: فمخيم الكم، الذي خصصته وكالة غوث وتشغيل اللاجئين لـ ٥٠٠، شخص أصبح يضم الكر، الذي خصصة في عام ١٩٧٥. وفي الخيم المتواجد عند الدهيشة، في منتصف الطريق بين بين بد يد لحم والخليل، توجد أسر عديدة بكل منها اثنى عشر طفلا ؟بل هناك

أسر بها سبعة عشر طفلا، وحتى أسر بهذا الحجم ينتظر منها أن تعيش في كوخ وكالة غرث وتشغيل اللاجئين. ولايمكن لأى انسان حدث أن زار مخيم فلسطيني أن ينسى ما رآه أو اليأس الذي آحس بوجوده: فهناك الحظائر الحقيرة، بأسقفها المصنوعة من السفيح أو الحديد المثبت بالأحجار لمنعه من السقوط، والجدران المصنوعة من علب البنزين، والنباتات القليلة التي تنصو في الصفائح الصدئة وسحب الذباب، والرائحة الكربهة الصادرة عن الحيوانات والبراز، والطوابير الطويلة من النساء المصطفات للحصول على الارز أو الكيروسين أو كيلوات قليلة من الدقيق، وفوق كل شيئ الوجوه، وجوه النساء المكدودة، والخالية من التعبير، بعد أن انهتها سنوات من حمل الماء والاحمال النساء المكار القلرة، ذوى العيون الواسعة ووجوه الرجال الذين يتدافعون في حزن دون أن ينبئوا ببنت شفه .

ويقع مخيم ويفل في وادى البقاع في لبنان بالقرب من المعابد الرومانية العظيمة في بعلبك. لقد كان تكنات جيش قديمة تخيط بها حظائر اللاجئين، وهي مكان مهمل ومقفر، ولم يطرأ مخسن يذكر على أحوال نزلائه منذ عام ١٩٤٨. ففي عام ١٩٧٥، كان لايزال المبنى والمراحيض بدون أبواب وكان السقف يسرب المياه من أماكن عديدة، وكانت الغرف الضيقة قد قسمت بكتل من الاسمنت وبقطع من الرق المقوى، وفي كل غرفة تعيش أسرة بصرف النظر عن عدد افرادها. وفي بعض الحالات كان الناس يحشرون معا في نفس الغرفة لمدة حمسة عشر يوما. وكانوا يحصلون على حصص أسامية من الدقيق والسكر والارز والسمن ولاشيع غير ذلك .

وكان الاطفال يعانون من سوء التغذية كما كان كثيرون منهم يعانون من الانفلونزا، ولم يكن في المخيم مكان للعب، أما بالنسبة للرجال فلم يجدوا عملا سواء هناك أو في بعلبك، وكان الذهاب إلى أى مدينة كبيرة رحلة طويلة شاقة .

أن حياة اللاجئين تعنى، أولا وقبل كل شيع؛ المهانة، تعنى أنه يتعين على المزارعين الذين كانوا ذات يوم يفلحون أراضيهم الخاصة أن يختاروا بين البطالة وبيع أوراق اليانعيب، وعلى النشاء الانتظار في الطوابير من أجل حفنات من الأرز والسكر، أنها تعنى أن يقف الأطفال حفاة على طول طريق المطار في بيروت، يحاولون بيع اللبان السائقي السيارات وتعنى الخوف وعدم الأمان، أنها تعنى كذلك الاذلال الشديد الدائم من جراء التدخل المستمر من جانب قوه شرطة بلد آخر، انها تعنى التمرض لسخرية واستهزاء السكان المحليين، الذين لن يسمحوا للاجئين بنسبان أنهم غرباء، ويتذكر فواز تركى احد مهرجى الشوارع في بيروت وهو يطلب من قرده أن يبين لجمهور المتفرجين كف يلتقط الفلسطيني حصته من الغذاء، ويتذكر آخر من سكان الخيمات الأطفال كيف يلتقط الفلسطيني حصته من الغذاء، ويتذكر آخر من سكان الخيمات الأطفال اللبنانيين الهازئين الذين طلبوا منه أن يربهم ذيله، أما سكان جنوبي لبنان، الذين كانوا الحواق قرب صيدا اسم «حديقة الحيوان».

ولعل أبرز سمة محطمة للمعنوبات لحياة المخيم هي عدم توفر فرص العمل. وكثيرا ما يقال أن البلدان الضيفة كان يمكنها بل ومن واجبها أن تبدل جهدا أكبر لتوفير العمل للاجئين. لكن فلسطيني المخيمات يتألفون أساسا من مزارعين أو عمال غير مهرة وصلوا إلى الأردن، وسوريا، ولبنان عندما كان سكان هذه البلدان قد أخذوا يتركون الأرض فعلا بأعداد ضخمة ويبحثون عن عمل في المدن. لقد زاد عدد سكان بيروت عشرة أضعاف منذ الثلاثينات، ويحلول عام ١٩٧٠، كانت المدينة واحدة من بيروت عشرة أضعاف منذ الثلاثينات، ويحلول عام وكانت تضم حوالي نصف سكان الملاد، كان ذلك أساسا نتيجة الكساد الزراعي في الخمسينات والستينات الذي دفع عثرات الآلاف من صغار الفلاحين إلى البحث عن عملاً يسير في العاصمة .

ولايختلف الوضع فى سوريا عن ذلك، ولقد دعا الكثيرون فى الغرب أمثال والترلاكور، مدير معهد التاريخ المعاصر فى لندن، إلى اعادة توطين الفلسطينيين فى المناطق القليلة السكان فى سوريا حيث يمكنهم بدء الإشتغال بالزراعة من جديد. لكن يبدو وأنهم ليسوا على دراية بحقيقة أن سوريا عاجزة عن مواجهة سكانها الريفيين .

أن سكان دمشق أكثر من مليونين ويتزايدون، ذلك أن مثات العمال الزراعيين الماجزين عن أن يجدوا عملا في الريف أو في مدن الاقاليم، يفدون إلى هناك كل اسبوع .

لقد كان طبيعيا في مثل هذه الظروف أن يتعذر على اللاجئين مواصلة العمل في الأرض. وأفضل ما كان بوسعهم أن يأملوا فيه هو العمل غير الماهر في أعمال البناء، وهو القطاع الأكثر توسعا في الاقتصاد اللبنائي حتى عام ١٩٧٥، وحتى هذا العمل لم يكن متوفرا بصورة مرضية، اذ كلما كان الكثيرون من اللاجئين عاجزين عن الحصول على تصريح عمل شعر أرباب العمل أن من حقهم دفع أجور منخفضة، وإلى جانب ذلك، فإن أكثر من ثلاثة أرباع اللاجئين الذين يستخدمهم أشخاص أخرون كانوا يعاملون على أساس الأجر اليومي وكان بالامكان فصلهم دون سابق اندار. وبالنسبة إلى الذين لم يستطيعوا العمل حرفيين، أو أصحاب حوانيت داخل الخيم، فإن النوع الآخر الوحيد من الأعمال الذي كان يمكن للاجئ غير المتعلم أن يصبوا اليه بصورة واقعية هو العمل كفير ليل أو بواب أو بائع فاكهة وخضروات على عربة يد .

وهناك شيئ آخر يعجز دعاة اعادة التوطين عن تقديره، ألا وهو معارضة الفلسطينيين أنفسهم لكل المخططات الرامية إلى توطينهم بصفة دائمة خارج فلسطين. فاللاجثون لايريدون التوجه إلى أى مكان آخر غير وطنهم. وهو فخورون بهذه الحقيقة: وكثيرا ما يزعمون أنهم أول لاجثين في التاريخ يرفضون قبول وضع اللاجئين واعادة التوطين ويبدو أن هذا شيع يعجز الأمريكيون والأوربيون عن فهمه، فهم يقولون أن على اللاجئين الآن بعد النين وثلاثين عاما أن يضعوا حدا لضياعهم ويذهبوا إلى شمال سوريا، أو إلى المراق ليبدأوا الحياة من جديد، فكل من يقول ذلك ربما لم يلتق قط بلاجئ ومن المؤكد أنه لم يقابل لاجئا يعيش في مخيم. فالفلسطيني لايتصور أنه يذهب إلى أى مكان غير الوطن، كما أن فكرة العودة هي الشئ الرئيسي الذي ظل يحلم به ويفكر فيه. ويتحدث عنه أكثر من ثلاثة عقود، وهو يعترف بأنه شخصيا قد لايرى العودة ولهذا السبب يوصى أطفاله واحفاده بأن يعيدوا دفن رفاته في فلسطين. وهذا هو السبب في أن الطفل الفلسطيني، الذي لم ير فلسطين قط يعرف كل شيئ عن قربته أو مدينته. اذهب إلى مخيم قلندية واسأل الأطفال الذين لاتزيد أعمارهم عن عن قربته أو مدينته. اذهب إلى مخيم قلندية واسأل الأطفال الذين لاتزيد أعمارهم عن خمسة أعوام: من أين هم وسوف يجيبونك بأنهم ومن اللده ،أو والرملة»، أو أى قرية من قرى الساحل. انهم لم يروا اللد أو الرملة قط لكنهم قد قبل لهم منذ ولادتهم عما طول الطريق المؤدى إلى رلم الله .

97

وفى عام ١٩٥٤ قال جون فوستر دالاس لجمهور من المستمعين فى الجامعة الأمريكية فى بيروت أن المشكلة الفلسطينية سوف شخل عندما يحل محل جيل المنفيين أبناؤهم لأنهم سوف لايشعرون بارتباط بوطنهم، ربما كان يعتقد أن ذلك صحيح، ومما لاشك فيه أنه مثل الإسرائيليين كان يأمل فى أن يكون ذلك صحيحا. لكننا الآن أمام جيل ثالث من اللاجئين ولاينكر مراقب أمين دقيق أن ارتباط الفلسطينيين بأرضهم قد ازداد قوة خلال سنوات النفى. وكما يشيرون هم أنفسهم، فانه إذا كانت فلسطين تعنى الكثير بالنسبة إلى يهود الشتات الذين لم يروها طيلة ٢٠٠٠ سنة، فما الذى يمكن أن تعنيه بالنسبة لشعب يتذكرها فعلا؟

وفى داخل الخيمات يتم تنظيم اللاجئين وفقا للمكان الذى قدموا منه فى فلسطين. فالأسر التى كانت متجاورة في إحدى قرى الجليل أصبحت متجاورة فيما بعد فى المخيمات اللبنانية. وهناك يمكنهم مواصلة التحدث بنفس اللهجة، وطهى نفس الاكلات والقيام بنفس أشغال التطريز. لقد حافظوا بئدة على ثقافتهم ولم يقدموا أى تنازلات لأى ثقافة أخرى. وهذا هو السبب فى أن الاحساس بالشخصية الفلسطينية يقوى إلى هذا الحد كما أن هذا هو سبب رفضهم تخليهم عن وطنهم واعادة توطينهم فى سوريا أو أى مكان آخر .

كانت اعادة التوطين أحد مشروعات وكالة غوث وتشغيل اللاجئين المبكرة. وكانت أنبل الدوافع هي التي تخرك مسئولي الوكالة فقد رأوا حياة الشقاء التي كان الناس يحيونها، وأرادوا مخسينها وإخراجهم من الأحياء الفقيرة القلارة المقززة حيث كانوا يحيون واتاحة الفرصة لهم لكي يبدأوا حياة جديدة، ورد الفلسطينيون غاضبين واتهموا وكالة غوث وتشغيل اللاجئين بمحاولة اضعاف عزيمتهم وجعلهم ينسون فلسطين، كما اتهموا الوكالة بالتواطؤ مع الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل ومحاولة وانتظار المودة إلى الوطن. فما كان من وكالة غوث وتشغيل اللاجئين أن تخلت عن وانتظار المودة إلى الوطن. فما كان من وكالة غوث وتشغيل اللاجئين أن تخلت عن المشروع لكنها واجهت المشكلات في مجالات أخرى. ففي احدى المناسبات، قررت المؤسجار. فما كان من وخالة خارج بيروت لفرس عدد قليل من الإشجار. فما كان من أطفال الخيم إلا أن اقتلعوا جميع الأشجار وحطموها في اليوم التالي، أنهم لم يريدوا أشجارا في الخيم لأن الاشجار كانت تعنى البقاء الدائم في حين أن وجودهم هناك كما يقولون، مؤقت، لأنهم سرعان ما يعودون إلى الوطن.

لقد شب جيل لم يعرف غير حياة الخيمات، وولد جيل آخر. أن أكثر من نصف

اللاجئين تحت سن الثامنة عشر، تربوا في هذا المناخ وترعرعوا على كراهية أولفك الذين أرغموهم على مثل هذا النوع من الحياة، والتعليم هو أفضل طريق للافلات وحركة المقاومة هي الطريق الآخر- ويدرك آباؤهم ذلك. فالتعليم الناجع يعنى وظيفة الائقة وأجورا محترمة وتأمينا عاليا للأسرة كلها. كما أنه لاينطوى على اعادة الاستيطان الدائم خارج فلسطين. هذا من ناحية هو سبب في كثرة أبناء اللاجئين: فهم يررون ذلك بالقول أن أحدهم أما أنه سوف يحصل على منحة دراسية من وكالة غوث وتشغيل اللاجئين أو سوف يجد فرصة في أحد مراكز التدريب المهنى. وهذا يعنى وظيفة في الخليج أو العربية السعودية ويخويلات مائية إلى آبائهم الذين سوف تصبح حياتهم أكثر راحة نسبيا وهم يتنظرون العودة.

وادراكا منها لضرورة أن يحصل الفلسطينيون على عمل أينما وجدوا قررت وكالة غوث وتشفيل اللاجئين جعل التعليم في مقدمة أولوياتها .

وتشرف الوكالة على التعليم الابتدائى والمرحلة الثانوية الدنيا كما أنها تدعم المرحلة الثانوية العليا في المدارس الحكومية الخاصة، وتساهم بعدد من المنح الدراسية الجامعية كل سنة. ولعل أهم جانب لعمل وكالة غوث وتشغيل اللاجئين هو البرامج الدراسية التي تشرف عليها في مراكز التدريب المهنى في الأردن ولبنان وسوريا والضفة الغربية. وبعد عام ١٩٤٨، عتملت حكومات سوريا والأردن الكثير من أعباء تعليم اللاجئين، لكن في لبنان، الذي قرر الحفاظ على وضع الفلسطينيين كغرباء لم يسمح للاجئين بالالتحاق بمدارس الدولة. وهكذا كان على وكالة غوث وتشغيل اللاجئين أن تعلمهم بنفسها بالكامل، وكتتيجة لذلك، أصبحت مدارسها في لبنان مكتظة وأصبحت مستويات التعليم أضعف منها في البلدان الأخرى. أما فيما يتعلق بالتعليم الجامعي، فكانت سوريا والأردن ومصر هي البلدان المفتوحة أكثر من غيرها امام الطلبة

الفلسطينيين وهناك الآن حوالي ٤٠,٠٠٠ فلسطيني يدرسون في جامعات في مختلف أرجاء العالم. وبينما يوجد معظمهم في مصر والأردن، فان حوالي ١٥,٠٠٠ يدرسون في جامعات في الغرب وينخرط هؤلاء الاخيرين في الدراسات المتخصصة، كعلم الكومبيوتر والميكروبيولوجي التي ليست متاحة بعد في العالم العربي .

وتقدم مختلف برامج وكالة غوث وتشغيل اللاجئين التدريبية دورات دراسية مكثفة في المجالات العملية التي يشتد عليها الاقبال. ويتقدم لمركز التدريب المهني في دمشق الفي لاجع للحصول سنويا على ٢٥٠ مكانا. وتركز هذه المراكز على اعداد طلابها بحيث يتسنى لهم فيما بعد المثور على أعمال ومكذا فإن مركز التدريب المهني في قلندية يقوم بدورات دراسية تستمر عامين في اللحام والسمكرة ومعدات الآلات وميكانيكا السيارات ونشاطات اخرى يمكن ان توفر لهم عملا في الخليج وفي أمكن أخرى، وقرب قلنديه مركز تدريب النساء في رام الله، يجرى تدريب الطالبات لكي تصبحن عمرضات، وعاملات صيدليات وحائكات ملابس، وسكرتيرات، وهنا ايضا ينصب التركيز على المهارات العملية النافعة التي من شأنها أن تجمل المنفي أكثر احتمالا .

ووفقا لما يذكره مدير معهد التدريب المهنى فى دمشق فإن حوالى ثلثى طلابه يذهبون إلى دول الخليج، وبجد الثلث الباقى عملا فى سوريا وينضم نفر قليل منهم إلى المقاومة. ويشير إلى أن أفضل طلابه يجيئون دائما من المخيمات. لقد منحهم وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفرصة للهروب وقليلون هم الذين يضيعونها .

لقد برز الفلسطينيون خلال سنوات المنفى بوصفهم افضل جميع الشعوب العربية تعليما فسبة الطلبة الجامعيين بينهم أعلى منها في بريطانيا أو فرنسا .

هكذا كان التعليم هو الشيئ الوحيد الذي ترك لهم، والسبيل الوحيد الذي

يمكنهم من أن يثبتوا للشعوب التى تملك أوطانا أنها ليست أفضل من الفلسطينيين. ومن ثم تمسكوا به، كشارة افتخار وكذلك كاستثمار من أجل المستقبل، ولم يدعوا تلك الفرصة تفوتهم ويتولى الفلسطينيون الآن مواقع أكاديمية بارزة في جميع الشرق الأوسط وفي الغرب كذلك، وقد وصفهم آرنولد توينيي ذات مرة بأنهم من رواد العالم العربي غير المعترف بهم اوقارن طردهم من بلادهم بطرد اليونانيين من بيزنطة في عام 1808.

لقد تباينت إلى حد كبير فرص العمل بالنسبة للاجئين في كل من البلدان المضيفة الثلاثة. فشرق الأردن، الذي استوعب القدس الشرقية والضفة الغربية وأصبح يعرف بالأردن، انهى حرب ١٩٤٨، وبه أغلبية فلسطينية. وأصبح الفلسطينيون، من لاجئين وسكان الضفة الغربية على حد سواء، مواطنين في المملكة الهاشمية وسرعان ما بدأوا في المشاركة في حكم البلاد وتجدد التحالف بين الملك عبد الله وعائلة النشاشيبي وأصبح معظم الأعيان الفلسطينيين مؤيدين للنظام ومع أنه كان هنالك عادة توتر بين اللاجئين وأنصار الملك البدو، فإن أعدادا ضخمة من الفلسطينيين وجدت عملا في الأردن وانضم بعضها إلى الجيش والخدمة المدنية، أن عمان، التي كانت عربة كبيرة في عام ١٩٤٨، قد بناها وسكنها الفلسطينيون وحدهم تقريبا.

ولم يعط اللاجثون حق المواطنة لا في سوريا ولا في لبنان، وأن كان قد سمح لهم في سوريا بالانخراط في صفوف الجيش ودخول الخدمة الحكومية. إن الفلسطينيين الذين يبلغ عددهم في سوريا الآن نحو ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ربما كان لثهم لاجئين من الحربين الأهليتين الأردنية واللبنانية، يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها السوريون فيما عدا انهم لا يملكون جواز سفر. وتنطبق عليهم نفس القوانين وتتاح لهم نفس الفرص ولا يحتاجون إلى تصاريح عمل. أما في لبنان فالوضع دائما

أسواً حيث لا يعتبر الفلسطينيين رعايا وعليهم أن يحصلوا على تصاريح عمل لا تمنح في غالب الاحيان، ويحظر عليهم دخول الجيش أو الحكومة. ومع ذلك فمن الغريب أن تكون بيروت هي المدينة التي كان الفلسطينيون أكثر نجاحا فيها. لقد كانت المدينة الرحيدة في العالم العربي التي سمحت بحرية غير مقيدة للتعبير، ومن ثم أصبحت العاصمة الثقافية للمنطقة. لتجمع الأكاديميون الفلسطينيون هناك حيث عمل الكثيرون منهم كعلماء سياسيون، واقتصاديين، ومؤرخين في الجامعة الأمريكية، وأنشئت أجهزة مثل معهد الدراسات الفلسطينية ومركز الأبحاث الفلسطينية والرابطة اللبنانية للاعلام حول فلسطين. وفي عالم الأعمال حقق عدد من الفلسطينيين نجاحا بارزا في التشييد والمصارف، فمصرفان من أحسن المصارف التي عملت من لبنان؛ المصرف العربي، ومصرف انترا قد أسسهما ودارهما فلسطينيون. والأهم من ذلك كله، المسرف العربي، ومصرف انترا قد أسسهما ودارهما فلسطينيون. والأهم من ذلك كله،

ومع ذلك كان حتميا أن تكون فرص العمل في البلدان المضيفة محدودة، ومنذ البداية أخد الفلسطينيون يبحثون عن عمل في أماكن أخرى ولعل ٢٠,٠٠٠ فلسطيني هاجروا إلى الغرب، حيث ذهب العدد الأكبر إلى الولايات المتحدة وذهب معظم البقية إلى بريطانيا أو استراليا أو كندا أو البرازيل. ويحيا عدة مئات من أهالى مدينة بيت جالا في أمريكا اللاتينية موزعين بين شيلى وبوليفيا وبيرو واكوادور وهوندوراس ونيكاراجوا.

أن لبيت لحم وفقا لما ذكره عمدتها أكثر من مائة خربج يحملون شهادات المدكتوراه وبعملون في الغرب في المهن أو الدكتوراه وبعملون في الولايات المتحدة. وبعمل الفلسطينيون في الغرب في المهن أو كأحادميين. لكن أعداد أكبر بكثير ذهبت إلى أجزاء أخرى من العالم العربي، إلى الخليج عادة. وإذا كانت بيروت المركز السيامي والثقافي للشتات، فإن الكويت قاعدته التجارية. وقد بدأ الفلسطينيون يصلون إلى الكويت عقب حرب ١٩٤٨ مباشرة في

الوقت المناسب للمشاركة في الازدهار النفطي العظيم. وقد حدد آخر احصاء للسكان نشر في عام ١٩٧٥، عددهم ٢٠٤،٠٠٠ فلسطيني وزيد عددهم الأن من ربع مليون نسمة، ولما كانوا يشكلون عشرين بالمائة من السكان فانهم يشكلون بما لايقاس أكبر جالية غير كويتية، ويعترف الكويتيون أنفسهم بالدور البالغ الذي لعبه الفلسطينيون في بناء الدولة .

ومع أن حفتة فقط هى التى منحت الجنسية الكويتية، فإن معظم الفلسطينيين قد ذهبوا إلى هناك بجواز سفر اردنى أو جواز مرور سورى أو لبنانى، على أمل البقاء هناك على الاقل حتى يتقرر مستقبلهم كشعب. وعلى النقيض من رفقائهم من دول الشرق فإن الفلسطينيين فى الكويت فى معظمهم مزدهرون (حيث يتألف العمال البدويون فى الكويت من المصريين والايرانيين أو الباكستانيين أو الكوريين). فاكثر من نصفهم يعملون فى قطاع الاستثمار الخاص، عادة فى مشاركة مع الكويتيين ويسيطرون على مسروعات ضخمة كشركة المقاولين المتحدين التى تعمل الآن فى بلاد بعيدة كموريتانيا والسودان الا ان هناك ٢١,٠٠٠ فلسطينى فى الخدمة المدنية ويتجاوز عدهم فى المهن التعليمية والطبية عدد الرعايا الكويتين افهم لايصبحون وزراء ولا رشاء ادارات، لكن الفلسطينيون هم فى الغالب العقول الانشط سواء فى الحكومة أو فى الاعمال التجارية، ومع ذلك فإن الجالية الفلسطينية ليست محل ترحيب كامل من فى الاعمال التجارية، ومع ذلك فإن الجالية الفلسطينية ليست محل ترحيب كامل من جانب الكويتيين وذلك بسبب سياساتها التقدمية عادة. كما انها تعانى من قدر معين جانب الكويتيين وذلك بسبب سياساتها التقدمية عادة. كما انها تعانى من قدر معين الكويتيين اضطرت الحكومة إلى أن تصدر تشريعا يعطى الاولوية لتشغيل رعاياها فى مختلف المجالات.

وازداد عدد الجاليات الفلسطينية في كل بلدان الخليج العربية باستناء عمان

التي تستبعدهم. واكبر هذه الجاليات وأسرعها نموا في الامارات العربية المتحدة، ويعتقد أن حوالي ٢٠,٠٠٠ فلسطيني يعيشون في أبوظبي وديي، رغم أن الحكومة ترفض تقسيم سكانها البالغ عددهم ٨٢٦,٠٠٠ نسمة تبعا للمواطن الاصلي. وهي من الناحية الاجتماعية شبيهة بالجالية الموجودة في الكويت: أطباء، وكتبة، ومقاولون، وعمال مهرة كالكهربائيين والميكانيكيين وما اليهم، وكثيرون منهم من كبار الموظفين (أن لم يكونو الاكبر) ابدا في الوزارات والسفارات في الخارج. وبصورة أكبر مما في الكويت فانهم يطغون على السكان الاصليين والتمايز بينهم ملحوظ. فالفلسطينيون بيض البشرة ويرتدون الملابس الغربية، كما أنهم اسرع حركة ويتحدثون بلهجة عربية تختلف عن لغة سكان شبه الجزيرة العربية السمر البشرة بملابسهم الفضفاضة الناصعة البياض. ويشعر الفلسطينيين انهم موضع استياء، وهذا ممكن عاما، إذ أن هناك نوعا من العلاقة الاستعمارية بينهم وبين مضيفيهم ومع ذلك فلم يواجهوا قط في الخليج نوع المشاكل التي كان عليهم مواجهته في الأردن أو لبنان والمرة الوحيدة التي تعرض فيها الفلسطينيون لنوع من أنواع الضغط البوليسي كان في ابوظبي في عام ١٩٧٧، عندما قتل مسلح فلسطيني وكيل وزارة خارجية الامارات العربية المتحدة، ربما عن طريق الخطا، فيكاد يكون من المؤكد أن الهدف الحقيقي كان وزير الخارجية السورى، عبد الحليم خدام، الذي كان إلى جواره .

والواقع أن كثيرين من الفلسطينيين ثمن يعيشون في الخليج واسعوا الثراء. ولاتوجد ضريبة على الدخل في تلك البلاد ويكسب بعض رجال الاعمال ١٠٠,٠٠٠ جنيه استرايني سنويا، إلا أن تلك المعادلة المشكوك فيها والتي تلعب دورا عظيما في السياسة الخارجية الامريكية وهي كلما تزايدت الثروة المادية كما ضعفت الروح القومية لاتنطبق هنا. فلا يزال رجال الاعمال هؤلاء يشعرون بجاذبية وطنهم ويعشون بالمساهمات إلى الصندوق القومي الفلسطيني أو الهلال الاحمر الفلسطيني وبعضهم

أعضاء في المجلس الوطنى الفلسطينى (وهو نوع من البرلمان في المنفى). وهم يدركون بصورة جنونية اتهم بلا دولة ويتوقون إلى بلد ينتمون إليه وحتى إذا ما واصلوا العيش في أبوظبى أو قطر أو البحرين، فانهم سوف يظلون بحاجة إلى مكان يمكنهم الارتباط به. أن ارتباطهم يوطنهم لازال على ما كان عليه من قوة ويظهرون ذلك بالطريقة التي يربون بها اطفالهم الذين يعرفون، شانهم شأن الأطفال الفلسطينيين في كل الشتات، من أين جاؤا في فلسطين وبلتحق الكثيرون منهم في الكويت بمدارس تشرف عليها منظمة التحرير الفلسطينية .

وهذا الشعور بالارتباط— وهو شعور يتعذر استئصاله بالدرجة التى فشلت معها كل المحاولات الرامية إلى اعادة التوطين— يصعب على غير الفلسطنيين وصفه وربما لايمكن فهمه فعليا الا عند الاستماع إلى فلسطيني وهو يتحدث عن وطنه. أن عبد الله هامان هو الآن مسئول وكالة غوث وتشغيل اللاجئين عن منطقة االخليل فى الضفة الغربية. وقبل عام ١٩٤٨، كان يعيش فى مساحة كبيرة من بيارات البرتقال قرب بافا، فبعدما طرد من بيته فى أولى عمليات خطة داليت، أصبح مواطنا أردنيا واقام فى الخليل. وفى عام ١٩٦٧، اكتسح الإسرائيليون داره الثانية، فى عملية فتحت الحدود الخيل. وفى عام ١٩٦٧، اكتسح الإسرائيليون داره الثانية، فى عملية فتحت الحدود التى كانت تفصله عن قريته القديمة. وبعد ذلك مباشرة ، وبذلك الدافع الالزامى المشترك بين عليلين من الفلسطينيين قام برحلة إلى بلده السابق. كانت داره مع تلك التى لاقاربه قد دمرت منذ وقت طوبل لكن بيارات الحمضيات كانت ماتزال هناك عندما ترجع إلى موطن طفولتك، وترى بساتين برتقالك كما تتذكرها وهى محملة عندما ترجع إلى موطن طفولتك، وترى بساتين برتقالك كما تتذكرها وهى محملة بالثمار الناضجة، كما لاتدرك عذاب أن ترى أناسا آخرين يتولون رعاية أشجارك وأن تمس ولو برتقالة واحدة .

وفى حانوت صغير قرب قصر العظم، فى قلب دمشق القديمة، كان فلسيطنى عجوز يعمل حتى عهد قريب، حيث كان يبيع القدور النحاسية والصناديق الخشبية المطممة. لقد جاء من مكان قريب من روش بينا فى الجليل الشرقى واجبر على النفى عندما قرر بيجال آللون وتطهيره المنطقة من العرب. لكنه فى كل عام، فى ذكرى نفيه، كان يسافر إلى القنطرة ويصعد إلى مرتفعات الجولان، وفى مكان بين الجولة ويحيرة طبربة كان يتوقف وينظر إلى داره فى السهل عبارة عن نقطة صغيرة على بعد خمسة أو ستة أميال. عندلذ كان يدعو الله أنيساعده على العودة. لقد فعل ذلك طيلة تسع عشرة عاما إلى أن استولى الإسرائيليون فى عام ١٩٦٧، على الجولان ليحرم حتى من هذه السلوى، وظل حتى وفاته يشارك جميع الفلسطينيين نفس الأمال وهو أنه سيأتى اليوم الذي يسمحون له فيه بالعودة إلى الوطن .

كذلك يعبر الشعر الفلسطييني عن هذا الشعور بالتعلق بالوطن، والواقع أن معظمه لايكاد يهتم بموضوع غيره. واللغة العربية، أكثر من معظم اللغات تتأثر بالترجمة، ولا فائدة تذكر من مناقشة مزايا هذا الشعر هنا، وأن كان من الاهمية بمكان لأنه يصور جيدا مواقف الفلسطينيين تجاه وطنهم، والشعر الفلسطيني الحديث اللدى وصفه أحد النقاد بـ وشعر الاحتلال، يمكن أن يقال أنه قد نشأ مع أعمال توفيق زياد وسمع القاسم وسليم جبران وفوزان الاسمر، ومحمود درويش وكلهم باستثناء الاسمر، أعضاء عرب في الحزب الشيوعي الإسرائيلي لقد كان تأثيرهم على الشعراء الفلسطينيين في الشتات بالغا، ومنذ عام ١٩٦٧، نشأ جيل من الشعراء الشبان، الذين يكتبون بنقس الاسلوب، غت الاحتلال الإسرائيلي في الفنفة الغربية وغزة .

والشعر الفلسطيني شعر غنائي غير مقفي، يركز على النخيل. ويتكرر ذكر القدس

وأرض فلسطين في قصيدة بعد أخرى: فتصبح فلسطين معشوقة أو أم ، ويقارن مصيرها لاغتصاب امرأة وامتهان كرامتها. وفي بعض الاحيان كما في قصائد فدوى طوقان وتوفيق زيادة، تصور مأساتها بالصلب. وتشبه أرض فلسطين بشجرة الزيتون مع رموز أخرى تشمل البساتين، واشجار البرتقال والسوسن، أن علاقة الفلسطيني بأرضه، بالتربة ذاتها وهي علاقة عضوية خالدة ججد تعبيرا جيدا عنها في قصيدة لسليم جبران بعنوان وبشير الربح والمطرة :

تستطيعون اقتلاع الشجر

من جبل يعانق القمر

فی قریتی

تستطيمون حرث كل بيوت قريتى

فلا يبقى لها أثر،

تستطيعون سلب قيثارتي

وحرتها، وتمزيق الوتر،

تستطيعون...

لكنكم لاتقدرون على خنق لحنى

فأنا عاشق الأرض

مغنى الربح والمظر.

وتجد نفس الإشاره وصفا لها في قصيدة فوزى الاستر بعنوان: «المستحيل» وقد كتبت وهو في السجن في إسرائيل في عام ١٩٧٠م، وكان قد احتجز دون محاكمة لمدة خمسة عشر شهرا وقيل له مرارا انه لن يفرج عنه الا إذا رحل عن البلاد. وهذا رده:

لا تطلبوا منى المستحيل

لاتطلبوا منى قنص النجوم، والسير إلى الشمس .

لاتطلبوا منى افراغ البحر، ومحو ضوء النهار

فأتا لست سوى انسان

لاتطلبوا مني هجر عيني وحبي

وذكريات طفولتي .

لقد ترعرعت في ظل زيتونة

واكلت تين بستاني

وشربت عصيرا من كروم المنحاس

وتذوقت ثمرة الصبار في الوديان

کثیرا، کثیرا

وشدا العند ليبقى اذنى

ولمستنى رياح الحقول والمدن الطليقة

يأصديقي

لاتطلب منى هجر وطني.

الفصل الثالث

العربفي إسرائيل

فى مناقشة الكنيست حول قانون المواطنة عام ١٩٥٠ ، أشار وزير الداخلية الإسرائيلي إلى الفلسطينيين اللين كانوا لايزالون داخل حدود الدولة الجديدة و كأجانب وكانت تلك طريقة غربية في وصف شعب عاش قرونا في نفس المكان، لكن الفلسطينيين أنفسهم لابد وأن يشمروا في سنوات ما بعد الحرب بأنهم اجانب في بلادهم فلم يبعد في اسرائيل غير أقل من عشر عددهم وحتى بعض هؤلاء كانوا لاجئين هجروا ديرهم إلى مناطق استولى عليها الجيش الاسرائيلي في وقت لاحق لقد حولتهم حرب ديرهم إلى مناطق استولى عليها الجيش الاسرائيلي في وقت لاحق لقد حولتهم حرب

وبعد المرجات الاولى للهجرة اليهودية في اوائل الخمسينات باتوا بالكاد يشكلون عشرة بالمائة من السكان .

كان ١٥٠ ألف عربي يقيمون في إسرائيل التي تمخضت الهدنة في عام ١٩٤٩ وكان معظمهم في الشمال، في الجليل والمنطقة المعروفة بالمثلث، وظل بضعة آلاف من البدو اساسا، في الجنوب لكن في الوسط، حيث مدن يافا واللد والرملة لم يكد يوجد أي عرب أما الباقون فيرجع الفضل في بقائهم إلى عدد من الأسباب. ففي اللد جرى السماح لبضع مئات من الاشخاص بالبقاء لأنهم كانوا يعملون في السكك الحديدية، ومن ثم كان يمكن أن يستفيد منهم الإسرائيليون، وإلى الشطل، كان قروبو فريديس يحتفظون بصداقة تقليدية مع مستوطني زيخرون يعقوب وهكذا تمت حمايتهم— شأنهم في ذلك شأن الدروز من جبل الكرمل الذين كان الصهاينة قد تعهدوهم بالرعاية منذ أمد بعيد وأصبح فلسطينيو المثلث سكانا في إسرائيل عندما سلمت منطقتهم إليها في رودس، وفي الجليل بقي عدد من العرب لمجرد أن منطقتهم كانت أكبر من أن يطهرها.

أما الناصرة، فإن استسلام المدينة الكاثوليكية في معظمها دون طلقة واحدة جعل من الصعب على الصهاينة معاملة سكانها بقسوة شديدة .

لقد تركت اتفاقية رودس العرب في حالة من الذهول والارتباك إذ كان الكثيرون من اقربائهم قد انضموا إلى الخروج ولم تكن لليهم أى فكرة عن البلد الذى ذهبوا اليه أوحتى عسما إذا كانوا لايزالون على قيد الحياة. وكان ثلاثون ألف عربى لاجثين داخل إسرائيل حين هرب الكثيرون إلى الناصرة ولم يسمح لهم بالعودة إلى قراهم. وفجأة وجد المعرب أنفسسهم وقد سيطرت عليهم الحركة الصهيونية التي كانوا يخشونها، وظلوا يعارضونها عشرات السنين. ووضعوا غت الحكم العسكرى ومنعوا من التحرك خارج مناطقهم دون تصاريح، وفي اللد لم يكن يسمح لهم بالسير خارج حيهم على طول خط السكك الحديدية الذي سرعان ما صار يعرف وبالجيتو العربي، وباتت إسرائيل والحركة الصهيونية سادة لهم بل وأجبر اطفائهم على أن ينشدوا في المدرسة النشيد الوطني الإسرائيلي كل صباح وفي طول البلاد وعرضها كانت الطائفة الفلسطينية في حالة من الفوضى، من قبائل النقب البدوى، التي فقدت ثمانين بالمائة من سكانها إلى الكاثوليك اليونانيين في الجليل الذين فقدوا كل كهنتهم تقريبا.

وقيل أن يتسنى وصف مجربة العرب فى إسرائيل لابد من فهم المواقف الإسرائيلية على المستقلال، عدد عن الحرية لا المساواه لكل المواطنين وما إلى ذلك. لكنه كان كلاما منمقا لا محدى الحرية لا المساواه لكل المواطنين وما إلى ذلك. لكنه كان كلاما منمقا لا معنى له وكان بن جوربون يحب العرب، وكان سعيدا برحيل مثل هذا العدد الكبير منهم. وعلى أى حال كان يفضل لو أنهم طردوا جميعا لأنه كان، مثل وايزمان، يريد دولة يهودية بقدر ما أن انجلترا انجليزية أو مثل دايان الذى أراد دولة يهودية بقدر ما أن الجليل بسيارته حول الجليل

في الخمسينات، كان مستاء من رؤية القرى العربية على بعد حتى أنه قال: قمن يطوف بالجليل يشعر أنه ليس جزءا من إسرائيل 6. وفي عام ١٩٥٨، وفقا لما ذكرته صحيفة هاريتز الإسرائيلية، فرفض تسلم البطاقة الشخصية الصادرة له لأنها كانت مكتوبة بالعربية إلى جانب العبرية 6. وتعليقا على هذا النبأ كتب أورى افنيرى، رئيس تخرير صحيفة هاءولام هازيه، وعضو الكنيست حاليا يقول: يعتبر بن جوربون دائما رجعيا تماما في معارضته لكل ما هو عربى، فرئيس الوزراء لم يزور قط مدينة أو قرية عربية منذ قيام الدولة. وعندما زار مدينة الناصرة العليا اليهودية، وفض زيارة الناصرة العربية، التي لا تبعد اكثر من بضع مئات من الامتار عن المدينة اليهودية. وفي السنوات العشر الاولى بعد قيام إسرائيل، لم يستقبل بن جوربون وفدا واحدا من المواضين العرب.

قد يقال ان ذلك كان موقف رجل واحد وهو كذلك. لكنه كان أقوى زعيم في التاريخ الإسرائيلي وكانت غالبية أعضاء المؤسسة الإسرائيلية تشاركه هذه الآراء. وذات مرة اعترفت جولدا ماثير، في العام التالى قام فعلا بزيارة قرية جليس الدرزية في طائرة عمودية. لكن الدروز في إسرائيل لا يعتبرون عريا.

ثانى أقوى شخصية فى البلاد منذ الاستقلال، بأنها لم تسطيع النوم ليلا اذ كان يؤرقها «التفكير فى كل الاطفال العرب الذين يولدون فى تلك اللحظة⁽⁴⁾،

وفى اكتوبر عام١٩٧٣ ، تحدث روبين كاكسويل— هيسلوب، عضو مجلس العموم البريطانى عن موقف ديفيد هاكوهين، الرئيس ذو النفوذ وقتقد للجنة الشقون الخارجية النابعة للكنيست قائلا:

وبعد ستة أسابيع من تلك الحرب (يونيو ١٩٦٧) ذهب ستة أعضاء موقرون من هذا المجلس، ثلاثة من كل جانب، بمن فيهم أنا، إلى إسرائيل والأردن ضيوفا على هذين المجلدين، وقد واجهتني شخصيا لحظة مروعة. فقد كنا جميعا ضيوفا على مائدة غداء

اقامتها لجنة الشفون الخارجية التابعة للكنيست الينا باسهاب واستفاضة عن العرب. وعندما توقف لالتقاط أنفاسه وجدت نفسي مضطرا للقول :

ويادكتور هاكوهيم، لقد صلعت بشدة اذ أجدك تتحدث عن غيركم من البشر بعبارات تماثل التي تخدث بها يوليوس سترايخر عن اليهود. ألم تتعلم شيئا؟، لقد ضرب المنصدة بقوة يكلتا يديه وقال «لكنهم ليسوا بشر.. ليسوا اناسا، أنهم عرب، وكان يتحدث عن اللاجئين العرب.

كثيرا مايقال أن المواقف الإسرائيلية عجاه السكان العرب محكمها مشاعر عدم الأمان وعداء العالم العربي. وقد يكون الامر كذلك والحقيقة هي أن العداء والتعصب عجاه العرب، مهما كانت الأسباب، قد شكلا أساس نوقف إسرائيل مجاه الأقلية من سكانها بعد قيام الدولة مباشرة ولايمكن فهم مشكلات الفلسطينيين في إسرائيل، كما وردت في الصفحات التالية، فهما صحيحا، الا إذا تم الاعتراف بهذه الحقيقة .

فى ٢١ مايو من عام ١٩٤٨، بعد ستة أيام من اعلان الاستقلال، أعلنت إسرائيل حالة الطوارئ. وحيث أنها لانزال سارية المفعول إلى اليوم، فإن بوسع الحكومة استخدام نظم الدفاع (الطوارئ) لعام ١٩٤٥، والتى ورثتها هى حكومة الانتداب. وبموجب هذه النظم فرض الحكم العسكرى على جميع مراكز السكان العربية ولم يلغ الا في عام ١٩٣٦. وكانت صلاحيات الحكام العسكريين واسعة واستخدمت على نطاق واسع فكانت حرية الانتقال بالنسبة للعرب مقيدة بالكامل تقريبا في السنوات العشر الاولى، وكان على الرجل الذى يريد السفر من احدى قرى الجليل إلى حيفا الجاورة بحثا عن عمل أن يطلب تصريحا عسكريا قبل ذلك بأيام عديدة .

وبموجب تلك اللواتح كان يمكن نفى العرب، دون أبداء أسباب، إلى أجزاء نائية من البلاد واستدعائهم عدة مرات فى اليوم إلى أقرب نقطة شرطة للاستجواب. كما كان يمكن القاء القبض عليهم واحتجازهم، لفترة غير محددة دون اتهام، لقد سجن الشاعر، فوزى الاسمر، دون محاكمة لمدة خمسة عشر شهرا ولم يفرج عنه الا بعد احتجاجات من الخارج، ومع ذلك حددت اقامته في اللد سنة أخرى بينما قامت السلطات الإسرائيلية مرارا (بتشجيعه) على مفادرة البلاد .

وكما لو أن نظم الانتداب لم تكن سيئة بالقدر الكافى فقد جرى تدعيم سلطات المحكم المسكرى بقانون ومرسوم حكومى مكنا وزير الدفاع من أن يصرح باقامة ومناطق دفاع، و ومناطق أمن، متى شاء ذلك. وبموجب هذا المرسوم تمت معظم عمليات طرد القروبين ومصادرة اراضيهم. وكان كل ما على الوزير أن يفعله هو أن يعلن أن هذه المنطقة أو تلك ومنطقة أمن، محظورة على الجميع فيما عدا العسكريين والشرطة، وأنه يمكن طرد سكان المنطقة. وقد حدث ذلك لقبائل عديدة من بدو النقب ولقرى متعددة في الخلل، بما فيها اقربت وكفر بيريم والجدل، وام الفلاح.

وهكذا وفرت تلك اللواتح الاطار القانوني لمعاملة إسرائيل لاقليتها العربية. بأى المقايس، معاملة قسمية ومن المفيد أن نقراً ما تعين على محام صهيوني، هو يعقوب شمشون شايبرو، قوله عن نظم الانتداب في عام ١٩٤٦: وأن النظام الذي أقيم في فلسطين منذ صدور قوانين الدفاع لانظير له في أي بلد متحضر، ولم توجد مثل هذه القوانين حتى في المانيا النازية... ومن واجبنا أن نقول للعالم كله أن قوانين الدفاع التي اوربها حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين تقوض اسس العدالة ذاتها في هذا البلد. لقد اصبح شابيرو فيما بعد مدعيا عاما ووزير للعدل في إسرائيل لكن مما لايدعو للغرابة حقا أنه لم يجد ضرورة لالغائها. فالقوانين التي تبدو وبغيضة بدرجة تعذر معها وجودها حتى في المانيا النازية وأصبحت كما هو واضح بجلاء مقبولة تماما متى طبقت على

أن أى زائر لإسرائيل، شريطة ألا يرافقه مرشد من وزارة الاعلام، سوف يلاحظ أن عرب البلاد أقلية معلمة. فالتفرقة ضدهم صارخة ومرسومة. وكما قالت شولا ميت الونى، عضو الكنيست وزعيمة حركة الحقوق المعدنية في إسرائيل، في الكنيست في اكتوبر ١٩٧٥: وأنه في السنوات الثمانية والعشرين منذ قيام إسرائيل لم نتعلم حتى الآن أن على المرء أن يعامل العرب كسمواطنين لهم نفس الحقوق والواجبات وأن يعالج مشكلاتهم كما يعالج مشكلات كل المواطنين بصورة مباشرة وبدون تفرقةه .

ويعتبر التعليم مصدر شكوى رئيسية، فمستويات التعليم متخفضة للغاية بين السكان العرب ويرجع ذلك في جانب منه إلى عدم وجود ما يكفى من المدارس وفي جانب آخر إلى سوء تجهيز المدارس القائمة . ففى قرية دير الأسد في الجليل هناك ١,٣٠٥ تلميذ بالمدرسة الابتدائية وهو عدد كاف في تصورنا لتبرير وجود مدرسة ثانوية. إلا أنه لاتوجد مثل هذه المدرسة هناك أو في أي مكان قريب اللهم إلا مدرسة في الاكرميل لاتفتح أبوابها إلا لليهود وعلى أي تلميذ يريد اللهاب إلى مدرسة ثانوية من الأحمد أن يقطع يوميا مسافات طويلة ذهابا وإيابا أما إلى عكا أو إلى الناصرة مع تحمل نفقات كبيرة . في مثل هذه الظروف ليس غربيا أن ثلثي الاطفال العرب لايتجاوزون ابدا المستوى الابتدائي . أما المدارس القائمة فعلا، فإن الكثير منها يدعو للرثاء، فهناك نقص فظيم في الامكانيات فكل المدارس تقريبا ينقصها الملاعب والمكتبات والمامل .

وفي الناصرة الفصول مؤقتة، في مباني مستأجرة وموزعة في أرجاء المدينة .

ويمكن قياس اهمال إسرائيل لتعليم العرب بعدد طلبة الجامعات، فمع أن العرب يشكلون خمس عشرة بالمائة من سكان إسرائيل، فإن هؤلاء الطلبة يشكلون أقل من ثلاثة بالمائة من طلبة الجامعات في البلاد. وهذا الاهمال مقصود: فإسرائيل لاتريد أقلية جيدة التعليم. وكما أوضح ذات مرة أورى لوبراني، المستشار المساعد لرئيس الوزراء للشعون المربية، قائلا: قربما كان من الافضل ألا يكون هناك طلاب عرب فلو أنهم ظلوا يقطعون الاختباب فربما كانت السيطر عليهم أيسر وبصرف النظر عن الحاجة إلى الابقاء على العرب في حالة من الجهل كي يواصلوا تزويد إسرائيل برصيد كبير من العمال غير المهرة، فإن سياسة الحكومة التعليمية تستهدف بجلاء الحد من مشاعر الوعى القومى بين الفلسطينيين .

ولتحقيق هذا الهدف يجبر التلاميذ العرب ترديد النشيد الوطنى اليهودى. وتعزيزا غاولة محقيق الهيمنة الثقافية، لم ينشر كتاب عربى واحد في إسرائيل خلال السنوات العشر الاولى ويستمان بالمناهج الدراسية لتأكيد هذه السياسة فالأطفال العرب في المدرسة الثانوية يتعلمون الادب العبرى والعربى، لكن بينما يفرض عليهم دراسة شعراء صهايئة أمثال بياليك، وشيمونى، وى مل. بيرتيز، فإن القصائد العربية الوحيدة التى يسمح لهم بقراءتها تتناول الطبيعة والحب وماشابه ذلك وبالمثل، فانهم يقضون ٢٥٦ساعة في دراسة التقاليد اليهودية المنقولة شفاها من جيل إلى جيل، والتوراه لربما لكى يتعلموا أن فلسطين ليست، في الواقع، ملكا لهم، وثلاثين ساعة فقط في دراسة القرآن. وعلاوة على ذلك يخصص للتاريخ العربي، أما المصور العظيمة في التاريخ العربى فتحذف من الكتب المدرسية. والشيئ الوحيد الذي يتعلمه التلميذ العربى عن صلاح الدين هو أنه كان له طبيب يهودى يدعى موسى بن نيمون.

كذلك فإن العمل مصدر آخر من مصادر شكوى العرب الأساسية. لقد كانت الزراعة دائما عماد الاقتصاد الفلسطيني، وحتى عام ١٩٤٨، كانت غالبية السكان العرب تشغل بالزراعة. لكن مصادرة الاراضي، التي اعقبت الحرب والتي سوف نناقشها فيما بعد قوضت مصدر معيشة الكثيرين من العرب الذين ظلوا على قيد الحياة ودفعتهم إلى

المدن بحثا عن العمل وقد وصف الكاتب الإسرائيلي، أهارون كوهين، وضعهم قائلا:

وأن العامل العربى الذى تمكن من العثور على عمل فى السنوات العشر الأولى لم يجد سوى الأعمال الجارى أو البناء ولم يجد سوى الأعمال البغيضة التى لايقبلها العمال اليهود كأعمال الجارى أو البناء ولم تتساو أجور العمال العرب قط مع تلك المدفوعة لليهود، حتى وأن أدى العربى نفس العمل. والواقع أن اعمالا كثيرة يحظر أن يقوم بها العمال والموظفين العرب .

والعامل العربى الذى كان يجد عملا مؤقتا فى مستعمرة يهودية نائية كان يمكن طرده بحجة أنه وغير منظمه .

و «غير منظم» تعنى أنه لا ينتمى إلى الهستدروت، الاتخاد العام للعمال فى إسرائيل – وما ليس غريبا هو أنه، حتى عام ١٩٦٢، لم يسمح لأى عربى بأن يصبح عضوا فى هذا الجهاز التقابى القوى، وحتى عندما سمح للعرب بالانضمام الى الهستدروت لم يتحسن وضعهم الابصورة هامشية، ولا يزال العرب إلى اليوم يؤدون معظم الاعمال الوضيعة فى إسرائيل مثل غسل الاطباق واصلاح الطرق، وجمع القمامة وما إلى

ولايزال بعض العرب يعطون في الزراعة، كمزارعين أو مستأجرين، بل كعمال في المزارع اليهودية. ومن الناحية الرسمية، هنالك معارضة شديدة لذلك حيث أن اليهود هم وحدهم المسموح لهم بالعمل في الأرض التي تملكها الدولة أو الصندوق القومي اليهودي (أي حوالي تسعين بالمائة من الارض) .

وفى ديسمبر ١٩٧٤م، أعلن وزير الزراعة الإسرائيلي أن «هيمنة العمال العرب على الزراعة اليهودية سرطان في جمسدناه. وبعد ذلك بأشهر قليلة، بدأت وزارته وادارة الاستيطان التابعة للوكالة اليهودية، وفقا لمانشرته صحيفة معاريف الإسرائيلية، وحملة عنيفة لاستثمال طاعون تأجير الأراضى والبساتين للمزارعين البدو والعرب فى الجليل الغربي، ومع ذلك فللآن من الممكن تشغيل العرب بأجور أقل بكثير من أجور اليهود وكذلك لأن من الممكن طردهم دون مشكلات، فللإيزال كل من «السرطان»، و «الطاعون» مستمرا .

أن توسع الاقتصاد الإسرائيلي وانخفاض الهجرة اليهودية من الخارج اتاحا اعمالا لمعظم السكان العرب وأن كانت اعمال وضيعة إلى حد كبير، لكنهما لم يحسنا وضع المشقفين الفلسطينيين، الذين لا يجدون، في الغالب عملاك أولا لأنهم عرب، وثانيا لأنهم يعتبرون وغير ساميين، من الناحية السياسية. وحتى اذا ما ما تغلبوا على العقبة الاولى، وهذا لم ينحج فيه كثيرون، فإن العقبة الثانية تثير عدة تعقيدات.

لقد فقد فوزى الامر وظيفته الاولى فى دار للطباعة يديرها الحزب الاشتراكى، المبابام لأنه رفض أن يصبح عضوا فى الحزب، وفيما بعد، عندما رفضه قال له مسئول فى فرع الشرطة الخاص انه لن يحصل أبدا على وظيفة مالم يغير خطه السياسى (وهو صورة معدلة من القومية العربية).

وعندما عين محمد الميزى محاضرا في جامعة حيفا، حاولت وزارة الدفاع حثه على أن يصبح مخبرا. وعندما رفض، أبلغت الوزارة العميد في حيفا بأنه خطر على الامن ولايجب قبوله كمحاضر. ولم يعد الميرى إلى وظيفته الا بعد أن أثار عاصفة من الاحتجاج.

أما صفحة الاعلان عن وظائف في صحيفة يديموت احرونوت بالعربية فهي تكشف عن اسلوب آخر للتفرقة ضد العرب في الوظائف. ذلك أن حوالي تسعين بالمائة من الوظائف المملن عنها تخصص للذين أدوا الخدمة العسكرية فقط، وحيث أن العرب باستثناء الدروز، لايؤدون الخدمة العسكرية، فإن هذه وسيلة غير مهلبة بالمرة لضمان عدم

تقدمهم إلى معظم الوظائف .

والتفرقة ضد المناطق العربية، خاصة في مجال الاسكان، هي سبب آخر للشكوى. فهنا تعتبر سياسة الحكومة المعادية للعرب أشد ما تكون وضوحا فليس محظورا على العرب أن يعيشوا على أرض يملكها الصندوق القومي اليهودي بل كان عليهم ايضا أن يعانوا من مصادرة أراضيهم الخاصة حتى يتسنى بناء مدن جديدة لايسكنها غير اليهود وأسوأ مثلين على هذا هما مدينتا الكرميل، والناصرة العليا. فالكرميل مدينة كثيبة بمبانيها البرجية المتماثلة المقامة دون ذوق على طبيعة الجليل الفاتنة لقد بناها العمال العرب فوق أرض مصادرة من ثلاث قرى عربية ومع ذلك لايسمح لأى عربي أن يسكن أو يبدأ عملا بخاريا هناك. عندما حاول التان من رجال الأعمال العرب، كل بمفرده، الحصول على تصريح ببناء مصانع في الموقع الصناعي للمدينة في عام ١٩٧٧، أثارا عاصفة احتجاج بين السكان.

فقد زعم هؤلاء أن الكرميل جزء من مشروع لـقتهويد الجليل، وانهم قد وعدو بأنها سوف تظل مدينة يهودية صرفة، وأنها سوف لا تطاق لو سمح للعرب بالعيش فيها ، وقبلت الحكومة حججهم ورفض التصريح لرجلى الاعمال. ومرة اخرى عندما وافق رجل على تأجير دار، لعربى من قرية مجاورة، وقع معظم السكان على التماس يطلبون فيه فسخ المقد كميداً.

أما مشاكل مدينة الناصرة العربية وعلاقتها مع جارتها اليهودية، الناصرة العليا، فتكشف المصاعب التي يواجههال العرب في إسرائيل باستمرار فالناصرة اكبر مدينة عربية في إسرائيل وسكانها مقسمون بالتساوى بين المسيحيين والمسلمين. وقد زاد حجم سكانها السابق على عام ١٩٤٨ البالغ ١٤,٠٠٠ نسمة بـ ١٠,٠٠٠ لاجئ من ريف الجليل ومنذ ذلك الحين ارتفع العدد حتى بلغ ٤٥,٠٠٠ نسمة واليوم تعتبر مدينة قذرة مهملة

ومكتظة بالسكان ولأن مجلسها يسيطر عليه الحزب الشيوعي من ناحية ولكن أساسا لأنها عربية لاتهتم الحكومة بتطوير الناصرة. فالمدينة لاتخصل على اعتمادات للتنمية ولاتوجد بها صناعة، أسا الصانع القليلة التي وجدت بها أيام الانتداب فقد أغلقت في الخمسينات، الأمر الذي يدفع ثمانين بالمائة من القوة العاملة إلى البحث عن عمل خارج المدينة وعادة في المصانع اليهودية في حيفا. أما الاسكان العام فلا وجود له ووفقا لتقرير نشر في صحفية هارتيز الإسرائيلية :

دأن وزارة الاسكان لم تبن مسكنا واحدا في الناصرة منذ عام ١٩٦٦. ومختاج الناصرة كل عام إلى مابين ٥٠٠و وحدة سكنية اضافية للحفاظ على الاوضاع السكنية في مستواها الحالى دون الاخذ في الاعتبار الاحتياجات السكنية لاستيعاب الشبان المهاجرين إلى الناصرة من القرى الجاورة.

ويزيد من حدة الموقف وجود الناصرة العليا على تل يطل على المدينة القديمة. وخلال الخمسينات، صودرت الاراضى من قرى عديدة ومن الناصرة نفسها لبناء مدينة يهودية صرفة في منطقة عربية. وقد بدئ العمل في الموقع دون استشارة عمدة الناصرة أو حتى دعوته إلى الاطلاع على الرسومات وتضم الآن ١٦٠٠٠ من السكان اليهود ومع ذلك فإن مخصصات ميزانيتها أعلى من مخصصات المدينة التي يبلغ عدد سكانها ما يقرب من ثلاثة أضعاف سكان الاولى. وهناك في الناصرة العليا مصانع عديدة، مصانع نسيج، وأغذاية، ومصنع لتجميع السيارات، ولاتوجد فيها بطالة. كما أن بها عشرات الشقق الشاغرة، ولكن، لأنها مبنية على أرض يملكها الصندوق القومي اليهودي يحظر على العرب شراؤها، حتى وأن كانت الارض قد انتزعت منهم في بادئ الامر.

وعندما بخاهلت بعض الأسر العربية القانون في عام ١٩٧٥ واشترت أو استأجرت عدة شقق ارتفعت اصوات الاحتجاج بين السكان اليهود. ووفقا لما نشرته صحيفة معاريف الإسرائيلية، فإن «السكان يشكون من أن الموقف لايحتمل (و) يهددون بهجر المدينة جماعيا والانتقال إلى المدن المجاورة؛ مالم تتخذ الاجراءات الكفيلة بمنع تغلغل الاسر العربية في ذلك الجزء من المدينة (أي، الناصرة العليا). وخاصة في المجمعات السكنية حيث يسكنون .

وتعانى المناطق الريفية العربية ماتعانى منه الناصرة. ووفقا لما ذكره أحد أعضاء الكنيست فانه من الاموال المخصصة للتنمية المحلية ولايذهب إلى القطاع العربى أكثر من واحد بالمائة. وأعلن عضو آخر، هو شولا ميت آلونى، في سنة ١٩٧٥ أن «تخيلا مقارنا لميزانية البلديات المحلية لسنة ١٩٧٤ - ١٩٧٥ ، في القطاعين اليهودى والعربي يبين بوضوح التفرقة الصارخة ضد القطاع العربي. ومضت إلى الاشارة إلى أنه بينما حصلت مدينة شفا عمرو العربية، التي يبلغ عدد سكانها ١٥،٠٠٠ نسمة ، على ميزانية بلغت بسمة ٢.٨ مليون جنيه إسرائيلي وحصلت قربة كفر قنة العربية البالغ عدد سكانها ٥٠٠٠ نسمة ٢٠٠ مليون جنيه أسرائيلي وخصص بمستوطنة آزاناه (التي تسمى الآن نيتيفوت)، والتي لايزيد عدد سكانها عن ٥٠٠٠، نسمة ١٧ مليون جنيه إسرائيلي. وبعبارة أخرى، فانه في مقابل عدد سكانها عن وعشرون على كل جنيه اتفق اثنان وعشرون على كل جنيه اتفق اثنان وعشرون على كل مستوطن يهودى في آزاناه .

أن هذه التفرقة واضحة لأى انسان يكلف نفسه مشقة مقازنة قربة عربية بمستوطنة يهودية. أن المستوطنات بشعة عادة لكنها على الاقل تخطط وتزود بالخدمات الأساسية، طرق ومياه وكهرباء وما إلى ذلك، قبل انتقال المستوطنين اليها، في حين أن القرى العربية غير مخططة وتفتقر إلى الكثر من الخدمات الهامة وبتعين عليها أن تنتظر سنوات حتى تصلها الكهرباء ولا يزال الكثير منها بدون كهرباء، وليس هناك في أى قرية عربية شبكة صرف صحى أو شبكة طرق مرصوفة. وأنه لا وجود للهواتف والمراكز الصحية ولاتوجد مكتبة عامة واحدة في أى مدينة أو قرية عربية في إسرائيل .

أما المسألة التي طفت دائما على ماعداها من مسائل أخرى بالنسبة إلى العرب فهي مصادرة أراضيهم .

وكانت المصادرات الكبرى قد وقعت عقب حرب ١٩٤٨ مباشرة عندما تمت مصادرة حوالى مليون فدان من أراضى العرب. ومنذ ذلك الحين، ووفقا للاحصاءات الإسرائيلية، تم الاستيلاء على ١٤٤٠، ١٥٤٠ فدان أخرى لاتشمل المناطق التي أخدت من البدو في النقب فكيف تم ذلك؟ وماهى اللرائع التي استخدامها الإسرائيليون لانتزاع كل هذه الاراضى؟ كانت الاساليب الاولى مباشرة فبموجب قواتين الدفاع (الطوارئ) لما ما كان على لمام ١٩٤٥، ثم تنفيذ عمليات الطرد والمصادرة ولاعتبارات أمنية، فكل ما كان على البخود الإسرائيليون أن يفعلوه هو دخول قرية عربية، كما فعلوا في عصقلان في عام المجنود الإسرائيليون أن يفعلوه هو دخول قرية عربية، كما فعلوا في عصقلان في عام المبدود دون أن توجه أي اسئلة، فكان والأمن، هو المبرر. وبمجرد أن تتم عمليات الطرد تدمر القرى وتسلم أراضيها لكبيوتز أو موشاف قريب. (الكيبوتز هو مزرعة جماعية يهودية، والموشاف هو مزرعة تعاونية لصغار الملاك).

استخدم هذا الاسلوب في قرى عديدة في شمال الجليل. وقد وقع حدثان من أبشع الحوادث في قرية اقريت الكاثوليكية اليونانية وقرية كفر بيريم المارونية. ففي خريف ١٩٤٨، بعد انتهاء القتال في الجليل، احتل الجيش الإسرائيلي كفر بيريم، ولم تمض أيام حتى أبلغ السكان بضرورة ترك ديارهم حيث ينتظر أن تجرى عمليات عسكرية في منطقتهم وكانوا مترددين واكتفوا بالانتقال إلى بعض الكهوف الجاورة بعد وعد من مسئول في وزارة الشرطة والاقليات بأنه سوف يسمح لهم قريبا العودة إلى ديارهم وكرر هذا الوعد بعد أشهر قليلة مستشار رئيس الوزراء للشئون العربية. لكن شيئا لم يحدث

وانتظر القروبون ثلاث سنوات أخرى بعدها رفعوا الأمر أمام المحكمة العليا التي حكمت لصالحهم. لكن الجيش رفض تنفيذ قرار المحكمة وفي سبتمبر من عام ١٩٥٣، تم زرع الالفام في القرية وأمر السلاح الجوى الإسرائيلي باسقاط قنابل حارقة فهدم كل مبنى باستثناء الكنيسة. وسلمت معظم الاراضي لكيبوتز بيريم حديث التأسيس.

ولقيت قربة أقريت نفس المصير فقد اعترفت المحكمة العليا بحق القروبين في العودة إلى أراضيهم ونفت أن يكون للجيش أى حق في منعهم وفي حكمها أشارت المحكمة إلى أن الحاكم العسكرى لم يصدر حتى الأمر بالطرد، فما كان من االحاكم العسكرى الا أن صحح هذا الخلل وأعلنت أقريت ومنطقة أمن ومحظورة على المذنيين وشكا القروبون مرة أخرى إلى المحكمة العليا. لكن العسكريين تحركوا قبل أن يجد الوقت لنظر القضية. ففي أعياد الميلاد سنة ١٩٥١، نسف خبراء المفرقعات التابعون للجيش كل منزل في القرية ليشاهد التدمير بعيني رأسه .

واصل سكان القريتين الحياة في المنطقة (وان كانوا قد اعتبروا خطرين على الأمن) بل أصبح بعضهم عمالا في الكبيوتز والموشاف اللذين حلا محل القريتين. لكنهم وفضوا التخلى عن مطالبتهم بالارض ولم يقبل التعويض غير نفر قليل. وفي عام ١٩٧٢، بدأوا الضغط من جديد وكان دايان قد الغي التوه مناطق الامن داخل حدود عام ١٩٤٩، سنة حيث أنها لم تعد ضرورية (إذ أن إسرائيل كانت قد وسعت بشدة حدودها في سنة ذلك العام احتلوا أنقاض ديارهم قبل أن تجبرهم الشرطة على الرحيل. وأثارت المسألة ذلك العام احتلوا أنقاض ديارهم قبل أن تجبرهم الشرطة على الرحيل. وأثارت المسألة مناقشة سياسية واسعة انحازت فيها معظم احزاب المعارضة إلى صف القروبين. ولما رفضت الحكومة تغيير سياستها حول المسألة، اتخذ مناحيم بيجين، قائد ائتلاف جاحال اليميني، موقفا انتقاديا بشكل خاص. فقد أعلن وأن ظلما قد لحق بسكان كفر بيرتم. وهذا قرار

خاطئ، وفى الحملة الانتخابية عام ١٩٧٧ ، سار بيجين إلى ما هو أبعد من ذلك لقد وعد القروبين بشكل محدد بأنهم سوف يعودون إلى ديارهم إذا ما تم انتخابه، وعندما أصبح رئيسا للوزراء، صار ذلك مصدر حرج بالغ له وقد حاول تأجيل اتخاذ قرار إلى اطول وقت ممكن. وترك لوزير زراعت أن يكشف فى يناير ١٩٧٩ ، أن اللجنة الوزارية الخاصة التي شكلت لدراسة مسألة اقريت وكفر بيرتم قد اتخذت قرارا يقضى بعدم عودة القروبين.

لكن معظم المصادرات تمت في اطار القانون المدنى. ففي السنوات الاولى أصدرت الحكومة عددا كبيرا من القوانين كانت كلها تهدف إلى جعل المصادرات تبدو قانونية مثل قانون أبلولة ممتلكات الغائبين والمواد الاستثنائية الخاصة باستغلال الاراضى غير المنزرعة وقانون مصادرة الاراضى المنزرعة وقانون الاستيلاء على الاراضى وما إلى ذلك. وحتى كل هذه القوانين لم تف بكل احتياجات الحكومة، فلجأت في بعض الحالات إلى المصادرة المجردة، فمن أجل الحصول على أراضى لبناء الكرميل في عام ١٩٦٢، اكتفى وزير المالية باصدار مرسوم يأمر بمصادرة ١٩٣٠ فدانا من الاراضى الخاصة بثلاث قرى عربية، وهي خطوة دمرت تماما اقتصاد احدى القرى، هى دير الاسد، التي فقدت من أجل ذلك أفضل أراضيها المنزرعة.

أن هذه المجموعات من القوانين تبدو في ظاهرها غير ضارة، لكن المشكلات تبدأ مع تعريفها. أن المواد الاستثنائية الخاصة باستغلال الاراضي غير المنزرعة لابأس بها ولكن ما الذي تعنيه على وجه التحديد؟ العنوان يبدو معقولا ولكن كيف جرى وغير المنزرعة ؟ لقد كان الامر سهلا تماما في معظم الحالات. فقد كان بوسع الحاكم المسكرى أن يحدد قطعة من الارض بوصفها منطقة دفاع، يحظر على المدنيين دخولها. وهكذا يعجز ملك الأرض عن زراعتها ومن ثم تصبح مهجورة. وعندثذ تتحرك وزارة الزراعة، وتعلن

أنها غير منزرعة وتأمر بمصادرتها. أما قانون أيلولة ممتلكات الغائبين فقد كان أكثر اثارة للاستياء لانه أعطى الدولة صلاحيات لمصادرة كل الاراضى العربية ما لم يقدم الملاك الإستياء لانه أعطى الدولة صلاحيات المصادرة كل الاراضى العربية ما لم يقدم الملاك اولا مستندات تئبت ملكيتهم للارض. مع اثبات انهم لم يغادروا مكان اقامتهم فى الفترة السيطرة اليهودية. وحيث أن معظم الاراضى لم تكن مسجلة قط بل كانت الاسر تفلحها عن طريق حق الارث، فمن الواضح أنه كان مستحيلا على الكثيرين اثبات أنهم الملاك. وعلاوة على ذلك، وكما هو الحال عادة فى وقت الحرب، وخصوصا فى هذه الحرب، فإن الكثيرين غادروا أماكن اقامتهم، وكان طبيعيا بحكم أنهم عرب أن يذهبوا إلى مناطق يسيطر عليها عرب آخرون. ووفقا للقانون الإسرائيلي، فانهم بذلك أصبحوا غائبين حتى وأن كانوا لم يغادروا قط المنطقة التى أصبحت إسرائيل فيها بعد. لقد كان لمحمود صفدى، رجل أعمال من طبرية أملاك، ولما بدأ بيجال آلون عمليته والتطهيرية السيعة في شرقى الجليل ترك داره وذهب للاقامة مع ذوية فى الناصرة، وكانت آنذاك محت السيطرة العربية، وهكذا اعتبر غائبا، مع أنه لم يغادر قط إسرائيل، وفقد كل ممتلكاته.

لقد مست هذه القوانين كل قطاعات الطائفة العربية. وبموجب قانون أيلولة متلكات الغائبين، فقدت الاوقاف الاسلامية، أوصندوق الوصاية الاسلامية الديني كل ممتلكاتها في اسرائيل، وفي الوقت نفسه ألغ المجلس الإسلامي الأعلى وتولى دوره مسئول يهودى. وليس من الواضح تماما لماذا حدث ذلك أو كيف يمكن اعتبار مؤسسة خيربة دينية ه عائبية، وعلى أية حال صودرت أملاك الاوقاف وبيع بعضها أو هدم كللك صودرت كل الجبانات إلاسلامية في يافا -باستثناء نصف فدان- لبناء هيلتون تل أبيب وارساء الأساس لحدائق الاستقلال. وفي نصف الفدان الباقي دفنت كل العظام من بقية الجبانة، إلا أنه حتى نصف الفدان هذا جرى استخدامه فيما بعد لشبكة طرق جديدة.

وكان يدو النقب من بين ضحايا هذه القوانين. ففي عام ١٩٤٨م رحل عن النقب حوالي ٥٩،٠٠٠ بدوى من بين رجال القبائل البلغ عددهم ٧٠,٠٠٠ نسمة. أن بعضهم، كأفراد قبيلة العزازمة البالغ عددهم ٢٠٠٠ تسمة، قد طردوا، بينما رحل الاخورن من تلقاء أنفسهم وذهبوا إلى سيناء أو شرق الأردن. ودمرت الحرب النظام القبلي لاولئك اللين بقوا، وفقدت كل القبائل الفرعية، باستثناء قبيلتين، أعدادا ضخمة من أفرادها ومن ظلوا على قيد الحياة فقدوا كل اراضيهم الزراعية تقريبا ومعظم مراعيهم، ثم نقلوا إلى منطقة في شمال - شرقي بئر سبع ومنعوا من التحرك خارجها. وقد أعلن السفير الإسرائيلي لدى بريطانيا في عام ١٩٥٨ أنه وبالنظر إلى الاهمية الاستراتيجية الكبرى للنقب والحاجة إلى ترتيبات أمن خاصة، ... إلخ فقد وجد من المنزوري قصر شركات البدو في النقب على منطقة محددة وهكذا تمثلت سياسة المحكومة في معاملة البدو كما عامل الأمريكيون الهنود الحمر: حشرهم في أماكن تتضاءل مساحتها شيئا فشيئا ولاعتبارات أمنية، وتشجيمهم على الاستقرار، وتسمى هذه المعلية واعادة تسكين، وهو واحد من التعبيرات المخففة الكثيرة التي يستخدمها المسؤون الإسرائيليون .

ولقد وصل الآن عدد أفراد قبائل النقب إلى ٤٠،٠٠٠ نسمة وتغيرت السياسة الإسرائيلية تجاههم. فخطط الحكومة الصناعية والانسحاب التدريجي للقوات المسلحة من سيناء وأعطت النقب أهمية جديدة، وهذا يعنى في واقع الأمر أنه لابد لحياة البدو الرحل من أن تتوقف وسوف يضطرون إلى الاستقرار في المراكز الحضرية الجديدة التي تبنيها الحكومة لهم. لكن الطريق من الصحراء إلى المدينة قصير جدا بالنسبة للبدو وهم يصرون على أنه اذا كان لابد من استقرارهم فسوف يكونون مزارعين وليس عمالا صناعيين. ويرد المسئولون على ذلك بأنه ليس هناك مايكفي من الماء لكنهم لايفسرون الماء توجد وفرة من المياء للميستوطنات اليهودية بينما لاتوجد أية مياه للبدو، وبما أن

رجال القبائل لا يتعاونون مع الحكومة، فإن الاخيرة شكلت وحدة اسمها الدورية الخضراء بهدف مضايقة البدو ومنعهم من رعى قطعانهم فى الأراضى التى تملكها الدولة. لكن هدف الدورية الخضراء فى الواقع، وفقا لما يذكره ومؤيدو الحقوق المدنية الإسرائيليون، هو تقليص القطعان القبلية وطرد الرعاة من أراضيهم. وكما ذكر صحفى فى جيروزاليم بوست فى فبراير ١٩٧٩، فإن: وأنباء الاستئساد واثارة الرعب من جانب رجال الدورية الذين ينفذون أوامر الطرد تتواتر بتكرار مخيف. فمن المروف أن الوحدات تتقض على الخيمات، وتصادر أو تشتت شمل القطعان وتدمر الممتلكات وتهدد النساء والاطفال بالمسدسات المشحونة .

ولعل الناس الذين عانوا الامرين من مختلف قوانين المصادرة هم قرويو المثلث من المسلمين، وتلك هي المنطقة التي تتاخم السهل وسفوح السامرة على بعد اميال قليلة من الساحل تمتد من هيرتزيليا إلى زيخرون يمقوب. وكانت هذه القرى قد اقامها سكان من جبال نابلس في القرن التاسع عشر. وفي مشروع تقسيم عام ١٩٤٧، جرى تخصيصها، مع كل السامرة للدولة العربية المقترحة. وخلال الحرب صمدت في وجه المحهاينة ولم يتم الاستيلاء عليها قط، وأن كان الكثير من اراضيها الاقرب إلى البحر قد احتلها الجيش الإسرائيلي. وعند الهدنة اكتشف السكان لدهشتهم أن معظم القرى قد ضمتها إسرائيل بدلا من الأردن الذي كان يسيطر عليها. وكان ذلك هو الثمن الذي اخدة إسرائيل مقابل السلام، ولما كانت الولايات المتحدة والام المتحدة غير مستعدتين لممارسة الضغط على الدولة الجديدة، فقد اضطر الأردنيون إلى الموافقة .

لقد رسمت الحدود التي تقررت في رودس بتعسف، فلم تراع حدود القرى وأبعد الكثيرون عن أراضيهم، وقسمت قريتا برطعة وبيت صفافة إلى جزئين صغيرين عما ترك افراد الأسرة الواحدة على جانبي الاسلاك الشائكة لايستطيعات الاتصال، أما مصير قرية

طبية - القرية العربية «النصوذجية» التى يؤخذ اليها ضيوف الحكومة الإسرائيلية ليشاهدوا كيف ويزدهرا الفلسطينيون في ظل الحكم الإسرائيليا وفهو مثال أوضح، فأثناء القتال استولى الإسرائيليون على أراضى القرية لكنهم لم يستولو على القرية. ومع أنباء الهدنة غضب السكان لتسليمهم ببساطة إلى إسرائيل لكنهم ارتاحوا بالطبع إلى أشهم سوف يعودون إلى أرضهم أو هكذا تصوروا. لكن قانون ايلولة ممتلكات الغائيين، اللذى اجيز في عام ١٩٥٠ بأثر رجمى، قد صيغ بطريقة تعالج حالات كهذه. ومهم أن السكان لم ينتقلوا من قريتهم، فقد اعتبروا وغائبين، واعتبرت أراضيهم، ممتلكات المميورة ووفقا لما يذكره القرويون فانهم خسروا ٢٠٠٠ لهذان من السمول المدان من المدمول البعة التي يبعد حوالى اربعة الميال إلى الجنوب الشرقي، لم يخفظ الا بـ ١٥٠٠ فدان من أصل ٨٠٠٠ فدان

لم يكن من الصعب مخديد السبب وراء سياسة المصادرة الإسرائيلية. إذ لما كانت ستة بالمائة فقط من فلسطين ملكا لليهود عند اعلان الاستقلال. فمن الواضيح انه كان على الحكومة أن تنهب معظم الباقى لو انها ارادت خلق دولة يهودية من النوع الذى قصده الصهاينة، وهذا هو ما فعلته. بل أنها أذاعت بيانا صحفيا فى عام ١٩٥٣، لكى تبين أن كل المستوطنات، والتى أقميت خلال السنوات الخمس السابقة، قد بنيت على ممتلكات فغائبين، ووصف الجزال دايان العملية لجمهور من المستمعين فى عام ١٩٦٩، قائلا:

القد بنيت القرى اليهودية مكان القرى العربية. انتم لا تعرفون مجرد اسماء تلك القرى العربية، وأنا لا الومكم لأن مثل هذه الكتب الجغرافية لم تعد موجودة، وليست الكتب وحدها غير الموجودة، بل أن القرى العربية ليست موجودة أيضا. لقد ظهرت ناحالال (قرية ديان) مكان محلول، وظهرت جيفات (كيبوتز) مكان جيبتة، وظهرت

سرید (کیبوتز آخر) مکان حنیفة، وظهرت کفار بیهوشوا مکان تل شمان. فلیس هناك مکان بنی فی هذا البلد لم یکن فیه من قبل سکان عرب.

الآن وبعد أكثر من ثلاثين سنة من أقامة مستوطنات في الضغة الغربية وغزة، وكذلك في الأراضى السورية والمصرية يعترف إسرائيليون عديدون بأنهم لم يعودوا بحاجة إلى مزيد من الأراضى. لكن المصادرة لاتزال مستمرة، بدافع سياسى هذه المرة، أن معظم العرب في إسرائيل، الذين يبلغ عددهم الآن ٥٠٠،٠٥٠ نسمة يعيشون في الجليل. وفي عام ١٩٤٨، عندما طردت اعداد ضخمة من العرب، اصبح اليهود اغلبية في المنطقة، إلا أنه بحلول عام ١٩٧٨ تجاوز عدد السكان العرب عدد اليهود تتيجة للارتفاع الهائل في معدل المواليد وأصبحت المسألة مسألة حساسة للغاية في البلاد لأن الارتفاع الهائل في معدل المواليد وأصبحت المسألة مسألة حساسة للغاية في البلاد لأن الام المتحدة لمم تكن تقصد في بادئ الامر أن يكون الجليل الغربي جزء من إسرائيل. فقد كان الهدف أن يكون جزءا من فلسطين العربية، وإذا ما قدر لمشروع الدولة الفلسطينية أن يصبح واقعا في يوم من الايام، فإن عرب الجليل قد يطالبون بالاندماج فيها؛ خاصة إذا كانوا يشكلون اغلية من سكان المنطقة .

ولهذا شرع الصهاينة في القيام ببرنامج وتهويد الجليل، لضمان ألا يهيمن العرب ابدا على الجليل، ولهذا الهدف، بنيت الكرميل والناصرة العليا وعندما اصبحت المسألة حساسة بشكل خاص، جرى مؤخوا بدء حملة مسعورة لانشاء مستوطنات جديدة وعلى حساب الأرض العربية كالعادة وفي ٣٦ يناير عام ١٩٧٩ صرح وزير الصناعة والتجارة امام الكنيست أن الحكومة قد اعطت الأولوية الاولى وفي كل الوزارات، للتنمية (اليهودية) للجليل، وذكر أن عشر مستوطنات قد اقيمت في المنطقة منذ تولى الحكومة (في مايو ١٩٧٧)، وبعد ذلك بامبوعين أعلن الجنرال شارون، وزير الزراعة، أنه سوف يتم البدء بانشاء تسع وعشرين مستوطنة خلال الأشهر الثلاثة القادمة. وأضاف أنه ومنذ

الثلاثينات لم توجد رغبة ملحة في انشاء المستوطنات كما هو الآن،

ويدرك أى مسافر عبر الجليل معنى التهويد : فالقرى العربية الباقية تقع عادة على أرض مرتفعة، على متحدرات التلال الصخرية يخيط بها صفوف قليلة من بساتين الزيتون، واسفلها، وتنتشر الكيبونوات والمشافات املاك الصندوق القومى اليهودى، وتغطى الارض الخصبة في الوديان. وهناك شيئ قد يحير المسافر هو انتشار نبات الصبار، غالبا في اماكن غير متوقعة في وسط الحقول أو قرب المزارع اليهودية، وتفسير ذلك غريب وهو: أن الصبار نبات عنيد، ومهما ستئصل فهو يعاود الظهور) وهذه سمة تقليدية من سمات للقرية لعربية، ولا تزال نباتات الصبار تعاود الظهور في الاماكن التي كانت توجد بها تلك القري، لقد كان يوجد قبل عام ١٩٤٨، ١٩٤٥ قرية عربية دمرت منها السلطات الإسرائيلية ٣٨٥ قرية .

كذلك قوضت سياسة المصادرة الإسرائيلية الاقتصاد الزراعي العربي وببساطة لم تكن هناك أرض كافية تمكن هذا الاقتصاد من البقاء. ففي عام ١٩٤٨، كان متوسط الأراضي الصالحة للزراعة لكل قرية حوالي ٢,٢٨٠ فدانا، وبحلول عام ١٩٧٤ همط إلى ٥٠٠ فدان، وقبل عام ١٩٧٢ كانت قرية دير الاسد مكتفية ذاتيا من حيث المواد الفذائية فقد كانت تنتج اللحوم والفاكهة والقمح والخضروات كما كانت تبيع الفائض في عكا او الناصرة. وفي عام ١٩٦٢ صودرت أراضيها في وادى مجد الكروم لحساب مشروع الكرميل وجردت القرية من أكثر افدنتها خصوبة. ولم تبق غير الارض الحبلية إلى الشمال، والمؤلفة أساسا من بسانين الزيتون. وهكذا بضربة واحدة تم تدمر العملة في الأرض غير عشرة بالمائة من القوى العاملة في القرية، ويذهب أكثر من ثمانين بالمائة يوميا إلى مصانع حيفا أو يعملون كعمال في المزارع اليهودية، وينطبق الشئ نفسه على كل القرى الأخرى. وأشد المناظر

مدعاة للحزن في كل إسرائيل فهي الطوايير الطويلة من عربات نقل الركاب التي تقف خارج كل مدينة وقرية عربية بين الخامسة والسادسة صباحا لتنقل الآلاف الذين حرموا من العمل في مواقعهم .

وتباينت ردود فعل العرب الإسرائيليين بخاه هذا الانقضاض المنظم على حياتهم بل وعلى شخصيتهم، ولابد أن نتذكر أنهم قد عاشوا ومازالوا يعيشون في ظروف مختلفة تماما عن العرب الآخرين فقد ظلوا دائما يحكمهم أجانب أتراك، والبريطانيون، والإسرائيليون وقليلون منهم رأوا مدينة عربية مخت حكم عربي ومعظم السنوات الثلاثين الاخيرة كانوا في حالة من الضعف وفي موقف الدفاع تواقين إلى عمم جلاب الانتباه، فهم يدركون أن وضعهم شاذ، وأن أقلية عربية داخل دولة تكاد تكون في حالة حرب دائمة مع العالم العربي لابد وأن ينظر اليها نظرة شك من جانب حكومة تلك الدولة كما يعرفون أن كثيرين من الإسرائيليين يعتبرونهم وطابروا خامساء وأن بعضهم، مثل ديفيد شيكما، نائب عمدة تل أبيب، يدعون من آن لآخر إلى طردهم. أن هذه الخلفية هي التي خلقت مثل هذه المواقف المتباينة بخاه الدولة الصهيونية. وهي مواقف تتراوح بين الرفض التام أو الاستسلام أو حتى التعاون. ووفقا إسرائيل في الوجود، وبعتقد حوالي ثلثيهما أن حركة الصهيونية عنصرية. وبعضهم يسلم بأن الدولة سوف لاتختفي وأنه من الخطر المضي في محاولة رفضها، لكن أحدا منهم لايمكنه نسيان أن خلقها كان ظلما ألحق بشعبهم .

وعادة ما تكون لمواقف القبول أو المعارضة هذه أصول شخصية، ولايبدوا وجود أى انقسامات بين الطبقات الاجتماعية أو الأقاليم أو بين سكان الريف والحضر إلا أنه يمكن القول بوجه عام أن التجار ورجال الاعمال يميلون إلى أن يكونوا أقل عداوة للنظام من المثقفين، كما أن المسلمين أصلب في معارضتهم من الدوز أو المسيحين. لكن تباين المواقف واستحالة التعميم حولها يمكن اثباتهما بوجود التباين داخل الأسر. وأقوى الامثلة على ذلك أسرة الفاهرم من الناصرة، فمن بين خمسة اشقاء عين الإسرائيليين واحدا عمدة الناصرة، وأصبح آخر عضوا في الكنيست ينتمي إلى أكبر حزب سياسي صهيوني، وعلى الجانب الاخر اصبح احد الاشقاء قائدا للائتلاف القومي، الجبهة العربية، خلال الخمسينات بينما كان رابعهم عضوا مؤسس لمنظمة التحرير الفلسطينية وأصبح فيما بعد رئيسا للمجلس الوطني الفلسطيني .

ويمكن لتقسيم العرب الذين يقبلون إسرائيل ويتعاونون معها إلى فتتين: اولئك الذين اشتراهم النظام فعلا وأولئك الذين يشعرون أنه ليس هنالك بديل معقول. والاخيرون موقفهم انهزامي، ضرب من استجابة «فيشي» لشئ. هم على ثقة من أنه سوف يهزمهم دائما، وأنهم كرجال فيشي، يشمئزون من الذين يصرون على مواصلة النضال ويقولون: «لقد وجدت إسرائيل لتبقى ولذا من الافضل لنا أن نستغلها إلى أقصى حد ممكن. أننا مواطنون إسرائيليون وإذا كنا زيد يحسين الأمور، فإن علينا أن تكون مخلصين للدولة. وفي وضعنا لابد من أن نكون واقعيين .

أما مواصلة الاصرار على حقوقنا التى فقدناها على امتداد ثلاثين سنة خلت فإن ذلك ليس من شأنه غير تقديم ذريعة إلى إسرائيل لكى تواصل اضطهادنا ولقد كانت تلك النظرة تخظى منذ عشرين سنة بتأييد أكبر بكثير من اليوم. فلو أن هؤلاء المتشائمين تمكنوا من انتزاع بعض التنازلات الفعلية من الحكومة لربما تسنى لهم أن يبدوا على شيئ من المعقولية. لكن الإسرائيليين رفضوا مساعدتهم واستمروا في السياسات التي هي أساس السخط العربي وتتمثل في التفرقة بوجه عام ومصدرة الأراضى. وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا الزيادة الواسعة النطاق للراديكاليين والقوميين بين صفوف السكان العرب وخاصة الحزب الشيوعي .

أما العرب الذين اشتراهم النظام فهم خليط، في القاعدة يوجد المخبرون أو المتعاونون المأجورون وهم عادة من أرقى مستويات المجتمع وعملهم هو نفس عمل جواسيس الشرطة في كل مكان. وكان واجبهم خلال الحكم العسكرى، هو تقرير يومى من كافة أنشطة القرية وخاصة الأنشطة الثقافية أو السياسية .

وعند مستوى آخر يوجد قادة ومخاتير القرى ولم يكن هؤلاء يتقاضون رواتب كالخبرين ولم يكونوا متواطئين نشطين. ومع ذلك، كانوا عادة بين السكان العرب وفي مقابل بعض الامتيازات التي منحتهم اياها الحكومة، وكان يمكن الاعتماد عليهم في التحماد أية بوادر للروح القومية أو المعارضة. لكن هذه الطريقة أخذت في التلاشي بعمورة مطرده على مر السنين. ففي السابق كان الإسرائيليون يركزون على المائلة القيادية لقرية بعينها فيسير في ركابها غالبية السكان. أما الآن وقد أخذ التنظيم الاجتماعي للقرية بتفسخ ولم تعد السلطة مركزة في ايدى عائلة أو عائلتين، فإن المملاء يتلاشون .

وتتألف مجموعة ثالثة مؤيدة للنظام من أعيان وساسة المدن، وقد ارتبط معظمهم بالحزب السياسي الأكبر، حزب العمل الإسرائيلي وأن لم يسمح لهم، لأنهم عرب، بأن يصبحوا أعضاء فيه قبل سنة ١٩٧٣، وكان الحزب قد تشكل في سنة ١٩٦٨ باندماج ثلاث مجموعات عمالية، الماباي ورافي. وأحدوت هاعفودا. وبصورة أو بأخرى شكل الحزب حكومة إسرائيل في الفترة من ١٩٤٩ إلى ١٩٧٧.

وبعض المنضمين من العرب لحزب العمل الإسرائيلي يرشحون في انتخابات الكنيست وعادة ما ينتخب ثلاثة أو أربعة منهم. أما بالنسبة للحزب، فليست لهم غير وظيفتين: حث العرب على التصويت للحزب في الانتخابات والتمسك الشديد بسياسة الحزب بعد ذلك. وخلال الحكم العسكرى سهل من المهمة الاولى بالضغط الذى مارسه الضباط المؤيدون للماياى على الناخبين العرب. وفي احد الانتخابات، صوت كل العرب في اللد لصالح الماياى باستثناء زوجين صوتا المايام (حزب العمال المتحد). وفيما بعد التي القبض على الزوج، وقال له الحاكم العسكرى، وسأعلمك معنى التصويت للمايام، ثم ضرب العرب في داخل إسرائيل ينظرون دائما إلى أعضاء الكنسيت، فنادرا ما ألقوا خطبا حول المسائل الحساسة وفي مناسبة واحدة، عندما النقسم الكنيست بالتساوى حول موضوع ما اذا كان يجب الابقاء على نظم الدفاع (الطوارئ) السيئة أم لا، صوت الاعضاء العرب ضد الغائها. وهم اليوم موضع احتقار اكثر من ذى قبل ولايصوت لصالحهم في الانتخابات المحلية أو القومية غير عدد من العرب آخذ في التقلص. لقد بدأوا حياتهم السياسية زاعمين أن قبول إسرائيل والتعاون مع السلطات يشكلان الاساس المكن الوحيد للتعايش بين اليهود والعرب، وتمكنوا لمنوات عديدة من اقناع بعض الناس بأنهم الممثلون الحقيقيون للعرب الذين يناضلون من جانب الحكومات المتعاقبة التي صوتوا لصالحها في الكنيست قد زعزعت موقفهم من حانب الحكومات المتعاقبة التي صوتوا لصالحها في الكنيست قد زعزعت موقفهم من حانب الحكومات المتعاقبة التي صوتوا لصالحها في الكنيست قد زعزعت موقفهم من العديد من مؤيديهم إلى المسكر الراديكالي .

وأحد هؤلاء الضحايا هو سيف الدين الزعيى، وهو من كبار الملاك من الناصرة وعمدة سابق للمدينة. ففي عام ١٩٤٩ انتخب لكنيست كديمقراطي من الناصرة من حزب ينتمى للماباى وظل هناك طيلة معظم العقود الثلاثة التالية. والواقع أنه كان واحدا من مؤيدى المباباى القلائل الذين مخدثوا فعلا عن القضايا العربية وقد هاجم في الخمسينات علانية قانون الجنسية وقانون الاستيلاء ومخدث مؤيدا عودة اللاجئين. إلا أنه لم يكن بوسع أى مؤيد نشط لحزب جولدا مائير أن يحتفظ بعدد كبير من المؤيدين المدرب إلى مالا نهاية وفي سنة ١٩٧٥ هزم هزيمة ساحقة في الانتخابات لمنصب المرب إلى مالا نهاية وفي سنة ١٩٧٥ هزم هزيمة ساحقة في الانتخابات لمنصب

عمدة الناصرة. ففى انتخابات مباشرة لم يحصل الا على أربعة وعشرين بالمائة من الاصوات بينما حصل خصمه الشيوعي، توفيق زياد، على ثلاثة وستين بالمائة. ولما خيب سقوطه آماله استقال من الكنيست فى عام ١٩٧٩، موجها اللوم لكل من من المتطرفين العرب واليهود فى عدم مخقيق شكل مرضى من التعايش .

ويعتبر الدروز جماعة مختلفة من مؤيدى إسرائيل. فمن الناحية الرسعية لاتعتبرهم الدولة عربا ولذا فانهم يخدمون في الجيش الإسرائيلي وشرطة الحدود. ومن التاحية التاريخية تربطهم علاقات وثيقة بالصهاينة ولم يلعبوا أى دور سواء في الثورة العربية التي وقعت ما بين عامي ١٩٣٧ و١٩٣٩ أو في حرب ١٩٤٨. وبناء على ذلك فقد منحهم الإسرائيليون وضعية خاصة ولا يعانون الا قليلا من التفرقة الموجهة ضد العرب المسلمين والمسيحيين. فهم وحدهم من بين كل الطوائف العربية الذين لايماملون كأقلية وتعالج شعونهم هيئات الوزارات العادية بدلا من هيئات الأقليات الخاصة. كما أنهم ممثلون بشكل زائد عن الحد في البرلمان: فمع أنه لايوجد غير حوالي ٣٥,٠٠٠ درزى في إسرائيل اليوم، فإن لهم ثلاثة أعضاء في الكنيست بمن فيهم أمل نصير الدين، العضو اليميني المتطرف في الائتلاف الحاكم .

أن الدروز مثال صارخ لسياسة وفرق تسده التى تتبعها إسرائيل، لكن من غير المرجع، فيما يبدو، أن يستمر التحالف لفترة أطول. فالدور المتعلمون مثل الشاعر المتبوعي والمعادى بشدة للصهيونية سميح القاسم يعرفون تماما انهم دورز من حيث العقيدة وعرب من حيث القومية. فشعبهم عبارة عن هراطقة من الاسلام ينتشرون في جنوب سوريا واقليم الشوف اللبناني وشمال إسرائيل، وأيا كانت الخصائص الطائفية التي قد يكونوا اكتسبوها، فانهم عرب من الناحية العرقية واللغوية وكما تعلن لجنة المبادرة الدرزية المتزيدة النفوذ، واننا نتقاسم الدين العربي والتراث العربي، وماضينا

ومستقلنا عربي . كما أن الدروز الإسرائيليون يتعاطفون الآن مع اخوتهم في العقيدة في أماكن أخرى وقد فعلوا ذلك بوجه خاص مع السياسي اللبناني ، كمال جنبلاط، الذي قاد الحركة الوطنية العربية في لبنان على امتداد عشرين سنة حتى اغتياله في عام ١٩٧٧ ، وأحد مؤشرات نفوذ هذه الحركة هو عدد الدروز الذين فروا مؤخرا من الجيش الإسرائيلي أو الذين رفضوا أداء الخدمة العسكرية على أساس انهم طلاب دينيون أو عرب .

وكانت الطريقة الإسرائيلية في حل مشكلة التمثيل العربي هو الحاق عدد من العرب المستأنسين بالحزب الحاكم الرئيس. الا أنه لكي يتسنى لهذه السياسة النجاح، كان لابد من منع ظهور أحزاب عربية حقيقية. وقد تمكن الإسرائيليون من ذلك بنجاح عظيم: فبين عامى ١٩٥١و ١٩٦٥ كانت هناك سبع محاولات لتشكيل حزب عربي وفشلت جميمها .

بل أن مؤتمر العمال العرب، الحركة النقابية التي كانت تعمل خلال الانتداب قد أجهز عليه فور الاستقلال. وبما أن التنظيم النقابي الرسمي، الهستدروت كان محظورا على غير اليهود، فقد منع ذلك العرب بصورة فعالة من أن يكونوا أعضاء في تنظيم عمالي .

أما الحركات الاكثر خطورة، من وجهة النظر الإسرائيلية، فهى الجبهة العزبية التربية التي تشكلت عام ١٩٦٨، وجماعة الارض التى تكونت فى عام ١٩٦٨، وكانت الجبهة العربية ائتلافا نصر القوميين العرب والشيوعيين الذين شنوا حملة من أجل أنهاء مصادرة الأراضى والغاء الحكم العسكرى. وقد تشكلت الجبهة فى ذروة مد القومية العربية، عندما اطبح بالنظام الهاشمى الموالى لمريطانيا فى العراق وكان جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة وقد اثارت الجبهة حماسا هائلا بين

صفوف السكان العرب كما انها سببت قلقا بالغا للسطات الإسرائيلية. لكن الاخيرة الحجمت عن اعلان انها غير شرعية اذ كان ذلك سيؤدى إلى استعداء الاتخاد السوفيتي. وبدلا من ذلك قررت أن مجمل من المستحيل على الجبهة ممارسة نشاطها وذلك بحظر الاجتماعات وفرض القيود على سفر قادتها لكن الانقسام بين القوميين المعرب والشيوعيين في جميع انحاء العالم العربي أدى إلى انهيارها في نهاية المطاف .

وقد استخدمت اساليب أشد عنقا ضد جماعة الارض، التى أسستها المعارضة الوطنية العربية في عام ١٩٦٤. ففي ذلك العام قررت تسجيل نفسها كحزب سياسي وارسلت بيانا بسياستها إلى حاكم المنطقة .

ومع أن زعيمها، منصور قردوش، أعلن فى بيان مطبوع أن الارض تعتقد أن «الشعب اليهودى له حق فى دولة مستقلة خاصة به ، وفض حاكم المنطقة قبولها كمنظمة سياسية. وقال انها اقيمت بهدف «تهديد وجود وأمن دولة إسرائيل، وأكدت المحكمة العليا فى وقت لاحق القرار وحاول وزير اللفاع استخدام (الطوارئ) لمنع الجماعة تماما .

وفى العام التالى قرر أعضاء الأرض دخول انتخابات الكنيست وقدموا عددا من المرشحين سموا أنفسهم اشتراكيين وأوفوا كل شروط الترشيح، ولو أنه سمح لهم بدخول الانتخابات، لفازوا بالتأكيد لكن الإسرائيليين ردوا بطرد المرشحين من المناطق العربية – ونفى قردوش نفسه إلى صحراء النقب وتقييد تخركات مؤيديهم. وفى نهاية الأمر منعوا المرشحين من الاشتراك فى الانتخابات .

وفى إسرائيل اليوم لايزال أعضاء جماعة الارض القديمة نشطين فى السياسة المحلية وأن كان الاسم لم يعد له وجود. وقد انضم بعضهم إلى حركة تسمى ابناء الارض لاتزال تخوض نفس المعارك التى خاضعها جماعة الارض. ولاتزال مصادرة الأراضى هى القضية الرئيسية بالتسبة إلى العرب وسبب الراديكالية المتنامية فى الجليل في أول مارس ١٩٧٦ أعلنت الحكومة الإسرائيلية عن خطط لمصادرة الجليل في أدل مارس ١٩٧٦ أعلنت الحكومة الإسرائيلية عن خطط لمصادرة الاثر من لذان في المنطقة. وكان من المقرر مصادرة أكثر من نصف هذه الأراضى من ثلاث قرى متجاورة شمالى الناصرة: سخنين وعربة وديرحنا. وقد تمثل رد الفعل العربي في تشكيل لجنة للدفاع عن الارض دعت إلى اضراب عام في ٣٠ مارس وعشية الاضراب هاجم الجود والشرطة الإسرائيلية القرى الثلاث، وقتلوا ثلاثة أشخاص رميا بالرصاص وجوحوا كثيرين آخرين. وفي اليوم التالي كرروا العملية وقتلوا ثلاثة أشخاص آخرين. من اجل معاقبة العرب على احتجاجهم السلمي ضد سرقة أراضيهم، قتلت القوات الإسرائيلية ستة أشخاص، وجرحت تسعة وستين، واعتقلت ٢٦٠ آخرين. أن هذه الوحشية التي ارتكبت فيما يعرف الآن بـ قيرم الارض، لم يزد الرأى العام العربى الا تشددا ضد النظام وأصبحت القرى الثلاث، بنصبها التذكارى للشهداء، بؤرة لنطال العرب.

كما أن احدى نتائج الاضرار الجديدة تتمثل في القومية التقدمية، التي تتماون تماونا وثيقا مع ابناء الارض، وهي كتنظيم تعتبر أقل فمالية لكنها أكثر قدرة على الاستفزاز العلني .

فقى يناير ١٩٧٩، وقعت مشاجرة ضخمة فى إسرائيل عندما أعلنت مجموعة من أعضائها انهم ولا يعترفون بالكيان الصهيوني؛ وأعلنوا تأييدهم لمنظمة التحرير الفلسطينية .

كما أدانوا الحزب الشيوعي لأنه يعترف بدولة إسرائيل واتهموه بـ «محاولة اغتصاب قيادة النضال العربي الفلسطيني». وترفض الحركة، التي تتكون اساسا من الطلبة، فكرة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة تدعو إلى دولة ديمقراطية علمانية

فى كل فلسطين. ومع أن قادتها يعترفون بأن هدفهم قد لايمكن بلوغه لـ عشرات السنين، فانهم يرون ان واجبهم المباشر هو «تعليم» الشعب وتذكره يهويته الفلسطينية .

ولا يجتذب الحركة القومية التقدمية غير تأبيد طفيف خارج صفوف الطلبة ويرى كثيرون من العرب انها عنيدة واستفزازية، وانها ومجموعة من الطلبة السدج الذين يرفعون الشعارات، كما يعتقدون انها تعرض موقفهم للخطر وتوفر للإسرائيليين ذريعة لمواصلة اضطهادهم، أما الشيوعيون فيرمونهم بالتطرف وعدم الواقعية، وبرطانتهم المعهودة يدين اعضاء الحزب الحركة ولايديولوجيتها الشوفينية والبورجوازية الصغيرة ويشكو آخرون من أن الطلاب يحجمون المشكلات الحقيقية التي تواجه العرب، فهم يتصرفون كالمفتى باصرارهم على سياسة لايمكن شجاحها بينمتا كان ينبغى عليهم التركيز على المصاعب التي تواجهها الاقلية العربية كقطاع معدم داخل الدولة اليهودية

ورغم معارضة الحركة القومية التقدمية فإن الحزب الشيوعي أو وداكاح هو الحزب السياسي الوحيد الذي يمثل العرب في إسرائيل على الصعيد القومي والمستعد للدفاع عن حقوقها. وربما يعتبر ذلك نتيجة لوفض إسرائيل بقيام حزب قومي عربي. لكنه أيضا نتاج لمعارضة الحزب المستعرة لسياسات النظام الإسرائيلي منذ السنوات التالية للاستقلال مباشرة. لقد أيد الاتخاد السوفييتي في عام ١٩٤٧، الموقف الأمريكي وصوت في صالح التقسيم. ونتيجة لذلك كان الحزب الشيوعي الإسرائيلي موضع شك من جانب السكان العرب لبضع سنوات. بيد أنه سرعان ما أصبح من الواضح أنه التنظيم الوحيد القادر على مواجهة الحكومة. وعندما المجمه عبد الناصر، الذي كان يتمتع بشعبية بين العرب الإسرائيليين وكذلك في البلدان العربية، إلى الانتخاد السوفييتي في نضاله ضد الفرب، ارتفعت مكانة الحزب. وفي الوقت الذي كانت

إسرائيل تتمتع فيه بدعم قوى من جانب بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة قوبلت بالحماس مبيعات الاتخاد السوفييتي من الاسلحة لمصر ومساعدته في بناء السد العالى في اسوان. وقد انخفض أسهم الحزب مرة أخرى مع سقوط الجبهة المربية في عام ١٩٥٥، لكن فشل جماعة الارض في عام ١٩٦٥، جعله الحزب الطبيعي الوحيد للمشقفين ولقوميين، أن واحدا من أروع الشعراء الفلسطينيين، توفيق زياد، عضو في الكتيست عن راكاح، كما يشغل شاعرا آخر، سليم جبران، منصب الامين العام لفرع الحزب في الناصرة.

ومع أن بعض مسعوليه يعترفون بأنهم لم يقرأوا ماركس قط ويفضلون تذيين غرفهم بصور عبد الناصر بدلا من صور لينين، فإن راكاح مايزال بميدا جدا عن تطوير نوع من والشيوعية الأوروبية، أن علاقات الحزب مع موسكو وثيقة وتنظيم الحزب قائم على أسس سوفيتية كلاسيكية. فللحزب مكتب سياسي ولجنة مركزية وعضوية مقسمة بالتساوى تقريبا بين العرب واليهود، وأن كان مؤيدوه من العرب أساسا وفي الانتخابات القومية، يقدم راكاح أكثر من تسمين بالمائة من قوة التصويت لصالح الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة التي كسبت خمسة أعضاء في الكنيست (من بين ١٢٠ عضوا) في انتخابات ١٩٧٧. وثلاثة منهم أعضاء في راكاح، وواحد منهم قائد للفهود السود والخامس رئيس لاتخاد العمد العرب. كما أن صلات الحزب بالحركة القومية بيد تأكيدا لها في الانتخابات المحلية. ويفضل راكاح العمل في تخالفات، وعلى سبيل المثال، فإن الجبهة الديمقراطية في الناصرة، والتي يهيمن عليها راكاح ايضا، تضم كذلك مستقلين، ورابطة اكاديمية الناصرة، ونقابة التجار، والمستقلين، وابطة اكاديمية الناصرة، ونقابة التجار، والمستقلين، وابطة اكاديمية الناصرة، ونقابة التجار، والمستقلين، وابطة اكاديمية الناصرة، ونقابة التجار، والمستقلين، والمخاد طلبة الناصرة .

وبالرغم من التزامه الشديد بخط موسكو فإن راكاح حزب شعبي ويأتي مؤيدوه

من كل قطاعات الطائفة العربية باستثناء القرى الصغيرة حيث لايزال التصويت على أساس الجاملة ساريا، والبدو .

وفى معظم المدن يظفر راكاح الآن بين ثلثى وثلاثة ارباع أصوات العرب، منتزعا آلاف الاصوات التي كانت تؤيد في يوم من الايام حرب الماباى والحزب الدينى القومى. (من السهل تفسير الظاهرة الغريبة المتعلقة بتصويت العرب لصالح حزب دينى يهودى. فالحزب الدينى القومى يتقلد عادة وزارتى التعليم والداخلية: وهكذا فإن المدرسين وموظفى هاتين الوزارتين يجرى وتشجيعهم، على التصويت لصالحه).

وليس ذلك لأن العرب في إسرائيل شيوعيون متحمسون فمؤيدو راكاح يتجاوزون عدد أعضاء الحزب الشيوعي بنسبة اكثر من مائتين إلى واحد بل لأن الحزب هو الحزب الوحيد في البلاد المستعد لاتخاذ موقف حول القضايا الأساسية اليومية المتعلقة بالمصادرة والتفرقة .

ويمثل توفيق زياد النهج العملى والواقعي للحزب، فزياد الذي ولد عام ١٩٣٠، وأصبح عضوا في الحزب وهو في الثالثة عشرة من عمره، قد سجن ثماني مرات منلا عام ١٩٤٨، وفي نوفمبر ١٩٥٥، ضرب وعنب بعد القائه خطبة في طبرية. وقد انتخب للكنيست في عام ١٩٧٣، وأصبح عمدة للناصرة بعد ذلك بسنتين. وهو شاعر وكاتب رقيق العود يمشى متشاقلا وقد غزا الشيب شعره قبل الاوان وتعلو شفتيه ابحسامة متعبة. وخلافا لكثير من الماركسيين، نادرا ما يهبط إلى مستوى وكاتب الكراسات، وسياسته عملية دائما. وهو عربي وقومي لكنه واقعي ايضا، ولعله يمثل الموقف العربي الإسرائيلي تمثيلا جيدا كأى واحد آخر، ومن المؤكد أنه يمثله تمثيلا أفضل من طلبة الحركة القومية التقدمية الغاضبين، فزياد، لايعرف الدق على الصدر، وعد الحديث الفارغ عن حقوق لايمكن بلوغها، وسواء اراد ذلك أو لم يبرد، فانه

مواطن فى إسرائيل وتتمثل سياسته فى العمل من أجل المساواة والحقوق القومية التامة للعرب داخل اطار الدولة الإسرائيلية. انه عنصر هادئ غير انه لا وجود هنالك لبديل معقول، فى ضوء الخيارات الاخرى المتاحة أمام العرب فى إسرائيل ومركزهم الحرج فى الدولة الصهيونية .

القدس والأراضى المحتلة

القدس مدينة الديانات التوحيدية الثلاث الكبرى فيها عاش اليهود والمسيحين والمسلمون طيلة تاريخها تقريبا، وداخل أسوارها أماكن مقدسة هامة لكل الديانات الثلاث، وفي الغالب الاعم نعمت كل ديانة بحرية زيارة تلك الأمكان، لكن بينما لا ينتمى القدس لدين بعينه فانها تنتمى لشعب معين، فهي مدينة عربية من حيث طابعها وتكوينها وباستثناء ثلاث فترات قصيرة ابان الحروب الصليبية، ظلت القدس على هذا الحال طيلة ١٩٣٠، سنة ولا تزال إلى اليوم على ما كانت عليه وان طرد منها عدة الأف من سكانها العرب في خلال السنوات الأخيرة الماضية وحل محلهم يهود.

وقد اخترق خط هدنة عام ١٩٤٩ القدس من الشمال إلى الجنوب فظلت المدينة القديمة، المسورة ومناطق قليلة ناحية الشمال في أيدى العرب في حين أن المدينة الحديثة في الغرب بضواحيها العربية واليهودية، أصبحت جزءا من إسرائيل. وفي يوليو عام ١٩٦٧م استولى الجيش الإسرائيلي على المدينة القديمة لتضمها الحكومة بعد أسابيع ثلاثة ووصف الإسرائيليون ما قاموا به بأنه وتوحيده أو وتعايش لكنه لم يكن شيئا من هذا القبيل بل كان احتلالا غير شرعى. وكما يقول كاتب إسرائيلي. هو عاموس ايلون، انه نفس التعايش القائم بين راكب الجواد وجواده، وأن وعبارة ادايان والحياة معاً تعنى حكم الشعب لآخر.

وتبرهن جولة قصيرة حول المدينة على أن ايلون على حق. فالميدان الكبير أمام حاتط المبكى الذى أقيم مكان حى المغرب القديم والذى طرد سكانه البالغ عددهم مدود شخصا بعد انذار لم يدم سوى لحظات قليلة في عام ١٩٦٧، ليس رمز «التعايش» والجنود الإسرائيليون الذين يمشون في الأسواق بخيلاء أمام سكان عابسين لا يظهرون مزايا الحياة معا.

وليس ثمة ما يصور التحكم الصهيوني تصويرا أفضل من المنظر الذي يشاهد من جبل الزيتون: ففي وسط المسافة تقف الاسوار العظيمة للحرم الشريف، الحرم الاسلامي الذي يضم المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ومن خلفه تظهر قباب القبر المقدس، وفي الفسق يعتد رنين الاجراس من الكنائس وآذان المؤذنين من المساجد لتخترق جثيماني ووادي قيدرون. لكن تأثير هذا الالتقاء على غير موعد يبدده الشبح الكامن من خلفها. شبح الفنادق الإسرائيلية الجديدة الضخمة التي تنظر في غطرسة إلى المدينة القديمة. وعندما ينظر المشاهد شمالاً وجنوباً على حد سواء سوف يدرك مدى التحكم الإسرائيلي. فالقدس مطوقة بالعقارات السكنية اليهودية المشيدة فوق الأراضي العربية المصادرة والتي عقل موقعا استراتيجيا على قمم التلال المحيطة، عازلة المدينة من قلبها العربي.

لقد كان ضم إسرائيل للقدس عملا غير شرعى عا دفع المجتمع الدولى إلى ادانته فبعد أسبوع من و التوحيده أصدرت الجمعية العامة للأم المتحدة قرارا يدعو إسرائيل إلى الغاء كل الاجراءات التى اتخذتها والابتعاد من الآن فصاعدا عن أى عمل من شأنه تفيير وضع القدس. ولم تصوت دولة ضد هذا القرار - باستثناء إسرائيل بالطبع - ولم يتحدث مندوب واحد مؤيداً قيام إسرائيل بضم القدس، وقد رد الإسرائيليون بأن القدس لا يجب أن تكون مجزأة مرة أخرى مؤكدين بأن مزايا والتوحيد، سوف تشمل كل قطاعات السكان بالتساوى، لكن السنوات التالية لم تكشف عن دليل لهذا التأكيد، بل أن العمدة اليهودى للمدينة والمرحدة، حديثاً (فقد طرد العمدة العربى التأكيد، بل أن العمدة إلى الأردن أعرب عن أسغه إزاء والموقف الإسرائيلي المتعنت للمدينة القديمة إلى الأردن) أعرب عن أسغه إزاء والموقف الإسرائيلي المتعنت والعدائي وانتقد عجز حكومته والكامل، عن قيام حياة القدس الشرقية (أى العربية) وثقافتها وفي مجال الاسكان نجد الدليل على ذلك، فغي حين شيدت عشرات الآلاف من المساكن الجديدة للمستوطنين اليهود على مشارف القدس، لم يس شي للسكان

العرب بالرغم مما تعانى منه المدينة من ازدحام شديد. وفقط بعد عام ١٩٧٩ أى بعد أثنى عشر عاما من بدء الاحتلال، أقيمت أولى المساكن العربية -- وهي عبارة عن مجموعة من الوحدات السكنية المكونة من غوفتين بالقرب من ميثالي.

لقد تصور نفر قليل من العرب على نحو متفائل أنهم سوف يفيدون من
«التوحيد» وكان أواعك الأفراد ممن لهم ممتلكات في القدس الغربية لكن انتهى يوم
المطاف باللجؤ إلى الجانب الآخر من خطوط هدنة عام ١٩٤٩، وعدد ما تم ضمهم
في عام ١٩٦٧، وقيل لهم أنهم أصبحوا مواطنين إسرائيلين توقعوا على الأقل أن
يسمح لهم باسترداد ممتلكاتهم. لكن شيئا من ذلك لم يحدث على الاطلاق. فحيث
أنهم كانوا «غائبين» في عام ١٩٤٨ لم يعد لهم أى حق فيها. ان محمد جاد الله،
وهو ابن مفتى سابق للقدس فقد داره وأرضه في عام ١٩٤٨ وصار لاجئاً.

وفى عام ١٩٦٧ أستولى الإسرائيليون على بيتى الثانى وضعوا مدينتنا وقالوا لنا أتنا مواطنين إسرائيلين، ولهذا ذهبت إلى الحكومة الآسرائيلية ومعى مستند ملكية وقلت: هبما اننى الأن من رعايا إسرائيل، فهل تردون لى أرضى ٩٣ كانت الارض شاغرة، ولم يكن هنالك أحد يقيم فى دارى. لكنهم رفضوا دون ابداء أية أسباب. لقد تمدر عليهم ذلك لأنه لم يكن لديهم سبب منطقى. فأناس منطقيون فى كل شئ آخر لا يبدون منطقيين عند ما يتعاملون معنا نحن الفلسطنيين.

وفى السنوات التى أعقبت حرب ١٩٦٧، صادر الإسرائيليون حوالى ثلالين فدانا من المبانى داخل المدينة القديمة، مكان الحى اليهودى التقليدى، وحتى قبل عام ١٩٤٨، كانت ممتلكات اليهود أقل من عشرين بالمائة من مساحة المنطقة لكن ذلك لم يمنع الإسرائيليين من الاستيلاء عليها كلها وطرد أكثر من ٥,٠٠٠ عربى من ديارهم أما المصادرات خارج الأسوار فجرت على نطاق أوسع، اذ تمت خلال السنوات

الخمس الأولى للاحتلال مصادره نحو 4.00 غذان من الأراضى العربية فى القدس العربية، وينهاية عام ١٩٧٨، كان قد صودر ٢٣, ٦٤٠ فدانا فى منطقة القدس الشرقية العربية، وينهاية عام ١٩٧٨، كان قد صودر ٢٦, ٢٠٠ مستوطن يحيون فى أراضى عربية، لكى تكون مواقع لمساكن يهودية وكان ٢٦,٠٠٠ مستوطن يحيون فى أراضى عربية، وقد أضفى على العملية كلها، كما هى العادة، وجه شرعى وتمكن الإسرائيليون من تنفيذها بموجب قانون الاستيلاء على الأراضى للأغراض العامة الصادر فى عام ١٩٤٣، ولم يكن هذا القانون، شأنه شأن القوانين الأخرى الرامية إلى تسهيل المصادرات داخل إسرائيل نفسها سوى تغطية هدف أصلى مغاير تماما. وكما أشار أرنولد سباير وهو محام إسرائيلى ناجع، قائلاً اننى لا أفهم كيف يمكن أن يعد غرضا عاما نقبل أسرة عربية واحلال يهود محلها ... أنهم (الإسرائيليون) يخلقون ارابين (منطقة خالية من العرب) لا يمكن الدفاع عنها من الناحية الأخلاقية بأكثر نما يمكن الدفاع به الحبوديون (منطقة خالية من العرب) لا يمكن الدفاع عنها من الناحية الأخلاقية بأكثر نما يمكن الدفاع به الحبوديون (منطقة خالية من العرب) المهود، فى أوروبا قبل الحرب الأخيرة.

ويسمى عرب القدس هذه العملية وتهويده المدينة المقدسة فهم يريدون اعدادهم تتناقص بينما يستوطن أراضيهم مهاجرين يهود من الإنخاد السوڤيتى وأماكن أخرى، كما يرون المبانى الضخمة التى هى أشبه ما تكون بالقلاع وقد أخذت مخيط بمدينتهم وتكاد تقطع صلاتهم التقليدية مع مدينتى رام الله وبيت لحم، كذلك يسمعون عن خطط الحكومة بالنسبة لمستقبلهم : فقد نقل عن وزير الاسكان قوله: ان الخطة الرئيسية هى جعل القدس أكثر يهودية ووورد أن وزير الهجرة أعلن أن الشئ الجوهرى بالنسبة للقدس هو وجود غالبية يهودية ساحقة ومستقرة بصفة دائمة، وهم يسمعون دايان وهو يقول أن والقدس قد لا تكون جميلة، لكن الشئ الهام هو أنها سوف تبنى بحيث تمتد من عنانا شمالاً إلى بيت لحم جنوبا، ومن تلال يهودا شرقاً إلى النبي صموئيل غربا، كذلك يراقبون العالم كله وهو يدين سلوك إسرائيل – من الام المتحدة إلى التايمز، ومن أرنولد توين إلى يهودى مينوهين – بينما لا يمير الإسرائيليون كل

هؤلاء أى اهتمام وقد تأثر آرثر كوتشير، وهو مسئول تخطيط سابق للمدينة القديمة، إلى حد أنه كتب يقول: ان ادراك حد أنه كتب يقول: ان ادراك الاساس المشترك بأن جوهر القدس الروحي يرتبط ارتباطاً لاينفهم بخصائصها العرقية الملموسة، وهي الوعي الذي تؤكده أربع آلاف سنة من البناء في المدينة – هذا الادراك لا يتعرض الآن للتجاهل فحسب بل أصبح لا يحظى بالاعتراف. وبدلا من ذلك ظهر اسلوب جديد للتفكير حول القدس وهو آن المدينة مصدر يجب استغلاله، وخصائصها الروحية المرثية سلم تباع وتشتري.

لقد كانت القدس، قبل الضم، عاصمة الضفة الغربية والهضاب الوسطى التى تتألف من منطقتى يهودا والسامرة وقلب فلسطين القديمة. وطبيعة يهودا قاسية وجافة ومن معالمها الرئيسية خط المدن الجبلية الممتدة شمالا من الخليل عبر بيت لحم القدس ورام الله والبيره.

أما السامرة فهى أرق وأكثر خصوبة، اذ تنتج الزيتون والفاكهة، وتهيمن عليها نابلس، وهى مدينة عربية كبيرة تقع بين التلال التاريخية لاربيال وجيريزيم، وإلى شمالها تقع مدينة جنين التجارية، على حافة وادى اسدراليون ؟ وإلى الغرب تقع قلقيلية وطولكوم بالقرب من حدودو هدنة عام ١٩٤٩، على السهل الساحلى تقريباً، وعلى الجانب الشرقي من التلال، على بعد أميال قلقيلية شمالى البحر الميت، تقع اربحا، ١٠٠٨ قدم مخت سطح البحر، والمدينة الوحيدة في وادى الأردن. وإلى جانب غزة وقطاع الأرض الصغير المحيط بها، كانت الضفة الغربية هى المنطقة الوحيدة التى افلتت من الغزو الإسرائيلي عام ١٩٤٨، ويجدر النظر إليها في شئ من التفصيل، لأن الضفة الغربية – رغم أن إسرائيل قد احتلتها منذ عام ١٩٢٧، ورغم أن عددا كبيرا

الفلسطيني فيها يكاد يماثل بيئته الطبيعية.

فقد استمرت المنافسة بين عائلتي الحسيني والنشاشيبي خلال وبعد حرب ١٩٤٨. فقد أقام المفتى وحكومة فلسطين، في غزة في خريف ١٩٤٨. واعترف مؤتمر الأعيان بالضفة الغربية الذي عقد في اربحا في مايو ١٩٤٩ بالملك عبد الله، في شرق الأردن وحليف راب النشاشيبي وملكا لكل فلسطين، وأعيدت تسمية شرق الأردن بالاردن وضمت رسميا إلى القدس الشرقية والضفة الغربية في عام ١٩٥٠، وان كان قرار البرلمان الاردني باتخاذ هذه الخطوة قد أعلن صراحة أنها من أجل وصون كل حقوق العرب في فلسطين، وأنها لاتضر التسوية النهائية لقضية فلسطين والعادلة، وقد عين النشاشيبي نفسه حاكماً عسكريا للمنطقة التي جارى ضمها.

ولعل توحيد ضفتى النهر كان، وقتئذ ، أكثر الاجراءات معقولية، فقد كان شعب الضغة الغربية على درجة من الضعف والارتباك يتعذر معها تشكيل دولة خاصة، وعلاوة على ذلك، فإن عبد الله النشاشيبي، والذين كانوا يخططون لهذا الحل منذ مشروع بيل للتقسيم لعام ١٩٣٧، كانوا يشعرون بأنهم أحق بالضفة الغربية من المفتى. وعلى أى حال، فإن أداء جنود شرقى الاردن التابعين للفيلق العربي هو الذي حال دون استبلاء الإسرائيلين على المنطقة كلها.

وكانت المشكلات التى واجهت الضفة الغربية بعد حرب ١٩٤٨ عويصة فمن الناحية الاقتصادية، كانت تتجه دائماً ناحية الغرب وكانت بخارتها ترتبط أرتباطاً وثيقاً بالساحل. أما الآن فقد اضطرت إلى الانجاه ناحية الشرق. وفي السابق لم يكن النهر والصحراء الممتدة خلفه يلعبان دوراً في وجودها، أما الآن فقد اصبح عليها أن تتطلع إليهما حتى يتسنى لها البقاء، وتاريخيا كانت بجارة الخليل مع بثر سبع وميناء غزة، وكانت لنابلس علاقات اجتماعية واقتصادية وثيقة مع قرى المثلث، أما اليوم فقد عين

على المدينتين أن تتجها شرقى ناحية عمان. وكان الأمر أسوأ من ذلك بالنسبة لمدينتي طولكورم وقلقيليه اللتين تطلان على البحر المتوسط، فبعد عام ١٩٤٨، حرمت ليس فقط من منافذهما التقليدية إلى البحر، بل فقدتا أيضاً معظم أراضيهما الواقعة في السهل نفسه.

وبدلا من الحقول الغنية التي كانوا يفلحونها في السابق والتي كانوا يبيعون محصولها للمدن الساحلية، أصبح سكان قلقيلية أن يتجهوا إلى التلال غير الخصبة خلف ديارهم وان كانوا يحاولون بيع محاصيلهم الهزيلة الجديدة للاسواق الفقيرة في الشرق، وقد واجهت القدس مصاعب مماثلة إذ كان التوسع الطبيعي للمدينة دائماً نحو الغرب على طول طريق يافا، وخلال هذا القرن أقيمت معظم المباني الجديدة – عربية وبهودية وأجنية – غربي المدينة القديمة.

وفى عام ١٩٤٨ تم قطع محور القدس – يافا ليجد عرب المدينة القديمة أنفسهم وقد حرموا من الوصول إلى الغرب. ولما كان الطريق الرئيسي إلى بيت لحم قد أغلق بدوره وحال وادى قيدرون وجبل الزيتون دون التوسع شرقاء ألمت بالقدس العربية نكسة أقتصادية كبرى بعد عام ١٩٤٨، وأصبحت معتمدة بالكامل تقريبا على عمان.

وكان النظام الأردنى حريصاً على صون أكبر قدر ممكن من الاستمرارية فى الضفة الغربية. وعلى مستوى أعلى، كان من السهل دمج بقايا أنصار النشاشييي السياسيين فى الإدارة وحتى عام ١٩٦٧ كان هنالك دائماً عدد من أعيان الضفة الغربية فى المناصب الكبيرة فى مجلس الوزراء. وقد عمل أحمد طوقان، خريج جامعة أكسفورد الذى ينتمى إلى واحدة من عائلات نابلس البارزة، وزيرا للتعليم، ووزيرا للخاع ورئيساً للوزراء وفى أحدى مراحل الخمسينات رأس أربع لزارات فى وقت وأحد، وعلى صعيد محلى، تمكن الاردنيون من الاحتفاظ بثيوخهم

التقليديون وملاك عقاريين آخرين كعَمد في المدن كما حرصوا في القرى على الإبقاء على منصب المختـار الذى كانوا قـد ورثوه من العـثـمـانيين ومن سلطات الانتـداب البريطانية.

وفى ظل الحكم الأردنى كان فلسطينى الضفة الغربية أفضل شعوب العالم العربية تعليما. وكانت نسبة طلبتهم إلى السكان أعلى منها فى أى بلد فى أوروبا وعشرة أضعاف ماهو عليه بين العرب فى إسرائيل، وفى القرى التى أقيمت بين الفيفة الغربية وإسرائيل بخط هدنة عام ١٩٤٩، كانت نسبة الطلبة إلى كل آلف من السكان على الجانب الأردني ستة أضعاف ماهى عليه فى الجانب الإسرائيلي. ان معظم فلسطينى الفضة الغربية وخاصة أولئك الذين يدرسون الطب والهندسة، قد التحقوا بجامعات فى القاهرة، وذهب آخرون إلى سوريا، وغالباً إلى كلية الحقوق فى دمشق، كما توجه عدد قليل إلى لبنان والعراق وانطلقت حفنة إلى أوروبا. ولدى عودتهم إلى

الضفة الغربية للعيش في ضواحي نابلس أو رام الله الجديدة ضاق هؤلاء الأطباء والمحامون المتعلمين في الغالب ومع والمحامون المعالمة الاعيان المحافظة والمخاتير غير المتعلمين في الغالب ومع ادخال الانتخابات المحلية، تمكنوا من فرض بعض القيود على سلطات العائلات التقليدية. غير أنه لم يحدث الا مع انتخابات ١٩٧٦، التي جرت بموجب القادون الاردني وشخت الإشراف الإسرائيلي أن الحقت الهزيمة بالقادة الموالين للأردن وقد نحى الشيخ الجعبرى، أشهرهم على الاطلاق، من منصب العمدة في الخليل.

لقد كان جانب من التدهور الاقتصادى للضفة الغربية بعد عام ١٩٤٨ لتيجة حتمية للحرب وقيام إسرائيل: لقد أصبحت المنطقة في حالة ركود تنفلها طرق التجارة المجديدة التى تمتد من البحر الأحمر إلى عمان عبر المقبة ومن البحر المتوسط إلى عمان عبر بيروت. ولم تكن بها مواد أرلية ولم تكن تملك غير قليل من الصناعات التي تتجاوز مستوى الورش والحرف، كانت أرضاً للملكيات الزراعية الصغيرة التى شكلت أساس اقتصادها، وبالرغم من أن التنمية الاقتصادية كانت طفيفة، أزدهرت بعض المدن لأسباب أخرى. إذ ساعدت كلا من الخليل ورام الله نخويلات المهاجرين العاملين في البلدان المنتجة للنفط. كما استفادت القدس دائماً من السياحة، وفي السيانات بدأت تشهد نوعاً من الازدهار في مجال الفنادق، كما تدعم اقتصاد بيت لحم بفضل نمو السياحة وتطور الصناعات اليدوية المجلية من خشب الزيتون وعرق اللولؤ. واستفادت اربحا فعلاً من الحقائق الجغرافية الجديدة، إذ كانت تقع بالقرب من طريق القدس – عمان. وإن كانت قد أقيمت بالفعل كمشتى بنيت فيه عائلات القدس أعادلتى قطان والعليمي يونا لها فقد ساعد في جوها تدفق اللاجمين الذين وفروا الايدى العاملة واكتشاف موسى العليم للمياه في الصحراء الجاورة.

لكن اقتصاد الضفة الغربية ظل بوجه عام في حالة كساد ولم يكن النمو

الطفيف في الزراعة كافياً لملاحقة الزيادة في سكان الريف. ومنذ عام ١٩٦٧، مخت الاحتلال الإسرائيلي، لم يطرأ على الاقتصاد أي تحسن ويبدو سيئًا للغاية إذا ما قورن بالتنمية في الضفة الشرقية، وكان النشاط الصناعي والتجاري هو الضحية الرئيسية لأن أيا منهما لم يجد مجالاً كبيراً في ظل النظام الإسرائيلي الجديد. وخير توضيع لمشكلات الضفة الغربية نجده في مدينة نابلس، أكبر المدن في الضفة الغربية بعد القدس، حيث يسكنها ٨٠,٠٠٠ نسمة. لقد تركزت حياتها الاقتصادية دائماً في حفنة من الصناعات الصغيرة والمزارع المحيطة بها. فبالإضافة إلى صناعة الصابون الشهيرة بها ومصنع كبريت ممتاز، كانت نابلس تنتج علب الصفيح والزيوت النباتية والشيكولاته ومنذ عام ١٩٦٧، تعانى من تدهور خطير فقد أغرقت المنتجات الصناعية المدعومة في إسرائيل السوق وأدت إلى إغلاق بعض المشاريع كمصنع الكبريت، بينما تقلصت بشدة الصادرات إلى الاردن. الأمر الذي اضطر معه رجال اعمال نابلس أن يدخلوا في منافسة مع أردني الضفة الشرقية على أسس في غير صالحهم تماما، فهم لا يستطيعون استيراد المواد الأولية عن طريق إسرائيل ولا يمكن إلا للمصانع التي أقيمت قبل عام ١٩٦٧ أن تصدر سلمًا إلى الاردن. وإلى جانب ذلك، فإن التكاليف والضرائب أعلى بكثير في ظل الاحتلال الإسرائيلي منها في الاردن. وكانت نتائج ذلك بالنسبة إلى نابلس هي الكساد الاقتصادي والبطالة الواسعة النطاق.

ان عدم توفر فرص العمل هو أحدى المشكلات الكبرى التى تواجه الضفة الغربية، الأمر الذى ربما يدفع ثلث القوة العاملة إلى البحث عن عمل غير ماهر داخل إسرائيل ويدفع معظم المتعلمين إلى الخارج. ومن بين سكان الضفة الغربية البالغ عددهم حوالى ٢٠٠,٠٠٠ معظمهم من المتعلمين الذين لا يجدون عملاً في بلدهم ولمعظمم أسر الضغة الغربية أبناء أو أبناء أخوة يعملون في الخرج، أما في الخليج أو في الغرب، وأى علامة على الازدهار في

رام الله أو نابلس أو الخليل اليوم أنما ترجع عادة إلى تخويلات هؤلاء المهاجرين .

لقد كان العقيد صلاح جلاد رئيس شرطة سابق في يافا قاتل في العلمين وعمل مع جلوب في الفيلق العربي، وهو يعيش الأن بمفرده في طولكرم، اذ يعمل ثلاث من أبنائه في الولايات التحدة والثلاثة الآخرون يعملون في الخليج. والهجرة مهرب ليس فقط للمتعلمين وأنما أيضاً للعمال المهرة، وفي مركز التدريب المهني في قلندية قرب رام الله، يمكن للصبيان الاختيار بيت تعلم اللحام والسمكرة والنجارة. وصناعة الأدوات الآلية والكهرباء وميكانيكا السيارات والبناء ، وبعد التخرج تنزح أغلبية المتدربين في كل التخصصات باستثناء النجارة.

ويمكن تقدير حجم الهجرة من الضفة الغربية بالقاء نظرة على احصاءات سكان القدس المسيحين. فوفقاً لما يذكره فايق حداد، أسقف الكنيسة الانجيلكانية، كان القدس المسيحي في القدس عام ١٩٤٨ وفي ضرّة معدل النمو الطبيعي للسكان كان لابد أن يصل هذا العدد اليوم إلى نحو ٥٠,٠٠٠ لكن في سنة ١٩٦١ هبط الرقم إلى ١٣,٠٠٠ في قطاع المدينة الخاضع للسيطرة العربية. واليوم لا تضم القدس كلها غير ٩,٠٠٠ مسيحي، وفي حين أن إسرائيل قد رحلت بعض المسيحين، قليلين هم الذين يمكنهم المجادلة في أن السبب الرئيسي للنزوح الجماعي هو عدم وجود فرص للعمل إلى جانب الآلار المحيطة الناجمة عن الاحتلال الإسرائيلي.

لم يكن أنهيار الضفة الغربية منذ عام ١٩٦٧ غير مقصود، فهو النتيجة المباشرة السياسة الحكومة الإسرائيلية التى اختارت استغلال المنطقة (وكذلك غزة) لتنمية اقتصادها الخاص، والملاقة بين إسرائيل والأراضى المجتلة كالعلاقة بين قوة استعمارية ومستعمراتها. فقد وصف ميليسيا لانجير المحامية الإسرائيلية، هذه العلاقة وتطورها، وكيف أصبحت الضفة الغربية مع غزة ومعينا لاينضب من الايدى العاملة الرخيصة

وسوقا للمنتجات الإسرائيلية، وأراضيها مكانا للاستيطان وآبارها مصدراً للذهب الأسوده.

وتعتبر المياه والعمالة من أهم الفوائد الاقتصادية العديدة التى مجنيها إسرائيل من الضفة الغربية، فكلاهما حيوى لبقاء الاقتصاد الإسرائيلي. ودون الملمين الذي لا ينضب من الايدى العاملة الرخيصة ال قطاعات عليدة، كصناعة التشييد، سوف ينضب من الايدى العاملة الرخيصة الم ١٩٧٨، كان هنالك ٢٥,٠٠٠ عامل مسجل من الأراضي المحتلة يعملون في إسرائيل من بينهم ٢٠٠٠، عامل من الضفة الغربية والآخرين من غزة وشمالي سيناء. لكن هؤلاء هم العمال المسجلون فقط. ويقدر بعض الإسرائيليين بأكشر من ١٠٠٠، عربي من الأراضي المحتلة يسافرون يوميا إلى إسرائيل ويعودون منها.

وإذا كان حوالى نصف القوة العاملة للضفة الغربية يعمل خارجها فإنه لا غرابة أن تكون المنطقة في تدهور اقتصادى. لقد كان لنقص الأيدى العاملة آثار ضارة على زراعة الزيتون وعلى تربية الخراف والماعز. أما المهاجرون اليهود فبمجرد وصولهم إلى إسرائيل يوجهون إلى المصانع أو المزارع أو مواقع البناء. ومعظم الاعمال الحقيرة في تل أبيب - جمع القمامة وغسل الأطباق وما إلى ذلك - يقوم بها عرب، بينما تأخذ صناعة التشييد اكثر من نصف عمالتها من الارأضي المحتلة. ومواقع البناء الكبرى في القدس -حيث يجرى بناء الآف الشقق على الأرض العربية لاستعمال اليهود وحدهم يعمل فيها الفلسطنينون وحدهم قريا.

لكن استغلال الضفة الغربية أكثر من ذلك تعقيدًا. فقد فرض الإسرائيليون رسومًا جمركية مرتفعة على كل الواردات إلى الأراضى المحتلة من أى بلد غير إسرائيل، ولا يفــيد ذلك كثـيـرًا المنتجين المحليين الذين يعجزون عن منافسة رجال الصناعة الإسرائيليين، لكنه يضمن حصول تلك المناطق على تسعين بالمائة من واردائها من إسرائيل. وقد فعلت الحكومة الإسرائيلية الكثير لزيادة تدفق السلع الإسرائيلية إلى الضفة الغربية, وعلى سبيل المثال يتمتع منتجو الالبان بدعم حكومي ضخم، ومن ثم بات باستطاعتهم التغلب على منافسيهم العرب، وكانت التيجة النهائية أن أصبحت اقتصاديات الأراضي المحتلة معتمدة على إسرائيل، وهذه التدابير تعمل بنجاح لعمالع إسرائيل. فالضفة الغربية، وغزة هما الآن أوسع ثاني سوق لصادرات إسرائيل (بعد الولايات المتحدة) لكن مساهمتها في واردات إسرائيل لا تزيد عن نسبة النين يالمائة، وهي نسبة تافهة. وفي عام ١٩٧٧، كان فائض بخارة إسرائيل مع الضفة الغربية وحدها الرب بليون جنيه إسرائيل ، حداد الضفة الغربية وحدها

واحدى سمات الاحتلال التي يستاء منها بنوع الخصوص سكان الضفة الغربية هي إقامة مستوطنات يهودية على أرضهم. ويبرر الإسرائيليون هذه المستعمرات أما بالإشارة إلى أن يهودا والسامرة كان يسكنها اليهود ايام داورد وسليمان أوبالقول أنها ضرورية والاعتبارات أمنية لكنهم لا يوضحون أبداً كيف يمكن لمستوطنات مدينة في أرض والمدوء أن تكون ذات أمنية سواء في الحرب أو في السلم. لكن والاعتبارات الأمنية لا تختلف كثيراً عن والأغراض العامة فأنت إذا سلبت أرض غيرك من الأفضل أن تقول أنك تفعل ذلك و الاعتبارات أمنية، بدلا من الاعتراف الصريح بأنك تسرقها لكن الرأى العام العالمي لم تخدعه هذه الأباطيل: اذ لا يؤيد أي بلد في العالم سياسة إسرائيل الاسيطانية فضلاً عن أنها محظورة بموجب اتفاقية چنيف الرابعة لعام سياسة إسرائيل الأرض التي يحتلها، والتي تنص على أن الحتل ولا يجوز له نقل أجزاء من سكانه إلى الأرض التي يحتلهاه.

وكانت الحملة الاستيطانية الكبرى قد بدأت في عام ١٩٨٦ عندما أقيمت

سلسلة من الناحلات (الستوطنات العسكرية) على طول وادى الأردن. وما أن أقيمت للمدنيين حتى سلمت لمستوطنين من الحزب الديني القومي وغيره من الجماعات السياسية. كل هذه المستوطنات وما تلاها في مختلف أرجاء غزة والضفة الغربية قد بنيت على أرض كانت ملكاً للحكومة الأردنية في السابق أو على أرض تابعة للقرى العربية المجاورة. وتزعم الحكومة الإسرائيلية أن أراضي الدولة الأردنية وحدها هي التي تستخدم لكن من الصعب العثور على مستوطنة واحدة لم تستول على أرض تابعة لأحدى القرى والواقع ان الحكومة لا تلتزم بهذا الزعم فنظرة إلى صفحات الجيروزاليم بوست شبه الرسمية، يمكن ان تكشف موقف الحكومة الحقيقي ففي مايو ١٩٧٨ أعلنت: يتعين على إسرائيل الاستيلاء على مساحات واسعة من الأراضي المملوكة لعرب في الضفة الغربية إذا ما أريد تنفيذ خطط الاستيطان اليهودي هناك وهذا الاستيلاء على أراضي القرى ليس ظاهرة نادرة: فهو يحدث باستمرار، وفي الايام العشرة الأولى من فبراير ١٩٧٩، نشرت صحيفة الجيروزاليم بوست محقيقات مفصلة حول انتزاع الأراضي في الايام الأول والخامس والتاسع، وقد تناول أحداها توسع مستوطنة كيريات عربة على حساب ملاك أراضي الخليل واسهب آخر في ذكر احتاجاجات قروى النبي صالح بالقرب من رام الله ضد اقامة مستوطنة نيفي تزوف على أرضهم، وتضمن ثالث الملاحظة الغريبة التالية:

تلق حوالى ١٥٠ شخصاً من ملاك الاراضى من قريتى حزمة وجابا فى شمال - شرقى القدس، رسائل تأمرهم بالتقدم إلى مكاتب الحكم العسكرى حيث أنه صدرت أوامر شراء الممتلكاتهم، وتقع الأراضى التى اختيرت للمصادرة على حدود منطقة ديفى يعقوب المجاورة، والسلطات حريصة على شرائها من الملاك العرب لتوسيع الحى اليهودى شمالاً وشرقاً. ويتضح من هذا المثل أن السلطات لا تشغل نفسها حتى بالقول أن ذلك يتم من أجل اغرض عام، أو «اعتبارات أمنية» فالمسألة بيساطة هى انتزاع

الأرض من العرب حتى يتمكن اليهود من البناء عليها.

وطبيعى أن مصادرة أراضى القرى تقوض الاقتصاد العربى المحلى وفي بعض الحالات تدمره تماماً. وعندما أقام الإسرائيليون مستوطنة ميجولا على الطرف الشمالى لوادى الأردن، فأنهم لا يستولوا على ٢٧٥ فداناً من قرية بردلة المجاورة فحسب، بل أنهم أقاموا أيضاً خزان مياههم فوق خزان بردلة مباشرة. مما حرم القروبين من أية مياه الا وقت امطار الربيع، وقد أدى تصرف مماثل إلى تخريب الحياة الاقتصادية لقرية الرافدية قرب بيت لحم. وكانت أراضى القرية تتألف من حوالى ١٩٨٠ فدان يكسب منها الوقعهم أكثر من ثلثي القوة العاملة وفي سنة ١٩٧٣ تمت مصادرة حوالى ٢٠٠ فدان وسلمت مستوطنة تبكوا، وفقد كل القروبين تقريباً مصدر عيشهم وهم اليوم جزء من واللاف الذين يتمين عليهم السفر إلى إسرائيل يومباً بحثاً عن عمل وفي نهاية عام الإلاف

وانتشرت خمسون مستوطنة أخرى في غزة ومرتفعات الجولان السورية. وشمال سيناء، وقد أقيمت على ٧٨٠٠٠ فدان من الأراضى العربية وضمت ٩٠,٠٠ مستوطن، كان معظمهم يعيش في القدس، وفي مناطق الضفة الغربية الزراعية كان مستوطن يزرعون ٢٣,٠٠٠ فدان من الأراضى المصادرة في معظمها من قرى وادى الأردن ومنطقة بيت لحم والخليل، وقد تم الإستيلاء على ٣٠٠٠٠٠ فدان أحرى ولاعتبارات أمنية، ويزعم الإسرائيليون أن الأرض مخلخلة السكان وأنه لم يلحق أي ضرر بأحد. وحتى لو تركنا جانبا القروبين الذين فقدوا معظم ممتلكاتهم، فان هذا ادعاء مثير للسخرية.

وفى الضفة الغربية اليوم يوجد اكثر من ٣٠٠,٠٠٠ لاجئ، وفى الاردن يزيد عددهم على المليون معظمهم من سكان الضفة الغربية الذين هربوا فى عام ١٩٦٧. ومن المؤكد أنه اذا كانت الضفة الغربية مخلخلة السكان حقا، فان الأراضى الزائدة يجب ان تستخدم فى ايواء اولتك الذين استحوذت إسرائيل على ديارهم الاصيلة منذ وقت طويل، وأنه ليبدو ضربا من الانانية التى لا تكاد تصدق أن يقوم الصهاينة، الذين استولوا على أكثر من ثلاثة أرباع أرض فلسطين، باستيطان الجزء الباقى الهزيل الذي مازال متروكا للفلسطينين.

ولا يوجد بالضفة الغربية أى معادن، وإلى جانب الأرض لا تمتلك سوى مورد هو المياه. فالمنطقة توفر حوالى ٦٢٠ مليون متر مكعب سنويا، كان يمكن ان تكون وافرة لو أنها استخدمت كلها داخل الضفة الغربية. الا أن ٥٠٠ مثلاً من هذه تسحب وتستخدم فى إسرائيل عن طريق الآبار التى شخفر فى إسرائيل نفسها.

وحتى الد ١٢٠ مليون الباقية لا تترك للفلسطنيين حيث أن المستوطنات مختاج إلى ١٥ مليونا منها، وبعبارة أخرى؛ فان المستوطنات مخصل على كمية من ألف متر مكتب لكل مواطن في حين أن السكان العرب لا يتحصل الفرد الا على ١٥٠ متر مكتب. وعلاوة على ذلك ففي حين أن الإسرائيليين حفروا سبع عشرة بثرا في الضفة الغربية منذ عام ١٩٦٧ ويتمتعون باستخدام الآبار الأخرى التي هي تلك وللغائبين فإنه لم يسمح لعربي واحد بحفر بئر واحدة للرى في الأعوام الالني عشر الأخيرة وكما ذكر الدكتور بول كوبرينج، الذي قام بدراسة الموضوع خلال ثلاث سنوات ونصف في القدس كممثل للجنة المركزية فإن وعدم تنصية موارد المياه مع مصادرة الأبار في ممتلكات الغائبين، يعنى ان الآبار المستخدمة في الزراعة الفلسطينية في وادى الأردن هي اليوم أقل نما كان متوفرا عشية حرب ١٩٦٧.

وقد أدت هذه القيود إلى شلل فعلى للمزرعة الخيرية التي تديرها جميعة التنمية العربية التابعة لموسى العليمي قرب اربحا.

وموسى العليمي، وهو الآن في الثمانينات من عمره، كان أحد أفراد الطبقة الأرستقراطية في القدس القديمة. وفي عام ١٩٤٨ فقد معظم ممتلكاته في القدس والجليل وذهب ليميش بالقرب من أريحا حيث حصل من الحكومة الأردنية على امتياز استغلال ٥,٠٠٠ فدان من الأراضي الصحراوية.

وبعد ان اكتشف المياه انشأ مزرعة واسعة ومدرسة لأطفال اللاجئين. وحققت كلتاهما نجاحاً باهراً إلى أن حدث غزو ١٩٦٧ الإسرائيلي. عندما خوب ثلثا الأرض وتم تدمير ست وعشرين من سبع وعشرين بئرا. كما دمر الجيش الإسرائيلي بصورة منظمة شبكة الرى والمبائى وآلات حفر الآبار، وسرعان ما عادت معظم الأراضى صحواء جوداء.

وربما كان جانب من هذا الدمار حتميا في زمن الحرب لكن الشئ الذي يدو بشماً وفظيماً هو الأسلوب الذي تصرفت به السلطات الإسرائيلية منذ عام ١٩٦٧، لقد تم تطويق قطعة واسعة من الأراضي بالأسلاك الشائكة ولاعتبارات أمنية وحولت إلى معسكر عسكرى وهو الآن مهجور وأصبح عبارة عن مجموعة من الاسلاك الشائكة المتاكلة والأنابيب المهشمة والبيوت المهججورة. في الصحراء حيث كانت تزدهر في معدومة، لا تنبت أي نباتات دون ري، وإذا كان موسى العليمي يريد استمرار مزرعته معدومة، لا تنبت أي نباتات دون ري، وإذا كان موسى العليمي يريد استمرار مزرعته عليه أن يصلح آباره، ولكن الإسرائيليون رفضوا السماح له بشراء المعدات الشرورية سواء الإصلاحات البدوية لأربعة من الأبار الأقل تدميرا بما مكنه من انقاذ جزء من الأرض والمحافظة على استمرار وأخذوا يقولون له أنه لديه من المياه أكثر من أن يوافق عليه الإسرائيليون وأخذوا يقولون له أنه لديه من المياه أكثر بما ينبغي مع أن ما لديه أقل من خمس ما وأخذوا للفائض ولمشروعاتهم، الخاصة (أي، مستوطناتهم المتزايدة بالقرب من أربحا).

لقد رآى موسى العليمى المأساة الفلسطينية من البداية إلى النهاية من هزيمة العثمانيين والاحتلال البريطاني إلى حربى ١٩٤٨ و١٩٦٧، اللتين جلبتا الاستطيان العمهيوني لفلسطين كلها، وهكذا يصبح مايراوده من شكوك مفهوما، فهو يهزأ من تسلط فكرة حقوق الانسان على الرئيس كارتر لأنه يعلم أنها لن تراعى أبداً في فلسطين، ١ ان الحرية والعدالة كلمتان لا معنى لهما بالنسبة إلى شعبى وبلادى. فنحن لم نعرف أبداً أيا منهما -وهو يشير إلى مزرعته - وهو حلم حقق نجاحاً باهرا ذات يوم - ويقول: وأنني لا أجد في هذا المكان أية متعة ولا يقيني هنا الا شعورى بأداء واجبى وأعلم أن الصهاينة يريدون التخلص منا منذ سنوات، يريدونني أن أرحل، وقد قالوا في ذلك. فهم يريدون أنشاء كيبوتز هنا. لكن من واجبى أن أواصل، وهو واجب نحو شعبيه.

كذلك يتم الاستطيان الإسرائيلي في قطاع غزة، وهو شريط ساحلي ضيق يمتد مسافة أربعين ميلا إلى الحدود المصرية قبل عام ١٩٦٧، وكانت غزة هي الجزء الوحيد الآخر من فلسطين الذي ثجا من حرب ١٩٤٨، وقد تم الاستيلاء عليه بدوره في عام ١٩٦٧، وغزة شديدة الفقر ومكتظة بالسكان، حيث يحشر فيها أكثر من ٢٥٠,٠٠٠ لاجئ إلى جانب السكان الأصليين، ومع ذلك تصر إسرائيل على انتزاع جزء من الاجئ إلى جانب السكان الأصليين، ومع ذلك تصر إسرائيل على انتزاع جزء من أكثر أراضيها خصوبة وتوطين سكانها فيها. ان الصهاينة أنفسهم يجدون من الصحب تبرير ذلك. فغزة لم تكن قط جزء من مملكتي يهودا أو إسرائيل وصلتها الوحيدة بالتاريخ اليهودي كانت في عام ٩٧ قبل الميلاد، عندما استولى اليكسندر جانايوس على المدينة وذبح سكاانها، كما ان الإسرائيلين لا يمكنهما استخدام والاعتبارات الامنية الموجودة دائما بمثل هذه البساطة حيث أنهم وقموا معاهدة صلح مع مصر.

ان غزة التي كانت ذات يوم مدينة أغريقية مزدهرة، هي اليوم مكان قبيح.

والبساتين الواقعة حول المدينة يسكنها عدد ضخم من اللاجئين، ومستويات المعيشة متدنية والخيمات من أسوأ الخيمات في أى مكان. ان اللاجئين، الذين يجيئون من يافا ويثر سبع يعيشون في اكواخ حقيرة أقامتها وكالة غوث وتشغيل اللاجئين. ويعيش حوالى ٢٠٠,٠٠٠ انسان في مخيمات جباليا، ورفع، وبتش خان يونس، وليست أمام معظمهم فرص عمل أو الأمل في أى شئ آخر.

بعد عام ١٩٤٨، تولى المصريون إدارة غزة لكن احتلال إسرائيل لها في عام ١٩٦٧ أدى إلى عزلها عن كل من مصر وبقية العالم العربي. الأمر الذى جعل غزة من الناحية الاقتصادية أكثر إعتمادا على إسرائيل منها على الضفة الغربية، وان كانت قد تعرضت للاستقلال.

فعلى سبيل المثال، فان صناعة الحمضيات في غزة ممنوعة من التنافس مع المزارعين الإسرائيلين. وعادة ما يبيع مزارعو غزة ثمارهم إلى ايران وأوروبا الشرقية ودول الخليج، بينما يحتفظ الإسرائيليون لانفسهم بالاسواق الأكثر ريحا في الغرب. ولما قررت ايران في عام ١٩٧٩، الا تشترى صناديق برتقال فالينسيا التي يبلغ عددها ثلاثة ملايين ونصف المليون والتي تصدرها غزة عادة، قررت هيئة تسويق الحمضيات الإسرائيلية بيع الشمار عن طريق شبكتها الخاصة. وكان هذا النوع من الايثار وراءه المهدف الحقيقي الذي يتمثل، طبقاً لاعتراف نائب ملير الهيئة، في و منع المنافسة غير المقيدة مع ما تنتجه إسرائيل، وكما تعرف الهيئة جيداً فإن برتقال غزة ينضج قبل الشموطي بشهر ومن شأنه أن ينافسه في أسواق التصدير الأوروبية الغربية. لكن مزارع الحمضيات في غزة تواجه مشكلات أسوأ لأنه لا يسمح لسكان غزة بغرس أشجار الفاكهة مثلهم في ذلك مثل مزارعي الضفة العربية الذين يحظر عليهم حفر الآبار فمن وجهة النظر الإسرائيلية فإن الوضع الراهن مزعج بما فيه الكفاية، ومن ثم قد

لايسمح لغرس المزيد من هذه الأشجار، وحتى لو أراد المزارع غرس شجرة مكان أخرى ميتة يتعين عليه الحصول على تصريح من الحااكم العسكرى.

وفرص العمل فى غزة أقل منها فى الضفة الغربية، ولذا يترك عشرات الآلاف من اللاجئين مخيماتهم كل يوم قبل الفجر للتجمع عند احدى أسواق العمل قرب الحدود. وقد تكون عند ملتقى طرق عسقلان أو تقاطع ايريز.

ومند الرابعة صباحاً يصل ارباب العمل الإسرائيليون - أصحاب البسائين ومقاولوا البناء - وتبدأ المساومات والأسواق مزدحمة بأناس من كل الأعمار وهناك مئات الأطفال الذين يبلغون الثانية عشر أو يزيد الذين يرغبون بشدة في العمل. وكثيرون من أرباب العمل يفضلونهم على البالغين لأن أجورهم أرخص ومن الأسهل التعامل معهم وطبيع أن عمل الاطفال غير شرعى في إسرائيل وينص قانون تشغيل الشباب الصادر عام ١٩٥٣، على وعدم جواز تشغيل طفل تحت السادسة عشر من العمر، لكن أحدا لا يلتفت إليه. فلا يوجد رجال شرطة يقومون بداوربات في أسواق العمل، ولا يوجد مفتشون لوزارة العمل ومن الواضح أن الأطفال لا يتمتعون بالتأمينات ولا بالضمان الإجتماعي وربما أن أجورهم اليومية جد زهيدة، فانه من الأرخص إلى حد كبير استعجاره بدلا من البالغين - وهم أرخص حوالي عشرات مرات من عامل إسرائيلي. استعجاره بدلا من البالغين - وهم أرخص حوالي عشرات مرات من عامل إسرائيلي. لا غير.

وهناك ست وعشرون مستوطنة في القطاع، وفي شريط رفح إلى الجنوب، أى أقل بكثير مما في الضفة الغربية، لكن المنطقة على درجة بالفة من البؤس والزحام تجمل هذه المستوطنات اكثر استفزازًا، وخلال عام ١٩٨٠، كانت المستوطنات لا تزال تبنى بأقصى درجة من الدعاية والاستفزاز. اذ يجرى اختيار الموقع ثم يقتحمه الجيش الإسرائيلي وتمد الأسلاك الشائكة وبرفع العلم عند أقرب مرتفع. وعلى امتداد الأشهر التالية تقام المبانى الخرسانية وتسوى الأرض بوللوزورات الجيش. وفي النهائية يبدأ الغرس وتقام بيوت الإستنبات الزجاجية. وهذه المستعمرات الأنيقة المنسقة التي يسكنها أناس ليس لهم آى حق في الأرض، تتزايد بصورة تدفع إلى الإشمشنزاز مع منظر اللاجئين التعساء في أكواخهم وخارجها، الذين تفصلهم عن المستوطنين أسوار عالية من الأسلاك الشائكة. وقد كتب چون رداواى وه (نائب سابق للمفوض العام لوكالة غوث وتشفيل اللاجئين)، من تقززه.

عند رؤية أولئك الغزاة الشرهين وهم ينتزعون مساحات واسعة من أفضل الأراضى في هذا الركن الصغير من فلسطن، حيث ظل مئات الآلاف من اللاجئين الذين هم من أصل (فلاحي) يعيشون لمدة ثلاثين عاما بدون أمل في أن يحصلوا ولو على قطعة صغيرة من الأرض يزرعونها لأنفسهم لأن الأرض الزراعية الموجودة لم تكد تكفى السكان المحلين.

وفى غزة من بين كل الأماكن لا أفهم كيف يمكن لهؤلاء الصهاينة مغتصبى الأراضى أن يحيوا مع الظلم الذى يقترفونه كل يوم من حياتهم ضد أخوة لهم فى الانسانية بؤساء نهبوا أرضهم وأقاموا سياجا حولها لابقائهم خارجها .

وزار ادوارد هود چكين، الذى كان آنذاك محرراً للشفون الخارجية بصحيفة التايمز، الأراضى المحتلة في عام ١٩٦٩م، وكتب عن والكراهية الشديدة التي تواجه الإسرائيليين في كل مكان من جانب كل قطاعات السكان، وليست هذه مجرد العداوة التي يظهرها أى شعب عجاه قوة محتلة، فهى نفور شديد من قوة محتلة، فهي

نفور شديد من قوة لا تحتل لا مختل ارض الغير فحسب؛ بل يستوطنون تلك الأرض وتطرد أصحابها الشرعيين وسكانها. ويؤكد فهد القواسمة. عمدة الخليل، وهي مدينة تمداد سكانها ٢٠,٠٠٠ نسمة تقع جنوبي بيت لحم على الفارق: «ان الاحتلال الإسرائيلي مختلف عن أي احتلال آخره.

فعندما دخل البريطانيون مصر أستغلوا الشعب والبلد لكنهم لم يينوا مستوطنات. ولم ينتزعوا الأرض من أيد المصريين. آما بالنسبة لحالتنا فيعتبر مصطلح الاحتلال مصطلحاً مخففاً: فالاستعمار الاستيطاني مصطلح أنسب حيث أن شعبا آخر يحل محل شعبنا. والقواسمة شأنه في ذلك شأن رشاد الشوا عمدة غزة، أو كريم خلف عمدة رام الله، لا يخفي كراهيته للإسرائيليين، ولا يقدم أي تنازلات لهم ويفعل كل ما في وسعه لمقاومة سياساتهم. وهو يعترف بأنه مؤيد لمنظمة التحرير الفلسطينية وبأنه يعمل كواحد من ممثليها في الضفة الغربية. وإذا ما سئل عن أخلاقية المقاومة العنيفة فانه يقول: ولا يمكنك أن تطلب منا الا نفعل شيئاً ، نحن الآن تخت احتلال العدو منذ أثني عشر عاما، وخلال الحرب العالمية الثانية كادت معظم البلاد الأوروبية محتلة وقد قاومت ونحن نفعل الشيء نفسه.

ان الاضطهاد الذى لجأت إليه إسرائيل من أجل القضاء على أى نوع من المقاومة، مدنية كانت أم عسكرية، قد أكد بالوثائق، بين جهات أخرى،الصليب الأحمر الدولي، ومنظمة العفو الدولية، وصحيفة الصنداى تايمز، والاتخاد القومى للمحامين الامريكيين، والرابطة الإسرائيلية للحقوق المدنية والانسانية، ولجنة الأم المتحدة الخاصة لتقصى حقائق الممارسات الإسرائيلية وتأثيرها على الحقوق الانسانية لسكان الأراضى المحتلة، وتشير التتائج التى توصلت إليها هذه الهيشات إلى أن الفلسطنيين مخت الاحتلال لا يملكون ولو أبسط الحقوق الديمقراطية، وكما كتب مايكل آدامز، وهو

مراسل سابق لصحيفة الجارديان في بيروت: الفلسطينيون في الراضى المختلة لم يتمتعوا منذ عام ١٩٦٧ بأى حقوق ولا بأى مؤسسات نيابية ولا توجد سلطة بمكنهم الشكوى السها، ولا جهة مخميهم، وكل حركة وفعل لهم يخضع للسلطة التعسفية للحاكم العسكرى الإسرائيلي، ومن الممكن احتجازهم، وحبسهم، وترحيلهم دون تدخل من جانب أى محكمة. وبجوز تدمير بيوتهم وممتلكاتهم ومصادرة أراضيهم وحرق محاصيلهم الزراعية واقتلاع أشجارهم.

ان القمع الإسرائيلي موجه ضد أهداف عديدة فالأفراد الذين يعتبرون عقبات سياسية امام الاحتلال عرضة للقمع كمن يشتبه في قيامهم بنشاطات عسكرية. لكنه لايتوقف عند الأفراد لان الحكومة الإسرائيلية تؤمن إيماناً راسخا بمبدا العقاب الجماعي، وكما يطبق في الضفة الغربية وغزة ؛ فان هذا المبدأ يعني أن سكان المنازل أو القرى أو حتى المدن يمكن معاقبتهم بسبب نشاطات رجل واحد لا سيطرة لهم عليه، فقى عام ١٩٧٩، أوقفت اعتمادات التنمية الخصصة لنابلس لان عمدة المدينة عقد مؤتمرا مع عمدة الخليل خلافا لاوامر الحاكم العسكري.

وتتمثل احدى الصور الاكثر شيوعا للعقاب الجماعى في حظر التجول، الذى يمكن فرضه دون سابق اندار على المدن أو القرى أو مخيمات اللاجئين. ففى مايو ١٩٧٩، تعرض مخيم جلزون شمالى رام الله لحظر التجول لمدة اثنتين وعشرين ساعة يوميا، وفى الساعتين الباقيتين كان يسمح للسكان بالخروج من اكواخهم للحصول على حصص الدقيق من وكالة غوث وتشغيل اللاجئين. ولم يكن يسمح بدخول أى مواد غذائية أخرى إلى الخيم. وفى نفس وفى نفس الوقت تقريباً ثم فرض حظر التجول ودام ستة عشر يوما على مدينة حلحول الصغيرة قرب الخليل. ومرة أخرى كان قلف الحجارة هو الذريعة، مع ان اثنين من قاذفى الحجارة فى تلك المناسبة قتلوا بالرصاص

المطرورن

اما من جانب الجنود أو من جانب المدنيين الإسرائيليين من مستوطنة كيريات عربه، وقد ألزم حظر التجول هؤلاء الناس بيوتهم لمدة ثلاث وعشرين ساعة يوميا، ولما كانت حلحول مدينة زراعية أساسا فقد حال ذلك الحظر بين الفلاحين وبين العمل في حقولهم. ووفقا لما يذكره محمد محلم، عمدة المدينة فان اربعين بالمائة من المحاصيل قد أصابها التلف.

ان صورة أشد تطرفا من صور العقاب الجماعى تتمثل فى هدم المنازل. وقد كشف رئيس الرابطة الإسرائيلية للحقوق المدنية والانسانية انه خلال السنوات الأربع الأولى للاحتلال، هدمت القوات الإسرائيلية ١٦,٣١٢ منزلا «لاعتبارات أمنية» ولا يزعم الإسرائيليون ان كل هذه المنازل كانت ملكا للأرهابيين.

وطالما يملكها أويستأجرها اقارب لمن يشتبه في أنهم ارهابيون يمكن اعتبارها

هدفًا مشروعًا لبولدوزرات الجيش، وعادة ما يتم الهدم قبل محاكمة المشتبه فيهم، وقد أعلنت جيروزاليم بوست في ٣١ يناير ١٩٧٩، ان المنزل الموجود في القدس الشرقية والذي يملكه عم شخص اسمه محمد أبو هلال، قد تم هدمه بالبولدوزر للاشتباه في ان أبو هلال ارهابي وكان قد قبض عليه قبل ذلك بوقت قصير. ولم يكن هنالك ما يشير إلى أنه عاش قط في المنزل أو أن عمه كان على علم بنشاطاته أو كان موافقً عليها وحقيقة أنهما اقارب، جعل منزل العم هدفا مناسبًا للإنتقام. وبعد ذلك بيومين ذكرت نفس الصحيفة نبأ حول حادث مماثل: وقامت قوات الأمن بإجلاء مكان منزلين في الضفة الشرقية في وقت مبكر من صباح أمس وأغلقت أبواب ونوافذ المبنيين كتل من نفايات المعادن والأسمنت، ولما اخلى هذان المنزلان من سكانهما؟ لان النين من الارهابين المزعومين «تردد أنهما اقاما في وقت أو أخر في المنزلين. وليس ثمة حاجة إلى توضيح المنطق الكامن وراء صور العقاب هذه، فالسياسة العنيفة تهدف ببساطة وبشكل واضح، إلى افهام السكان الفلسطينيين أنهم سوف يعادون اكثر من الإسرائيلين إذا ما استمرت المقاومة عنيفة؛ أما أهداف سياسات إسرائيل الاخرى فهي واضحة بالمثل؛ فترحيل المثات من قادة الضفة الغربية والتدخل في النظام التعليمي للمنطقة وسائل تهدف (خطأً) إلى الحيلولة دون ظهور قيادة قومية واضحة ولتحقيق هذا الهدف تتعرض المدارس ومراكز التدريب والجامعات لملاحقة منتظمة من جانب الجيش ويغلق كثير منها بين الحين والآخر. وفي مارس ١٩٧٩، أغلقت كل المؤسسات التعليمية في الضفة الغربية، واستمر اغلاق بعضها لملة شهرين.

ان جامعة بيرزيت قرب رام الله هي أفضل جامعة في الاقليم وأقدم مؤسسة عربية للتعليم العالى على ضفتى نهر الأردن. ومع ذلك رغم سياستها التعليمية العالية، فانها لا تقصرنشاططاتها على العمل الاكاديمي. فهي تلعب دوراً اساسياً في حياة الضفة الغربية، اذ تعتبر نفسها بمركزا للتطلعات الفلسطينية، وتضطلع بعد بعملها الاجتدحاعى. فلديها برنامج لمحو الامية يتألف من اثنى عشر مركزا فى الضفة الغربية وغزة كمما تقوم بانشطة مماثلة كثيرة وبرامج للمدرسين ومشروعات بناء المدارس فى مخيمات اللاجتمين.

وطبيعى ان ترى السلطات الإسرائيلية في جامعة بيرزيت مؤسسة مزعجة إلى حد بالغ وتعتبرها مركزا للتخويب والارهاب بالرغم من ان عضوا واحداً من أعضاء أية كلية لم يدن بتهمة والاخلال بالامن، ومنذ عام ١٩٧٣، والجامعة تتعرض للتدخل المستمر وأوقفت برامج اعداد المدرسين بها بصفة دائمة، واستبعد مديرها، وحرم محاضر وها من الحصول على تصاريح عمل ورفض التنظيم التصريح لها بمباني جديدة، وفي مايو عام ١٩٧٩، اقتحمت وحدات الجيش الحرم الجامعي، وضربت اعداداً ضخمة من الحطلبة، وصادرت عدة مات من بطاقات الشخصية. ثم أغلقت الجامعة لمدة شهرين.

وكان مدير بيرزيت، الدكتور حنا نصير، واحدا من ١,١٥١ فلسطينيا ابعدوا من الضفة الغربية وغزة وعام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٨، وبالمقارنة باعمال الطرد الجماعية خلال حربى ١٩٤٨ و١٩٢٧، فان ذلك لايعد عددا كبيرا، الا أنه يشمل اعدادا ضخمة من أبرز القادة العرب في الأراضى المحتلة، من مدرسين وأطباء ومحامين وصحفيين وطلبة وغيرهم، ومن بين الاربعة وخمسين شخصا الذين تم ترحيلهم من القدس العمدة، ورئيس المجلس الاسلامي، ووزير خارجية سابق للاردن، ورئيس اتحاد نقابات العمال، ومدير مستشفى المقاصد الاسلامية الخيرى، كما أن السياسيين من بين أنسب المرشحين للاستبعاد، فقد أبعد عمدتا رام الله والبيرا، كما رحل أشقاء بين أنسب المرشحين للخيل وحلحول. وقبل يومين من انتاء تسجيل اسماء المرشحيين في انتخابات البلدية في ابريل عام ١٩٦٧، طرد مرشحون لمنصب العمدة في كل من متجلس الخليل والبيرا، إلى لبنان بينما كان شكاويهم المرفوعة امام الحاكم ضمد

المطرورت

ترحيلهم لاتزال منظورة.

هكذا تعمل إسرائيل على التخلئص من القيادة الفلسطينية في الاراضى المحتلة، وتستند هذه السياسة على نفس المنطق الذى يؤيد العقاب الجماعي، فلو أنهم انزلوا العقاب بعدد كبير من الناس حتى وان كانوا أبرياء تماماً ،ولم توجه إليهم قط اية تهمة؛ يحجم الآخرين من توجيه اى نقد للاحتلال.

وكان الهدف هو شل القيادة واخماد أى مشاعر قومية، تلك السياسة التى منيت بفشل ذريع لأن النزعة القومية فى الضفة الغربية هى اليوم أقوى بما لا يقاس مما كانت عليه منذ عشر منوات، والادهى من ذلك أن بعض المستبعدين هم اليوم شخصيات قومية أكثر اهمية مما كانوا فى وطنهم فالطبيب والمحامى اللذان طردوا معا فى عام ١٩٧٣، هما الآن مسئولان كبيران فى منظمة التحرير الفلسطينية.

ولا توضح السلطات الإسرائيلية اطلاقا السبب في ترحيل الاشخاص فلو كانوا قد ارتكبوا جريمة يفترض توجيهه الاتهام لهم في المحكمة، وعادة ما ينفذ الترحيل بسرعة لا تمكن من الاحتجاج، ففي ديسمبر عام ١٩٦٧م ،ذهب القاضى انطون عطا الله وهو مسيحي في السبعين عن عمره كانت عائلته تميش في القدس في فترة ما قبل الفتح الاسلامي – ذهب إلى عمان بتصريح إسرائيلي وسمى. وفي يوم الاهداء، قبل الموعد المحدد لعودته بوقت قصير أعلنت اذاعة إسرائيل أنه لن يسمح له بالعودة. ولم يقدم أي سبب لذلك، ولم يسمح للرجل المسن برؤية بيته مرة أخرى إلى أن أعلنت السطات الإسرائيلية بعد ذلك بعشر سنوات، في عبد ميلاده الثمانين، انه ولاعتبارات المنطقة، سوف يسمح له الان بزيارة منزله.

أما روحي الخطيب، عمدة القدس، فلم يسمح له قط بالعودة، وباعتباره عمدة

للمدينة منذ عام ١٩٥٧، قام الإسرائيلين بفصله من مجلسه عندما ضمت القدس في عام ١٩٦٧. وبعد تنحيته التي رفض الاقرار بها. بقى في المدينة وواصل عمله كمدير لشركة الفنادق العربية وشركة كهرباء القدس. وفي مارس من العام التالى، ايقظه رجال الشرطة الإسرائيليون في الثالة صباحا أبلغوه أنه مطلوب للاستجواب. لكن بدلا من أن يأخذوه إلى الحاكم العسكرى في القدس ذهبوا به مباشرة إلى أربحا حيث سلم أمر ترحيل يزعم ان وجوده في القدس يشكل خطرا على أمن إسرائيل، ثم رافقوه إلى الحدود وسلم إلى السلطات الأردنية ولم يسمح له بأن يأخذ أى شئ معه ولم تبلغ اسرته بالطرد، وقد علمت به فيما بعد عن طريق الاذاعة.

وقررت زوجة الخطيب وطفلاه البقاء أملا في أن يسمح له بالمودة، وبعد عام ونصف العام استدعى رجال الشرطة زوجة الخطيب لاستجوابها واحتجزت لمدة ساعات ثم حكم عليها بالسجن لمدة ثلاثة أشهر دون ابداء أى سبب، وبعد احتجاجات من جانب عدد من الناس، أفرج عنها بعد خمسة عشر يوما، وربما لأنها كانت مريضة بمصورة خطيرة ويشتبه في اصابتها بالسرطان. ثم سمح لها بزيارة زوجها واجراء عملية جراحية في بيروت. ومع أن التصريح الذي قدم لها مدد مرة، فانها كانت لاتزال مخت العلاج عندما انقضى أجله للمرة الثانية، ورفض الإسرائيليون تجديده مرة أخرى ولما حاولت المعرود إلى القدس بعد تماثلها للشفاء اعادوها من الحدود.

وخلال العامين الاولين للاحتلال، كان المستبعدون يأخذون بفظاظة إلى أحد المجسور عبر نهر الأردن ويطلب إليهم الانتقال إلى الضفة الأخرى، لكن الحكومة الأردنية ، بعد ضغط من لجنة الفلسطنيين المطرودين في عمان، وفضت السماح بدخول أي مستبعدين آخرين، وعندئذ فتح الإسرائيليون طريقين آخرين للطرد أحدهما في المنطقة الجبيلة قرب الحدود اللبنانية والآخرى في صحراء وادى عربه جنوبي البحر

الميت. والدكتور وليد قمحاوى، وهو طبيب أمراض نساء جذاب ورقيق من نابلس، كان له الشرف في أن يكون الشخص الوحيد الذى طرد على طول كل من الطريقين. ففي سبتمبر عام ١٩٧٥، وجد عشرون جنديا خارج بيته وأخذوه إلى مكتب الحاكم المسكرى حيث أبغ بأنه سوف يسبتمد، لقد طلب السماح له بالعودة إلى بيته وتوديع أسرته وأخذ بعض أمتمته لكنهم رفضوا طلبه، وبعد ذلك عصبوا عبينه وقيدوا يديه ودفعوا به إلى الحدود البنانية مع خمسة أشخاص آخرين. وعندما وصلوا أمروا بالسير شمالا وقيل لهم، أنهم اذا نظروا إلى الوراء سوف يقتلون رميا بالرصاص، ولسبب ما لم يعرفه وقيل لهم، أنهم اذا نظروا إلى الوراء سوف يقتلون رميا بالرصاص، ولسبب ما لم يعرفه قعا، سمح للدكتور القمحاوى بالعودة بعد شهرين، ولكنه في ديسمبر عام ١٩٧٣ في ذكرى اعلان حقوق الانسان، القي مرة أخرى في عربة وأخذ إلى وادى عربه، وإشار ضابط إلى موقع عسكرى أردني على بعد عشرة اميال عبر الصحراء وطلب منه هو ورفاقه ان يبدأوا في السير.

ان قمحاوى، الذى لم يكن له أى نشاط سياسى (وان كان قد اصبح كذلك خلال نفيه) لم يعط في أى من المناسبتين أى مبرر لطرده.

وهكذا يتخذ القمع الإسرائيلي لفلسطيني الضفة الغربية وغزة صورا عديدة لاعتبارات امنية أو غيرها يمكن استبعاد المواطن العربي أو القبض عليه أو احتجازه دون محاكمة، ويمكن مصادرة أرضه وهدم بيته، ولا تنكر الحكومة الإسرائيلية حدوث هذه الأمور الا أن هناك طريقة للقمع لا تعترف بوجودها وهي محارسة التعذيب، طبيعي أن من الصعب أثبات حوادث التعذيب حيث أنها نادراً ما يوجد شهود لها يحتمل قبول شهادتهم. ومع ذلك فان الصنداي تايمز، ومنظمة العفو الدولية، والنقابة الدولية للمحامين الأمريكين، ولجنة الصليب الأحمر الدولية، قدمت كلها أدلة تشير إلى استخدام التعذيب بصورة متكررة ضد عرب الأراضي المحتللة. وكما ذكر فريق

الاستقصاء التابع للصنداى تاميز فى چنيف ١٩٧٧، فان : المحققين الإسرائيليين يسيئون فى العادة معاملة السجناء العرب وغالبا ما يقومون بتعذيبهم .. فاالسجناء غالبا ما تعصب أعينهم، أو يعلقون من معاصم أيديهم لفترات طويلة. ويتعرض الكثيرين منهم للاعتداء الجنسى عليهم، وبتعرض البعض الآخر للصدمات الكهربائية .

ولا الجمال هنا لمناقشة كل ما يوجه من اتهامات أو التعليق على الافكار الإسرائيلية الا أنه يجدر التأمل في حالة خاصة اضطر فيها الإسرائيليون إلى الاعتراف في نهاية المطاف بأن تعذيباً قد جرى.

ان كل من شاهد إسماعيل عجوه في لندن في صيف ١٩٧٩ لابد وان اعتقد بأنه تعرض للتعذيب اذ كابت عيناه نصف مغلقتين ودامعتين ولعلهما اصيبتا بصفة دائمة. كان يسير باضطراب سريع، نتيجة لضمور الفخذ وربلة الساق اليسرى (وفقا لتقرير طبى من مستشفى القدس، كانت ربلة ساقة اليسرى أرفع بست سنتيمترات من ربلة ساقة اليمنى). كما كان يشكو من التهاب غشاء المعدة المخاطى، ومن اصابة القولون واصابات في عموده الفقرى.

كان اسماعيل عجوه هو القائم بأعمال رئيس غرير صحيفة الفجر في القدس الشرقية. وفي الواحدة من منتصف ليلة ١٦ أكتوبر ١٩٧٨، أخذ من بيته والقي به في السجن، بتهمه وجود دصلات له بمنظمة التحرير الفلسطينية. وطوال الأيام الثمانية عشر الأولى لسجنه كان يستجوب كل يوم قبل أخذه إلى الفناء لضربه، وذات مرة ربط بأحد الأنابيب لمدة اثنين وسبعين ساعة وعلى رأسه كيس ويضرب بصفة منتظمة. وكان معذبه الرئيسي رجل اسمه عوزى كان مسئولا عن جلسات التعذيب، كما استخدم عوزى الأساليب السيكولوچية لتحطيم اسماعيل. فكان يخبره في بعض

الاحيان ان الحكومة أمرت بإعدامه، وكثيراً ما اخترع حكايات عن كيف أن زوجة اسماعيل، التي كانت حبلي ، تضاجع رجالا آخرين، وتظاهر رجال الشرطة الآخرين بأنهم أكثر تهذيباً، وكانوا يقولون لإسماعيل «اعترف بأنك ارهايي ولن نعيدك إلى عوزى» ، وعندما لم يفلح ذلك، حاولوا اقناعه بالهجرة، والا اضطررنا إلى تخديد موعد جديد لك مع عوزى».

ولم ير اسماعيل زوجته أو محاميه لمدة ثلاثين يوما بعد اسره وعندما سمح له بذلك فيما بعد فان ذلك لم يستغرق غير خمس دقائق . ولم يسمح له برؤية مندوب الصليب الأحمر لمدة ثلاثة أشهر رغم ادعاء إسرائيل بأن السجناء الفلسطنيين لهم حق في الاتصال بالصليب الاحمر في غضون ثمانية عشر يوما من القاء القيض عليهم، خلال الأشهر الأربعة لسجنه لم توجه تهمة إلى إسماعيل كما لم يحاكم، ولم يسمح له برؤية طبيب وكانت وجبته تتألف من الخبز والماء والبطاطس. وأمضى شتاء كاملا في القدس في الحبس الإنفرادي بدون بطاطين بينما كانت قطرات الماء تتساقط من السقف.

وبعد الافراج عنه كشف اسماعيل عن تفاصيل سجنه. لقد تعرض الاختبارين الكشف الكذب (احدهما في قسم شرطة «البنا»)، وفقاً لما ذكرته صحيفة اسرئيلية، «ان المحقق قد ضرب عجوه على رأسه وقيد يديه إلى أحدى الانابيب وضربه بقبضتيه، كما أثبتت الاخبار أن الصحفى قد عرض عليه الافراج عنه في مقابل وعد منه بمغادرة البلاده وقد اعترفت السلطات الاسرئيلية في نهاية المطاف بذنبها بتأنيب عوزى رسمياً ونقله إلى منصب آخر.

وخلال سجن اسماعيل، عاشت زوجته الحبلي وطفلاه الصغيران في عوز تام. لقد لقد حصلوا على بعض المساعدة من شقيق زوجته، الذي يؤجر جمله للسياح، وكذلك من والده، الذى كان يحضر لهم الخضروات من وقت لآخر من قريته. وعندما افرج عن اسماعيل، كانت اسرته أشد فقر اذ لم يكن بوسعه ان يعمل وكان بحاجة إلى العلاج في المستشفى وطبيعى أنه لم يحصل على أى مساعدة من الحكومة. ورغم اعتراف الإسرائيلين، فاتهم لم يقدموا اعتذاراً، ولم يدفعوا تعويضاً، ولم يدفعوا تكاليف علاجه. لكن اسماعيل عربى، بل عربى من القدس الشرقية التى ضمتها إسرائيل، ومن الواضح ان أى شئ يمكن عمله لصده عن البقاء هناك يلقى موافقة الحكومة الإسرائيلية.

وبعد ارسال هذا الكتاب إلى المطبعة قام الإسرائيليون بترحيل فهد القواسمة عمدة الخليل، ومحمد ملحم، عمدة حلحلول. ولخز, وتعامر

لحرب والسياسية

تنظيم المقاومة

خلال الخمسين عاما التى اعقبت انهيار الامبراطورية العثمانية كانت القومية العربية هى القوة الايديولوجية المسيطرة فى الشرق الاوسط • كان مفهوم القومية العربية يعبر فى الغالب الأعم عن شعور قومى بأن العرب جميعا، على إختلاف دياناتهم، تربطهم ثقافة مشتركة، و يضمهم وطن واحد، وكانت كلمة فوحدة فى هذه الفترة أشد الشعارات اثارة لحماس الجماهير وكانت الأحزاب السياسية -بعضها شرعى والبعض الآخر سرى - فى سائر أرجاء العالم العربى، تعمل فى سبيل تحقيق هذا الهدف الأمثل، وكانت الخمسينات من القرن العشرين تمثل عقد القوميين العرب، حيث كانت الفترة الوحيدة التى لاح فيها امكانية مخقيق هذا الهدف.

فى تلك الفترة أطبح بالنظم الملكية المحافظة فى كل من مصر والعراق، وتولى حزب البعث الاشتراكى العربى السلطة فى سوويا، وتمثلث الأمانى القومية العربية فى ربوع الشرق الأوسط فيما أبداه جمال عبد الناصر من تخد فى السويس.

إعتنق الفلسطينيون القومية المربية إيمانا منهم بتمكنهم من استعادة وطنهم، فلم تكن فلسطين مجرد مشكلة فلسطينية: حيث أنها جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، كانوا يتوقعون من العرب في كل مكان المساهمة في تخريرها حتى أنه في عام ١٩٤٨، قاتلت الجمهوريات والملكيات الموالية للعرب وان لم يكن بصورة فعالة، ضد الصهاينة. ومع الاطاحة بالملكيات واقامة حكومات وطنية في القاهرة وبغداد ودمشق، لاح كما لو أن القضية الفلسطينية قد وجدت سبيلها إلى الحل في نهاية الأمر. وهكذا انضم الفلسطينيون إلى الاحزاب القومية في البلاد التي نفيوا اليها – البعث والجماعات الناصرية، والشيوعيون وحركة القومية العربية – وفي انتظار الحرب التي من شأنها أن يحرو بلادهم.

بلغت الآمال ذروتها في عام ١٩٥٨ عندما لاح أن الاتخاد بين سوريا ومصر الذي بجسم في قيام الجمهورية العربية المتحدة يعيش بالاقتراب من الوحدة العربية، وعندما انهار الاتخاد بعد ثلاثة أعوام كان مبدأ الوحدة الشاملة قد أخذ في الانحسار وعندئذ أنزاح الوهم عن الكثيرين من الفلسطينيين لعدم قيام الدول العربية بأى شيىء لمساعدتهم وشرع بعضهم في اعادة النظر في آرائهم ازاء طبيعة المسألة الفلسطينية وبدلا من اعتبارها مشكلة عربية باتوا يرونها مشكلة بينهم وبين الاسرائيليون فلم يتسن لهم تحقيق أى شيىء مع وجود الدول العربية وكان شعورهم بالإحباط بالغا. ومن ثم قرروا الاعتماد على أنفسهم وتكوين المقاومة الشعبية والقتال بأنفسهم. واتخذوا من الجزائر المثل وكانت حرب فيتنام قد بدأت لتوها.

شمرت الدول المدرية، التى قررت فى عام ١٩٦٤ انشاء منظمة التحرير الفلسطينية، بما استبد بالفلسطينيين من استياء وغضب. والواقع أن منظمة التحرير الفلسطينية لم تكن آنذاك تهدف الى القيام بما من شأنه عجرير فلسطين بل كان دورها يتمثل فى الدعاية للتضامن وما الى ذلك وليس القيام بأى قتال فعلى... كان هدفها احتواء القومية الفلسطينية وليس التعبير عنها، وأن تكون بمثابة متنفس للآحباط الفلسطيني وليست منظمة عسكرية فعالة قد يجبر الدول العربية الى خوض حرب مع امرائيل، فضلا عن أنها ستكون جهازا رسميا تابعا لجامعة الدول العربية ومن ثم يسهل اشراف الدول الاعضاء عليها.

ورأى الفلسطينيين الاكثر تشددا منظمة التحرير الفلسطينية في ذلك الحين على حقيقتها فلم يعيروها اهتماما يذكر.. وشرعوا في تشكيل جماعات فدائية واعداد أنفسهم لخوض حرب العصابات. فظهرت حركة التحرير الوطنى الفلسطيني المعروفة باسم فتح في أوائل الستينيات وقامت بأولى عملياتها من عام ١٩٦٥. وبالرغم مما

تلقته من أسلحة وتدريب من الجزائر كانت في بادىء الأمر موضع شك بالغ من جانب الدول العربية الأخرى التي أدركت أن الحركة ربما كانت اكثر فعالية واكثر اثارة للمتاعب من منظمة التحرير الفلسطينية. والتي القبض على أعضاء فتح في مصر ولبنان وسوريا وأمضى ياسر عرفات، زعيم الجماعة في المستقبل، سبعة أسابيع في أحد سجون دمشق.

لم تشكل حركات المقاومة أهمية تذكر قبل عام ١٩٦٧ فلم يكن لدى فتح سوى مائتين أو ثلاثمائة فدائي. بيد أن حرب يونيو، التي انتهت بهزيمة الجيوش المصرية والسورية والأردنية، برهنت من جديد على أن الدول العربية- عاجزة عن تحرير فلسطين. وتلت حالة انهيار الروح المعنوية التي اعقبت الحرب روح جديدة من التشدد والشعور بأنه يتعين على الفلسطينيين القتال من أجل وطنهم دون مساعدة أو تدخل الدول العربية. ومن ثم صعد الفدائيون نشاطهم العسكرى وجلبت عليهم غاراتهم في قلب اسرائيل احترام وتأييد اللاجئيين بصورة متزايدة. وجاءت معركة الكرامة في مارس من عام ١٩٦٨ لتعزيز موقف الفدائيين، وذلك عندما كبدت وحدات من الفدائيين يساندها الجيش الأردني، القوات الإسرائيلية المغيرة خسائر فادحة في الأرواح، فما كان من الدول العربية الا أن استنتجت على مضض، أن (فتح) تعكس أماني الفلسطينيين، على نحو أدق من منظمة التحرير الفلسطينية، وفي صيف عام ١٩٦٨، اعترف الرئيس عبد الناصر رسميا بغرفات عندما ضمه الى وفد مصرى توجه الى موسكو. كذلك اعترفت منظمة التحرير الفلسطينية بما أحرزته حركات المقاومة من نجاح بمقاعد لهم في مجلسها الوطني. وفي خلال عام ١٩٦٨، بسطت فتح نفوذها شيئا فشيئا على المنظمة لتسيطر عليها في فبراير من عام ١٩٦٩ عندما تم انتخاب ياسر عرفات رئيسا للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

لقد كانت رسالة فتح بسيطة و هى: أن فلسطين لن يحررها غير فلسطينيين يخوضون حربا شعبية و كان ما عدا ذلك أمرا ثانويا وأنه لا مجال فى أنشطة فتح للمناقشات الايديولوجية والثورة الاجتماعية فهذه كلها أمور سوف تطرح للمناقشة فى وقت لاحق للتحرير. أما قبل ذلك فلا اقرار بأى شىء سوى مسألة استعادة فلسطين. ومن ثم جذبت فتح نحوها جميع الفلسطينيين، بغض النظر عن طبقتهم أومهنتهم، ممن يؤيدون حركة المقاومة. هذه الواقعية و البعد عن الجمود المقائدى ورفض اضاعة الوقت فى منازعات ايديولوجية لا طائل من ورائها قد أسهمت فى هيمنة فتح داخل منظمة التحرير الفسطينية.

و يمكن للمرء أن يعد بداية فتح لسبعة فلسطينيين كانوا يعملون في منطقة الخليج خلال الخمسينات، و جميعهم مسلمون سيئون و لا يزالون حتى الآن المستثناء الاثنين الذين لقيا مصرعهم على أيدى فرقة اغتيال إسرائيلية في بيروت يشكلون عماد قيادة فتح. وينتمى ياسر عرفات لأسرة من الطبقة المتوسطة في القدس، وفي حرب ١٩٤٨ عمل، كشاب مع عبد القادر الحسيني، أحد القادة العسكريين البارزين وابن عم المفتى، وما أن انتهت الحرب حتى انطلق ياسر عرفات الى غزه ومنها الى القاهرة حيث أصبح رئيسا لاتخاد الطلبة الفلسطينيين. وفي مصر وضع الخطط المهيدية لتنظيم حركة التحرير لاصلاح خلف وخليل الوزير ومحمد النجار. ثم سافر بعد ذلك الى الكويت، حيث عمل مهندسا وتعرف على ثلاثة أصدقاء، أصبحوا فيما عبد من قادة فتح وهم: فاروق قدومي وكمال عدوان وخالد الحسن. خلال تلك الفترة عندما كان السبعة يعملون في دول النفط الغنية، السعودية وقطر والكويت، تسنى لهم الحصول على الدعم الذي اصبح فيما بعد عاملا هاما في نجاح فتح.

وعن طريق تبنيها لسياسة النضال الوطني الواضحة وبتجنبها الصراعات العقائدية

استطاعت فتح أن تظفر بتأييد كل من الأنظمة المحافظة والثورية في العالم العربي على حد سواء. الأمر الذي غيرها بشدة على الجماعات البسارية الصغرى ومكنها من أن تهيمن على المقاومة لكنه كان يعني في الوقت نفسه أن بقاء فتح يعتمد على براعة سياستها مع الانظمة العربية فقد استنفذت المشاكل بين العرب معظم وقت عرفات وأثارت معظم ما واجهته فتح من متاعب، فبالرغم من أن الصورة العامة. التي عرف بها عرفات هي صورة مناضل من أجل الحرية غير حليق طلبعه الخشونة، فانه في واقع الأمر دبلوماسي وسياسي عملي اكثر منه رجلا عسكريا أومتعصبا ثوريا. وقد سنحت له الفرصة للوساطة في عدد من الخلافات التي نشبت بين الزعماء العرب وكذلك في منازعات بين الحركات المختلفة داخل المقاومة. ولعل أعظم انجازاته الدبلوماسية هو أن يظفر بتأييد الانجاد السوفيتي والصين في آن واحد.

وعلى الرغم مما اتسمت به قيادة فتح من بخانس نسبيا، كان طبيعيا أن تظهر طوائف مختلفة مما يحتم على عرفات أن يبذل جهودا مضنية من أجل الحفاظ على التوازن فيما بينهم. كانت هناك جماعة يسارية قوبة يتزعمها صلاح خلف وغالبا ما يؤيد فاروق قدومى موقفه. وهناك جماعة كثر اعتدالا يتزعمها خالد الحسن الذى تربطه علاقات وثيقه بالحكومة السعودية والذى لايزال يؤثر أقامة روابط أوثق مع الدول العربية. ومن هانين الجماعتين انبثقت فروع أصغر وبانت مهمة عرفات هى التوفيق فيما بينها فهو مناور سياسى بارع وما حققه في توحيد صفوف المنظمة على امتداد خمسة عشر عاما يعد انجازا رائعا لكنه في سبيل هذه الغاية، كثيرا ما اضطر الى الانسياق وراء الانجاهات السياسية لا توجيهها، مما حدا بمنافسيه الى اتهامه بالتناقض وأنه بلا مبدأ.

وعلى النقيض من حلفائها الجزائريين قررت فتح عدم تصفية المنظمات الفدائية

الاصغر بل السعى للتوحيد بينها مخت القيادة العامة لمنظمة التحرير الفلسطينية. ويشبه خالد الحسن علاقة فتح بهذه الجماعات كعلاقة والام وأبنائها الأشقياء غير أنها غالبا ما تكون أسوأ من ذلك بكثير حتى ان بعض قادة فتح يعبرون بوضوح عن أسفهم لعدم انخاد موقف اكثر صلابة مع المتطرفين منذ البداية. فكثيرا ما ورطت الجبهة الشمبية لتحرير فلسطين وفروعها منظمة التحرير الفلسطينية وعرقلت جهودها الدبلوماسية.

وكانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قد تشكلت في اعقاب حرب ١٩٦٧ بفترة وجيزة بعد توحيد ثلاث جماعات فدائية صغيرة. وسرعان ما بدأت في الانقسام بعد ذلك. وفي غضون عام١٩٦٨ عندما كان زعيمها چورج حبش في أحد السجون السورية أنفصلت جماعتان عن الجبهة وشكلتا منظمتين مستقلتين هما: الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين— القيادة العامة، والمنظمة العربية الفلسطينية. وتفاقمت عملية الانقسام بعد بضعة أشهر عندما أنشقت مجموعة كبيرة من شباب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة التعرير فلسطين والجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين وحتى عهد قريب أنقسمت بدورها الجبهة الشعبية التحرير فلسطين الحبهة الشعبية التحرير فلسطين والجبهة التحرير فلسطين العربة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين والجبهة التعرير فلسطين البيرة ومعارض للأحزاب السورية.

إن تاريخ الانقسام داخل صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يمكن أن ينسب من ناحية الى النزعة الفردية بين الفلسطينيين ومن ناحية آخرى الى حقيقة أن الفلسطينيين كانوا يعيشون بعد عام ١٩٤٨، في أماكن كثيرة عديدة تعرضوا معها لثاثير عدد من الأنظمة المختلفة والايديولوچيات المتبايدة، فكانت خليفة الدكتور حبش يختلف تماما عن خليفة زعماء فتح السنيين، فالدكتور حبش الذي يعتبر واحد من أذكى الأطباء في الشرق الأوسط، مسيحى ارثوذوكسى من حيفا تلقى علومه في

الجامعة الامريكية ببيروت كما أن الكثيرين من أتباعه كذلك مسيحيون لم ينشأوا في مصر أوقى دول الخليج مثل زعماء فتح، بل في سوريا والأردن ولبنان. كما أن الرجل الثاني بعد حبش في القيادة، المرحوم الدكتور وديع حداد، وزعيم الجبهة الديمقراطية الشعبية لتحرير فلسطين المنشقة، نايف حواتمة، ينتميان الى الطائفة الارثوذكسية اليونانية. وفي عام ١٩٧٠م، كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تضم عددا كبيرا من الفدائيين الارثوذكس لدرجة أنها جندت القس حنا العسكاب.

وينتمى حبش وحواتمة الى تراث عقائدى مغاير تماما لتراث القوميين الفلسطينيين من قادة فتح، فهم من سلالة القوميين العرب المسيحيين فى القرن التاسع عشر الذين اعتقدوا بأنه فى سوريا الكبرى (أى ما قد أصبح فيما بعد سوريا ولبنان والأردن وفلسطين) تكمن شخصية قومية ينبغى أن تجد تعبيرا لها فى دولة واحدة وكانوا يرون أن هذه الدولة لا ينبغى أن تقوم على أساس التضمان الاسلامى، بل على فكرة سوريا الكبرى كوحدة تاريخية وقفافية وجغرافية واضحة المعالم، كان الاحتلال العماني قد طمسها لعدة قرون، وعندما شكل حبش الحركة الوطنية العربية فى الأردن فى عام ١٩٥٣ كان يرمى الى تخقيق نفس الاهداف التى سعى لتحقيقها القوميون فى المصر التركى، وظل يؤمن طيلة الاربعة عشر عاما التالية بأن العمل القومي بزعامة عبد الناصر سوف يحل القضية الفلسطينية.

كان حبش يرى المشكلة فى أطار أوسع بكثير من رؤية عرفات واصدقاؤه، وكان يعتبرها جزء من النضال فى سبيل الحرية العربية؛ التى حال دون نيلها الاتراك والقوى الاستعمارية والصهاينة. فقد كانت فلسطين بالنسبة لحبش مسئولية عربية وأنها تتحرر بالجهود المشتركة لكل الشعب العربى، وليس من خلال حرب العصابات التى يشنها الفلسطينيون. وعندما كشفت الانظمة العربية فى عام ١٩٦٧ عن ضعفها كان رد

فعل حبش مغايرا تماما لما صدر عن عرفات. فبينما أصرت فتح على أن الانظمة يجب بخاهلها رأى حبش ضرورة الاحاطة يها.

فاذا كان العالم العربى بوضعه القائم أضعف من أن يستعيد فلسطين بأن من الضرورة تغييره. غير أدرك أيضا أن عبد الناصر والقومية العربية غير كافيين لتوحيد العرب وهزيمة إسرائيل. فالأمر يستلزم عقيدة ثورية لتعبئة الجماهير، وهو ما يفسر اعتناق حبش اللماركسية في وقت لاحق. وكما أرضح ذات مرة:

دأن حرب ١٩٦٧ والهزيمة الجديدة احداثنا ثورة شاملة في تفكيرنا » فقد قررنا تبنى الاسلوم الفيتنامى: حزب سياسى قومى وتعبثة كاملة للشعب ومبدأ عدم الاعتماد على أى نظام أو حكومة، وتحن الأن نمد العدة لخوض حرب ضد إسرائيل ومن يساندونها قد تستمر عشرين عاما أو يزيد.

كان عجليل حبث للموقف في كثير من النواحي يتم عن رؤية أوضح مما لمرفات. فقد أدرك أن الفلسطينيين لن يستطيعوا هزيمة إسرائيل اذا ما اضطروا الى المقتال بمفردهم أو بمساعدة الانظمة الموالية للعرب كتلك التي في الأردن ولبنان. وكان يرى أن اعدائهم ليسوا الصهاينة فحسب، بل أيضا والامبريالية التي تعنى بها الولايات المتحدة وأى دولة أخرى تقدم دعما عسكريا وماليا لإسرائيل والى الانظمة المربية العملية التي يرى أن المغرب هو الذي يقيها في الحكم، وكخطوة أولى لابد من الاحاطة بالملكية الهاشمية في الأردن، التي يشار اليها في بيانات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مرة بالنظام والمحميل وأخرى بالنظام والماشية والرجعية في العربية السعودية والنظام والاستسلامي في مصر، ولن تتحرر فلسطين الا اذا أحاطت بها دول ماركسية متحدة. وعندما يتم ذلك، كما ترى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الا اذا أحاطت بها دول ماركسية متحدة. وعندما يتم ذلك، كما ترى

ستتحرر كذلك لبنان والأردن من الرجعية، وسوريا والعراق من البورجوازية الصغرى، فلسوف تتغير هذه الدول بالمعنى الاشتراكى الحقيقى وتتحد وتصبح فلسطين جزء من دولة عربية ماركسية- لينيئية.

ويرجع اعتناق الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين للماركسية في جانب منه الى اعتبارات تكنيكية. فشعار «الوحدة القومي القديم فقد تأثيره وكان لابد من تعزيزه بعقيدة ثورية تتضمن نشاطا اجتماعا مع الدعاية. ومن ثم شغلت الجبهة معظم وقتها في «التدريب العقائدي» في المعسكرات وفي الريف، بل أن البدو الأردنيين كانوا قبل عام ١٩٧٠ يلقون في الخيام دروسا في الماركسية كذلك أضفي قبول الجبهة للماركسية صبغة دولية على دعايتها، فكثيرا ما كانوا يستشهدون بسوابق وقعت على الصعيد الخارجي كما كانت بيانات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مولمة باقتباس أشياء مثل آخر كلمات تفوه بها سلفادور الليندي أو قصيدة مهداه الى اميلكار كابرال. كما كانت ترسل بانتظام رسائل أخوية الى دول مثل كوبا وكوريا الشمالية واليمن الجنوبية وكان أحد الفدائيين الذي قتل في الاراضي المختلة يعرف باسم وجيفارا غزة».

أما نايف حواتمة، زعيم الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين، فكان ينتمى الى الجناح اليسارى للحركة الوطنية العربية وأصبح ماركسيا مثل جورج حبش بوقت طويل. ففى أوائل ١٩٦٩ انفصل مع مؤيدية عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وقام بتشكيل منظمته بعد أن تدخلت فتح لتحول دون نشوب قتال جنيف بين رجاله والجبهة وكان حواتمة على خلاف مع حبش منذ سنوات وتتركز شكواه الاساسية فى أن زعيم الجبهة الشمبية لتحرير فلسطين ليس ثوريا بما فيه الكفاية أما المسألة التي أثارت الكثير من الجدل، أولا فى داخل الحركة الوطنية العربية، ثم فى لجان الجبهة أثارت الكذور الذي ستلعبه البورجوازية الصغيرة. (ويدو ان كليهما اغفل حقيقة انهما

مؤيديهما كانو طبقة البورجوازية الصغيرة). لكن بيتما كان حبش يرى ضرورة التعاون معها في المراحل الاولى للثورة، رفض حواتمة التمامل معها. فما كان من حبش، وهو على دراية بتاريخه الثورى ويدرك ان الماركسيين انفسهم يضطرون الى قبول الحل الوسط— مثال على ذلك تخالف ماو مع كومنتاغ ضد اليابانيين— الا أن وصف حواتمة وباليسارية الطفولية، ومما لا شك فيه أن اسلوب الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين تزيد من قائمة الانظمة العربية التى يتعين الاحاطة بها قبل أن يتمكن فدائيوها من العمل على تخرير فلسطين سوى حكومة اليمن الجنوبية الذى ساهم حواتمة نفسه في وضع برنامجها السياسي.

لقد أفضى النزاع القائم حول «البورجوازية الصغيرة» وغيرها من الموضوعات العويصة المماثلة، كالعلاقة بين النضال العسكرى والثورة الاجتماعية، الى أول انقسام في صغوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كان أحمد جبريل، وهو ضابط فلسطيني سابق في الجيش السورى، قد شكل جبهة التحرير الفلسطينية قبل حرب ١٩٦٧ بسنوات قليلة. ثم انضم بعد ذلك بجبهته الى الائتلاف الذى تمخض عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. بيد أنه شعر بالاستياء من ضياع الوقت في المنازعات الايديولوجية التى تشابست عليها الجبهة، فانفصل بجبهته مرة أخرى في أقل من عام وأعاد تسميتها بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين— القيادة العامة. وكان جبريل يرى أن مهمة المقاومة هي القتال وليس الحديث عن البورجوازية» الصغيرة. وسرعان ما تسنى لمنظمته، على صغرها، أن تثبت أنها اكثر الجماعات الفدائية الصغيرة فعالية عسكرية.

وتعتبر فتح والجماعات المنشقة عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين منظمات المقاومة المستقلة الوحيدة. أما المنظمات الاخرى فتدين في بقائها لبعض الحكومات العربية التي تمولها وتدعمها مقابل اتباع سياسة هذه الحكومات . فجبهة التحرير العربية، مثلا، في سبيل العراق وفي التعبير عن مصلحتها داخل المقاومة، ولكن ليست لها شخصية مستقلة وتقوم بما تملية عليها العراق وبالتالي فقدت فاعليتها كأداة من أدوات المقاومة. ولا يعكس تشكيلها أية أماني سياسية فلسطينية، فقد كان الهدف من تشكيلها بكل بساطة هو التصدى لمال سوريا، المنافس الرئيسي للعراق، من تأثير على المقاومة من خلال الصاعقة، منظمتها الخاصة.

وبصرف النظر عن ولاتها فان الصاعقة هي على الاقل قوة عسكرية خطيرة، ومحتلى المرتبة الثانية بعد فتح من الناحية العادية، وكان قد قام بتشكيلها في أعقاب حرب ١٩٦٧، حزب البعث السورى الحاكم، الذى قرر، لأسباب متعددة، عدم مسائدة فتح أو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. ويدرب أعضاء الصاعقة على أيدى ضباط سوريين ويتلقوون الاموال والاسلحة. وتتكون عضويتها الفعالة الى حد كبير من أعضاء فلسطينيين من جناح حزب البعث الموالى لسوريا (الذى يعارض الجناح الموالى للمراق) الذين كانوا يقيمون في سوريا أو الأردن أو الكويت وكان يتزعم الصاعقة زهير محسن، رئيس الدائرة المسكرية بمنظمة التحرير الفلسطينية حتى وقع حادث اغتياله في عام ١٩٧٩. وبينما تلتزم الصاعقة بأيديولوجية البعث المعقدة التى يجمع بين الاشتراكية والقومية العربية— فانها تقف عادة الى جانب عرفات في المناقشات الهامة التحرير الفلسطينية.

ولا تختلف منظمات الممقاومة حول الاستراتيجية التي يتعين عليها اتباعها من أجل بلوغ هدفها فحسب، بل أنها أيضا لا تتفق حول الهدف ذاته. ولم يكن الأمر بحاجة الى تخديد هدف نهائي عندما كان من الواضح، في السنوات الاولى للمقاومة، ان النضال ميستمر لعشرات السنين وكانت كلمة «التحرير» تعبيرا غامضا بالقدر الذي يكفى معه ارضاء كل فرد لكن في اكتوبر من عام ١٩٦٨ قام صلاح خلف زعيم

فتح، بتحديد ما أصبح فيما بعد الهدف الرسمى لمنظمة التحرير الفلسطينية وهو أن: فلسطين ستشكل دولة ديمقراطية علمانية واحدة للشعب الفلسطيني. فلن تعد الدولة بصهروة تلقائية صهيونية لكن جميع اليهود المقيمين فيها والذين يرغبون في البقاء يكون لهم ما أرادوا وكما أوضحت الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين للمجلس الوطني الفلسطيني في العام التالي فانه: (في الدولة العلمانية الديمقراطية) سوف تعيش كل من العرب واليهود دون تمييز ويكون لهم الحق في تطوير ونشر سوف تعيش كل من العرب واليهود فان فلسطين الجديدة ستضم العرب واليهود الله الدورة المتضم العرب واليهود الذين يتمتعون بحقوق وواجبات وطبقة متساوية.

اذن كان الهدف هو قيام الدولة الديمقراطية لكن لم يكن هناك ادعاء بأن الفلسطينيين في أى مكان على وشك مخقيقه.. ويرى حبش أن بلوغ الهدف يستغرق ما لا يقل عن عشرين عاما، ومع وجود هذا الامل ليس ثمة حاجة إلى البدء في التفكير في الحلول الوسط، ويمكن لرجال المقاومة أن يعيشوا مع حلمهم.

تأثرت بشدة المواقف السياسية في الشرق الاوسط بحرب اكتوبر ١٩٧٣ و وذلك عندما استعادت جيوش سوريا ومصر بعض هيبتها التي فقدتها في ١٩٦٧ ، فقد أدت الحرب وما أعقبها من حظر للنفط الى ايقاظ بقية دول العالم، وبداية التفكير في المكانية التوصل الى تسوية للصراع المزمن في الشرق الاوسط وبينما كان المشاركون في مؤتمر جنيف للسلام يستعدون لعقد المؤتمر كان على الفلسطينيين ايضا ان يتحركوا ويحددوا موقفهم ويصيفوا مطالبهم.

كما كان على فتح وغيرها من المنظمات التي لها اتصالات رسمية بالعالم العربي أن تضع في اعتبارها مواقف الدول العربية المعنية، وأما الجهة وفروعها، التي كانت تعتبر كافة دول الشرق الاوسط أعداء لها، فيما عدا العراق واليمن الجنوبية وربما الجزائر، فكان بوسعها ان تكون أقل دبلوماسية، فقد كان واضحا ومثلاه ان مصر وسوريا والأردن كانت على استعداد للموافقة على تسوية اذا ما جليت إسرائيل عن المناطق التي تم احتلالها في عام ١٩٦٧، ولم تكن تنوى المطالبة ببقية فلسطين التي احتلت عام ١٩٤٨. ومن ثم كان على الفلسطينيين أن يقرروا ما اذا كانوا سيسافرون بالاجماع العربي أو يرفضون. كما كان يتعين عليهم أن يقرروا ما اذا كانوا على لستمداد للتخلى عن رؤيتهم الخاصة بالتحرير الكامل وقبول ما هو أقل وان يكن اكثر واقعية - أى الحكم الفلسطيني في تلك المناطق الصغيرة من وطنهم، الضفة الغربية وغزة، التي كان يحتمل استردادها بالطرق الدبلوماسية.

كان قرارا صعبا ومع ذلك اتخذه الكثيرون من الفلسطينيين لقد كتب فواز تركى يصف كيف أن عذاب الحرمان قد أغراه بأن هناك فرصة الآن وفي حيلتي لكي أدرك حقيقة الشعور وكيف يكون وقع التجربة على عقلي بأن الآن ولأول مرة منذ أن كنت طفلا، مواطنا في دولة وابن بلد هي بلدى... بلد كأنها ملك لي بتلالها وجبالها، ولي اعلمان يعيشون في بيوت من الآجر حيث يتسنى أن أجلس مع أهلي دون خطر يتهددني وبلاحرمان بعد اليوم، لقد وافقت فتح والصاعقة وغالبية الفلسطينيين اللين يعيشون في الشتات والمجلس الوطني الفسطيني في يونيو عام ١٩٧٤ عن استعداده يعيشون في الشتات والمجلس الوطني الفسطيني في يونيو عام ١٩٧٤ عن استعداده يقبل أي فلسطيني هذه التسوية على أماس أنها تسوية مثالية لكنهم كانوا يعتقدون أنها السبيل العملي الوحيد لتحقيق نوع من العدالة لشجهم بالإضافة الى أنهم كانوا يرون أنه المسبيل العملي الوحيد لتحقيق نوع من العدالة لشجهم بالإضافة الى أنهم كانوا يرون أنه القضاء عليها كقوة توسعية وهذا من شأنه أن يؤدي حتما الى تخسين العلاقات بين إلى والمعرب وربما هو السبيل أمام عودة اللاجئين الي وطنهم في نهاية الأمر.

لهراء أن نتحدث عن دولة علمانية في الوقت الذي لا نملك فيه شبرا واحدا من أراضينا، لقد حان الوقت لأن نكون عمليين وواقعيين.

المطرودون

وجاء رد من أطلق عليهم مؤخرا اسم الرافضين، على حجج المعتدلين متشددا ودون أى اعتبار لحقائق الموقف. وأشاروا الى أن غالبية اللاجعين قد جاءوا من يافا وحبف اوالجليل وان اقامة دولة صغيرة فى الضفة الغربية وغزة لن يحل أيا من مشكلاتهم، وراحوا يذكرون خصومهم بأن الصهاينة لم يبتاعوا سوى ستة بالمائة من الاراضى الفلسطينية وسرقوا الباقى وحين وجه اليهم النقد لعدم قبولهم بالحل الوسط ردوا بأن مصير الاستعمار إلى زوال، وانه لا يمكن لدولة المستوطن الصهيوني أن تدوم، وكانوا بعد ابريل من عام ١٩٧٥ يستشهدون بقيتنام وكمبوديا كدولتين رفضتا الحل الوسط مع «الامبرياليين» والحقتا بهم الهزيمة في نهاية المطاف.

ان نزعة الرفض الفلسطينية والعزوف عن تقديم التنازلات، والاصرار على مواصلة النضال حيث لا توجد فرصة للنصر لها تاريخ طويل فقد برزت في عام ١٩١٧، وفي عام ١٩١٧ وفي عام ١٩١٧ وفي عام ١٩٢٧ وفي المنظنيون الذين وفضوا الاستراك في الانتخابات التشريعية أو الحديث إلى اللجان الملكية كانوا وافضين وكان المفتى وافضا شأنه شأن الكثيرين من قادة حرب ١٩٤٨. وتبين الملك عبد الله في شرق الأردن، ولم يكن من الرافضين بكل تأكيد، أنه يتمار فهمهم وصرح لسير جون جلوب ذات يوم قاتلا:

لو اننى اخترقت الصحراء ودنوت من أول قطيع ماعز أصادفه واستشرته فيما اذا كنت أشد حربا على أعدائى أم لا، لكان رده على سؤالى: ٤ كم نملك من اسباب القوة وكم يملكون؟ لكن هؤلاء السياسيين المتعلمين (الزعماء العرب) وجميعهم من الحاصلين على درجات جامعية، عندما اقول لهم،اليهود أقوياء.. وأنه من الخطأ أن

نشن.. حربا؛ لا يدركون معزى ما أرمى اليه ويلقون خطبا مطولة حول الحقوق .

ان نزعة الرفض في حد ذاتها نزعة رومانسية غير مسئولة، فلا تستهدف مخقيق أي شيء، وإنما يعينها الحيلولة دون مخقيق شيء، وليس لديها ما تقدمة من حلول أو نقترحه من بدائل، انها ليست اقتناع بغير عدالة قضيتها المطلقة وهكذا لا يعنى أن الرافضين ليس لديهم حجة فمن الواضع أن لهم حجة قوية هي: اذا كنت من الجليل فلابد لك من الذهاب إلى الجليل وليس إلى الضفة الغربية ولكنهم يرفضون بحث أية حجة أخوى.

وفى حين أن لديهم القدرة، بمعنى سلبى، على تقرير مصير شعبهم (أى عن طريق تدمير أية تسوية) فانهم يرفضون مخمل مسئولية ايجاد البديل. ولعل عشرين عاما أو يزيد من الحرب ترضى فلسفة الدكتور حبثى – ليس على أساس أنه سيحيا بعدها باعتباره رجلا مريضا بالقلب والكلى – لكنها لن مخقق الكثير للاطفال الحفاة اللين ييعون اللبان فى شوارع بيروت)، وكما كتب فواز ترى يقول: ولو أنك أمضيت عشرين عاما من حياتك فى مخيم للاجئين فقد دفعت ثمناً فادحا ولو طلب منك التضحية لعشرين عاما أخرى، لاصبح الثمن لايحتمل – واذا ما طلب منك أن تلقى بعبك على كاهل طفلك الذى لم يولد بعد فاتك ترتكب ظلماه.

ولقد أوضح زهير محسن، الذى يعد واحدا من أبرز المعتدلين قبل اغتياله، خلفية نزعة الرفض بقولة: وقبل الحرب الاخيرة كانت أفكارنا حول النضال ضد الصهيونية رومانسية، فنحن لم نحدد على الاطلاق ما نريد، وكان هذا منطقيا وطبيعيا، نظرا لما لحق بنا من هزائم ملاحقة على امتداد خمسة وعشرين عاما، فقد اردنا الحرب من اجل الحرب، لتغرس في نفوسنا روح القتال بدلا من أن نسمى إلى اهداف واضحة المعالم على مراحل. لقد سيطر الاحساس بالعجز على كافة اعمالنا وتفكيرنا .

ولا يزال الاحساس بالعجز يسيطر على تفكير جبهة الرفض. فعندما يرسل أحمد جبريل، زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة، في مهام انتحارية داخل اسرائيل يرمى إلى تحقيق هدفين: تدمير أية فرصة للتوصل إلى تسوية سلمية واثارة الغارات الانتقامية الإسرائيلية التى من شأنها أن تدفع المعتدلين من الفلسطينيين إلى الانضمام إلى جبهة الرفض. ويؤيد جبريل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة حبش وجبهة التحرير الوطنية التى تخطى بتأييد العراق وجناح فتح المنشق الموالى للعراق بقيادة ابو نضال. وعلى هذه الاخيرة تقع إلى حد بعيد، مسؤلية الحرب الضروس التى نشبت بين الفلسطينيين بسبب الخلاف على الدولة الصغيرة ووقعت حوادث اغتيال لأبرز المحتدلين من أعضاء فتح— بما فيهم سعيد همامى وعز الدين خلاق ممثلى منظمة التحرير الفلسطينية في لندن وباريس— بسبب دعوتهم الصريحة لتسوية سليمة تتضمن المحتدل إسرائيل كحقيقة واقعة وفي حين تزعم فتح ان رجالها قد قتلوا على أيدى عملاء إسرائيليين كانوا قد تسللوا إلى صفوف هذه الجماعة الموالية للعراق، لم يحمرنه في بغداد.

أما الجماعة وهو ما يدعوا للدهشة – التي لا تنتمي إلى جبهة هي الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين التي يرأسها حواتمة، وبفضل قدرتها على ممارسة التقد الداتي، وهو امر غير مألوف بين الحركات الثورية، غيرت الجبهة من موقفها بعد حرب ١٩٧٣ ووثقت يخالفها مع فتح وأعلنت تأييدها لاقامة دولة في الضفة الغربية وغزة الأمر الذي لم تكن تعتبره غاية في حد ذاته بل خطوة نحو اقامة دولة فلسطين وغزة الأمر الدي لم تكن تعتبره غاية في حد ذاته بل خطوة نحو اقامة حواتمة عن الاشتراكية الملمانية المتحدة. وأسفر التغيير المترقع الذي طرأ على سياسة حواتمة عن

يجدد رهيب للصراع القائم بين جماعته والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التى يتزعمها حبش. وفي مايو ١٩٧٤، وعندما كان رجال المقاومة من الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين يقومون بمهمة انتحارية في مدينة معلوت الإسرائيلية، تركوا وراءهم وثيقة تدعوا لتشكيل سلطة وطنية على أى أرض تنتزع من العدو الصهيوني(اى اقامة دولة على جزء من الاراضى الفلسطينية وليست فلسطين كلها). وتم تلاوتها في اجتماع للمجلس الوطني الفلسطيني فما كان من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين سوى الرد على هذه الوئيقة في العام التالي. فعندما لقى ثلاثة من فدائي حبش مصرعهم في مستوطنة كسفار جلفاد، تركوا رسالة لفدائي حواتمة يحرضونهم فيما على ممارسة الضغط على قيادتهم لاتخاذ موقف رفض واضح حيث بات واضحا أن أية تسوية لا يمكن أن تكون سوى تسوية امبريالية .

هكذا تقاتل المعتدلون والرافضون من أجل تأييد الفلسطينيين والواقع أنه لم يكن هناك كثير من الشك حول النتيجة.

فكان من المؤكد أن يفوز المعتدلين لأن بينهم عرفات وكبار رجالات فتع، ولأنهم أعطوا، على الاقل، لشعبهم بصيصا من الامل. وهكذا، بدأت منظمة التحرير الفلسطينية في الأعوام التي تلتعام ١٩٧٣، في التحرك صوب قبول اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة.

وكثيرا ما تزعم إسرائيل وانصارها أن عرض الفلسطينيين بقبول مثل هذه الدولة ليس صادقا، ويشيرون إلى الميثاق الوطنى الفلسطيني، الذى تمت صياغته في عام ١٩٦٤ ، والذى يدعو إلى تخرير فلسطين الشامل ومن ثم، فانهم يغفلون عن عمد البرنامج السياسي للحركة الفلسطينية (كما يمثلها المجلس الوطني الفلسطيني) ويركزون على وثيقة تخمل بالنسبة للفلسطينيين نفس المنى الرمزى الذى كان ينطوى عليه برنامج بازل بالنسبة للصهاينة أو الفقرة ٤ بالنسبة لحزب العمال البريطاني. فالميثاق هو اعلان الحقوق التاريخية ورمز للكبرياء القومي، انه ليس بيانا حول النوايا .

ان أهداف للحركة الفلسطينية لا توجد في الميثاق بل في قرارات المجلس الوطني الفلسطيني وفي تصريحات قادتها. وبصرف النظر عن قرار يونيو ١٩٧٤ الحاسم الذي لا يزال يشكل السياسة الرسمية لمنظمة التحرير الفلسطينية، فقد أدلى ياسر عرفات وغيره بتصريحات عديدة تشير إلى استعدادهم للموافقة على بقاء إسرائيل في مقابل اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة. ففي مايو ١٩٧٨ صرح عرفات لصحيفة النيويورك تايمز بأن الحل الممكن الوحيد يمكن في التعايش بين إسرائيل ودولة فلسطينية، وأكدت منظمة التحرير الفلسطينية في مؤتمر بغداد الذي عقد في وقت فلحق قبولها لإسرائيل داخل حدود ما قبل ١٩٦٧، أذا ما التزمت بإرساء سلام عادل على اساس الانسحاب الإسرائيلي الكامل من الاراضي العربية التي احتلت عام

ويعتبر المجلس الوطنى الفلسطينى الجهاز الرئيسى لمنظمة التحرير الفلسطينية، وهو أقرب ما يكون إلى البرلمان. ويجتمع المجلس الوطنى الفلسطيني مرة كل عام. وحاليا يعقد اجتماعاته في دمشق حيث يقرر المبادىء التى ترتكز عليها سياسة منظمة التحرير الفلسطينية وينتخب اللجنة التنفيذية ويقر الميزانية وبالرغم عما يبدو من أن المجلس ليس ديمقراطيا بالمعنى الدقيق فليس عمليا اجراء انتخابات لجماعة على هذا النحو من التشتت كالفلسطينيين فان الفلسطينيين أنفسهم يشعرون بأن المجلس الوطنى الفلسطيني يعتبر نيابيا بقدر ما تسمح به الظروف، ويجيىء النواب من جميع أنحاء العالم باعداد تتناسب تقريبا مع قوة الجماعات في مختلف الدول. فيضم المجلس أربعين من الماليات المتحدة واثنين من ناتبا من الوردن وثمانية عشر من الكويت وثمانية من الولايات المتحدة واثنين من

البرازيل واربعة من بقية امريكا اللاتينية. ومن بين ٣٠١ ناتب هجد أن مائه من جماعات المقاومة (منهم ٣٥ اعضاء في فتح) الذين وقع عليهم الاختيار في المؤتمرات السنوية التي تعقدها المنظمات وسبعة وخمسين هم أعضاء النقابات المختلفة مثل نقابة العمال وحركة الطلبة ونقابة المعلمين والتنظيم النسائي كما يتم اختيار عدد أقل كممثلين لخيمات اللاجئين في المجلس. أما باقي الاعضاء فهم مستقلون يقع عليهم الاختيار على اساس الاسهم في القضية بصورة أو بأخرى. وينضم المجلس الوطني الفلسطيني عددا لا بأس به من الكتاب والمؤرخين الذين كتبوا عن فلسطين ورجال الاعمال الذين ترعوا بمبالغ ضخمة للصندوق الوطني الفلسطيني.

وبالرغم من أن لفتح أقل من ٢ ١٪ من المقاعد، فانها القوة المهيمنة في الجلس الوطنى الفلسطينية وبلقى الاعضاء المستقلون آذانا صاغية، غير أنه ليس لهم مركز قوة خاص بهم، ويرتبط معظمهم بصورة ما مع منظمة أو أخرى من منظمات، ولأسباب جلية تؤثر غالبيتهم اقامة علاقات مع فنظمة أو أخرى من منظمات، ولأسباب جلية تؤثر غالبيتهم اقامة علاقات مع فتح فمن المرجع، مثلا، أن يميل رجل العمال الفلسطيني الذي يقيم في العربية السعودية إلى عرفات وليس إلى حبش أو حواتمة كما تقف النقابات وراء فتح، فثلاثة عشر عضوا من بين الخمسة عشر أعضاء في المجلس الوطني الفلسطيني المثلين لنقابة العمال يؤيدون عرفات، مثلهم مثل ٩٠ بالمائة من الطلبة.

ويتولى الصندوق الوطنى الفلسطيني الشئون المالية لمنظمة التحرير الفلسطينية ويقوم بفرض ضربية على الفلسطينيين الذين يعملون في القطاع العام في الدول المربية. وتعد «ضرية التحرير» زهيدة وتبلغ ١٪ من الدخول الصغيرة و٥٪ على الدخول الاكبر، وتتولى الحكومات المضيفة خصمها من المنبع، أما الفلسطينيون الذين يزاولون نشاطا خاصا فيقدمون تبرعات بنفس القدر وتعتبر الدول العربية مصدر الدخل الآخر

للصندوق وحتى عام ١٩٧٩ كانت بعض الدول تختار المنظمات الفدائية التي ترغب في مساندتها وتمويلها مباشرة وليس عن طريق منظمة التحرير الفلسطينية. ومن ثم كانت العراق تمول حبش وجبريل وقوات التحرير العربية وابو نضال ولا تساند فتح. غير أن هذا كان يعنى ضرورة أن يتبع حبش والآخرون سياسة العراق اذا ما رغبوا الاستمرار في الحصول على الدعم. وكان من الواضح ان هذا الوضع غير محتمل واتخلت مؤخرا بعض الخطوات للحد من اعتماد المنظمات الفدائية على دول بعينها.

وتقرر في اجتماع قمة بغداد الذي عقد في مارس ١٩٧٩ جمع ٢٥٠ مليون دولار لمنظمة التحرير الفلسطينية لتوزيعها على مختلف المنظمات لاعن طريق الصحكومات العربية بل عن طريق الصندوق الوطني الفلسطيني وغالبا ما يغفل الغرب حقيقة ان منظمة التحرير الفلسطينية تقوم، إلى جانب وظيفتها العسكرية، بسلسلة من خدمات الرعاية وغيرها للجماعات الفلسطينية في المنفى. فلديها في الكوبت نظام تعليمي خاص وتدير في لبنان حوالي ثلاثين مصنما بواسطة الشركة العربية للتنمية العمناعية والهندسية، وأهم الخدمات التي تقوم بها منظمة التحرير الفلسطينية هو برنامجها الصحى تخت اشراف جمعية الهلال الاحمر الفلسطينية التي اسستها فتح في عام ١٩٦٩ برئاسة الدكتور فاغ عرفات، شقيق رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ويشرف الهلال الاحمر على ٣٠٥مستشفى واكثر من مائة عيادة في كافة ارجاء العالم العربي. وهناكجمعيات للهلال الاحمر في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وسويسرا والسويد. كذلك أنشأت منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت وكالة أنباء فلسطين ومركز للابحاث ومحطة اذاعة ومركز للأشطة والتصوير.

ان القوة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية تمكن في اللجنة التنفيذية التي تجمع مرتين أو ثلاثة في الشهر وتتألف من ممثلين من كافة منظمات المقاومة(فيما عدا الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي ترفض مرارا المشاركة) وعدد ضغيل من المستقلين المؤيدين، في معظمهم، لعرفات. يبد انه على الرغم من قيام اللجنة التنفيذية عادة بتنسيق النشاط السياسي، فان العمل العسكرى تقرره المنظمات نفسها. بعبدأى عن منظمة التحرير الفلسطينية. ويشكل هذا الموقف في كثير من الاحيان مصدر احراج لفرفاتوالقيادة الرئيسية، غير انهم عاجزون عن تغييره. ورغم ما بذلوه من محاولات عديدة لتوحيد كافة الفصائل المختلفة تحت قيادة موحدة فان هذا لا يحدث الا في حالة الطوارىء.

فيصر جبريل وحواتمة، على استقلالهما العسكرى ولو أن هذا الاستقلال تعرض للخطر لرفضهما الانتماء لمنظمة التحرير الفلسطينية.

هكذا لا يسيطر ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية سيطرة كاملة الا على فتح وجيش التحرير الفلسطيني وهو قوة نظامية قوامها ثلاثة أولوية مشاة ترابط عادة في القاهرة وسوريا والعراق. أما الجماعات الصغيرة فتتمسك بحرياتها في اتباع اساليبها الخاصة دون تدخل ومقرها مكاتب متواضعة في بيروت معظمها في حي الصابرة القذر. وهو حي مكتظ بالسكان ومليء بالمدافع وذوى العاهات صبية بلا أرجل وأطفال ثئير آثار جروحهم الاشمئزاز ونساء يلتف الحصى حول اذرعهن وأرجلهن، فهذا الحي هدف دائم للغارات الإسرائيلية.

وكانت جماعات المقاومة البارزة منذ عام ۱۹۷۱، أثر طردها من الأردن(انظر الفصل الثامن) قد اتخذت من لبنان وسوريا مقرا لها، وفي البلدين تحتفظ فتح والصاعقة بمعسكرات للتدريب كما أن لهم خلايا في الأردن والضفة الغربية وكان عرفات نفسه قد قام بتشكيل بعضها في الاعوام الاولى لفتح وغزة حكما تتبع الحجهة الشعبية لتحرير فلسطين وفروعها خلايا في الاراضى المجتلة وقد قام رجال حش

فى اوائل السبعينات بنشاط فعال ضد الجيش الإسرائيلى فى غزة. وهناك قواعد تابعة لمعظم هذه الجماعات فى لبنان وكذلك فى سوريا لو ان حكومة دمشق سمحت بذلك. لقد حظيت الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة أحيانا بتأييد سوريا، لكن ظلت جبهة التحرير العربية والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التى تخصل ايضا على مساعدة من العراق، فى لبنان، وحتى هناك لم تشعرا بالأمان. فلم يحدث أن قضى جورج حبش ليلتين فى مكان واحد، وعادة لا تعرف زوجته ولا أصدقاؤة مكانه.

في الاعوام التي اعقبت حرب ١٩٦٧ كان رجال المقاومة في منظمة التحرير الفلسطينية يسجلون انتصارات هامة على الجيش الإسرائيلي، الذي كان في صيف عام عدم الإسرائيلي، الذي كان في صيف عام عدم الإسرائيليون قبضتهم على الحدود الجديدة وقضوا على الخلايا في غزة، ووجد رجال المقاومة أن غركاتهم أصبحت مقيدة على نحو متزايد من جراء قسوة الحكم المسكري الإسرائيلي في الاراضي المحتلة وكذلك تشدد الحكومات العربية المجاورة التي حرصت على تجنب غارات إسرائيل الانتقامية المعتادة على اراضيها. عندئذ ادرك الكثيرون من زعماء المقاومة أن ظروف الصراع الفلسطيني جعلت حرب العصابات التقليدية أمرا متعذرا. كان يفضل الاهتداء بالحرب الجزائرية واستعداد الالهام منها، لكن مساحة الجزائر تصل الي ثمانين ضعف مساحة فلسطين كما أنها، كالصين، مكان نموذجي لحرب العصابات. لكن في الضفة الغربية لا توجد بيان يمكن لعرفات أوحبش التراجع اليها لتدعيم مواقعها، وحتى من جبال تابلس، حيث حقق الفلسطينييون بعض النجاح على البريطانيين في عام ١٩٣٨ أمكن للإسرائيليين من هجوم مباعت ضدهم في خلال يوم واحد، كما أنه لم يكن من المجدى تشجيع حقق الفلسطينييون بعض النجاح على البريطانيين في عام ١٩٣٨ أمكن للإسرائيليين من المجدى تشجيع حقق الفلسطينيون المحتلة على الاقتداء بالحرب الجزائرية حيث أن ذلك لم يسفر الاعن

كونه ذريعة يتذرع بها الاسرائيليون لتشتيت المزيد من الفلسطينيين بطرد القروبين من ديارهم.

ولما عجز رجال المقاومة عن اقامة قواعد في فلسطين، لم يكن امامهم سوى اقامتها في الدول العربية الجاورة، ومنها شنوا غاراتهم داخل إسرائيل. فرد الإسرائيليون بهجمات انتقامية واسعة لم تستهدف قواعد المقاومة ومخيمات اللاجئين فحسب، بل هاجمت ايضا أهدافا تابعة للدول التي كانت تأوى الفدائيين. وسنتناول بالبحث في الفصول التالية نتائج تلك الهجمات وما أثارته من أزمات بين الفلسطينيين والدول المربية. وقد ترتب على ذلك منع القدائيين من خوض حرب العصابات على غرار الحرب الجزائرية وارغامهم على اتباع نفس التكتيكات التي استخدمها اعداؤهم في فلسطين منذ ٢٥ عاما خلت.

وبرى الفلسطينيون أن وجهات النظر الغربية حول الارهاب قد حرفت على نحو يدعو للسخرية، فهم يعتقدون أن الغرب يحكم على هذه المسألة بقدر كبير من العاطفية لكن بدون فهم يذكر لقرائنها والادهى من ذلك أن نظرة الغرب تكاد تكون متحيزة تماما. فالفدائى الذى يحمل بندقية يعتبر، فى نظرهم، ذو أهمية أخبارية تفوق تلك التى لطيار بالسلاح الجوى يرش النابالم على مخيم للاجئين، أفلا يعد هذا الطيار اكثر من ارهابى؟ ولا يزال العالم يذكر الأحد عشر رياضيا إسرائيليا الذين يذكرون الابعمائة لاجىء الذين أودت بحياتهم الغارة الانتقامية التى شنتها إسرائيل بعد ذلك بثلاثة أيام؟

ليس هناك شعب ارهابى بطبيعته ناهيك عن الفلسطينيين الذين ليست لهم تقاليد عسكرية خاصة بهم، ومن العبث ادانتهم دون بحث الأسباب التى دفعتهم إلى العنف. فالدافع، كما يقول أى فلسطينى، هو نتيجة لمزج من الشعور بالاحباط واليأس وقد أوضح سامى الكرامى، وهو فلسطينى يقيم فى كندا، ذلك بقوله: «ان الاسباب التى لا تتسم بالعنف جميلة وما أيسرها، وكم كنا نود لو استطعنا تحقيق النصر عن طريقها، فشعبنا لا يحمل الرشاشات والقنابل لانه يستمتع بالقتل، بل لأن ذلك هو ملاذنا الاخير. لقد انتظرنا اثنين وعشرين عاما نتطلع للتحرير والحرية والديمقراطية عن طريق الام المتحدة والولايات المتحدة، لكن بغير جدوى ومن ثم كان هذا هو ملاذنا الاخير. انه السبيل الوحيد لاستمادة فلسطين والتأكيد على فشل المجتمع الدولى هو السائد بين الفلسطينيين،

ويشيرون إلى أنه منذ عام ١٩٤٧ والام المتحدة تؤيد بوضوح قيام دولة عربية فى فلسطين كما انها منذ عام ١٩٤٨ وهى تقرر سنويا اعادة توطين اللاجئين. وفى كلتا الحالتين فشلت فى تنفيذ قراراتها ويشعر الفلسطينيون بأنه طالما أن المجتمع الدولى قد مجاهلهم فليس لديهم التزامات محددة مجاهه. فلماذا يتعين عليهم مراعاة القوانين الدولية طالما أنها لا تطبق عليهم؟

وكتب فواز تركى يقول:

المشاوكة فى واقع منظم وتلقائى لشعب، ومع ذلك يطالبوننا باحترام قوانين لم نشارك المشاركة فى واقع منظم وتلقائى لشعب، ومع ذلك يطالبوننا باحترام قوانين لم نشارك فى صيغاتها ومبادىء لم تطبق علينا ابدا، وقواعد لعبة لم تدع لدراستها، وحدود لم نعرفها؟ انهم يطالبوننا باحترام مجتمع دولى باخلاقياته ومؤسساته الحرة، فى حين يفض هذا المجتمع الدولى فكرة انضمامنا اليه، فبالنسبة لى كفلسطينى فان احترام القانون والالتزام به، ذلك القانون الذى يقهرنى ويديم شعورى بالمهانة، أمر لا معنى له وعبث،

لم يوافق الكثيرون في المقاومة على الارهاب منذ البداية فهو يثير استيائهم كما

أنه سبب في احراجهم، ويعتقدون أنه يسىء إلى سمعتهم ويزيد من صعوبة حصول منظمة التحرير الفلسطينية على اعتراف دولى. تلك كانت وجهة نظر المعتدلين من رجال فتح أمثال سعيد همامى وخالد الحسن، الذين كانوا يرون أن النضال المسكرى أقل أهمية من النضال الدبلوماسى وبالرغم من ذلك فان حملة العنف التى قام بها الفلسطينيون في اوائل السبعينات قد ساعدتهم بالفعل اذ أنها حققت لهم اعترافا ما، فعين كانوا مجرد لاجئين تجاهلهم العالم، ولم يبدأ الدبلوماسيون الغربيون في الحديث عن حل لمشكلتهم الا بعد أن بدأوا في قتل بعض الافراد. وكما أشار جورج حبش نفسه قائلا:

دعندما نختطف طائرة فان هذه العملية تترك تأثيرا يفوق الأثر الذى يخلفه قتل
 مائة إسرائيلي في معركة، لقد ظل الرأى العام العالمي لعشرات السنين لا يؤيد ولا
 يعارض الفلسطينيين، أما الآن فقد بدأ العالم يتحدث عنا على الاقل؛

ان السواد الأعظم من أعمال العنف قامت به جماعتان متطرفتان هما: الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومنظمة ايلول الاسود، وهي جماعة مجهولة من المنشقين من فتح وغيرها بدأت عملياتها باغتيال وصفى التل، رئيس الوزراء الأردني في عام ١٩٧١، فقد قامت هاتان المنظمتان بمعظم العمليات المثيرة كاختطاف الطائرات والهجوم على المطارات ومكاتب شركات الطيران الإسرائيلي والاستيلاء على السفارات وغيرها، وكانت الاهداف متعددة، فأحيانا يبدو هدفهم الوحيد هو أن يذكروا العالم بوجودهم، وعادة يأخذون الرهائن ويحاولون استبدالها بفدائيين في السجون الإسرائيلية. ومن حين لآخر يكون العنف، كما هو الحال في مقتل وصفى التل، عملا انتقاميا.

وفى اعقاب حرب اكتوبر من عام ١٩٧٣، كانت الجبة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين— القيادة العامة، تقومان باعمال العنف بهدف احباط أية محاولة للاتفاق بين إسرائيل والدول العربية.

ولم يكن هناك ما يدعوا للفرابة فى أن يؤيد فدائبو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين العنف. وكان ذلك دليلا على شعورهم بالاحباط. فالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أشد جميع المنظمات تشاؤما.

ويقينا فان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لن تقدم على انقاذ الموقف اذا ما طلب منها الموافقة على حل وسط وذلك لأنها تؤمن، في المقام الاول، بقداسة مهمتهما - بتحرير الوطن بأسره وعودة كافة اللاجئين. وبأنه لا ينبغى على الاطلاق لتنيس المهمة بأنصاف الحلول أى بتحرير جزء من الاراضى أوعودة بعض اللاجئين. وأنه لا يجب السماح للسياسة أو الدبلوماسية بالتدخل في قضية مقدسة تهون في سيلها التضحة.

وما كان لفدائى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أن يتصرفوا على هذا النحو لو انهم كانوا على يقين من كسب قضيتهم. وسواء عن وعى أو دون وعى فانهم يتوقون إلى الشهادة، فهناك فرص للحياة فى لعبة الروليت الروسية اكبر نما فى عملية اختطاف الطائرات، ومع ذلك فان ليلى خالد، الفتاة الفلسطينية الجميلة، أجرت ثلاث عمليات جراحية بخميلية بعد أن قامت بأول عملية اختطاف حى يتسنى لها استئناف محاولة اختطاف طائرة إسرائيلية مسلحة. وحذا فدائيون الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى عمليات أخرى، حدو حلفائهم فى الجيش الاحمر اليابانى، وتجنبوا، عن عمد، أية فرصة للفرار. وبحلول عام ١٩٧٣ كانوا قد بدأوا فى القيام بحملات لاسبيل إلى العودة منها حتما. فقد كانت مهام انتحارية وكان الجميع على بينة من ذلك. وكان الفدائيون الذين يقع الاختبار عليهم يتوجهون إلى جنوب لبنان لتلقى التعليمات الفدائيون الذين يقع الاختبار عليهم يتوجهون إلى جنوب لبنان لتلقى التعليمات وكانوا يتركون رسائل لذوبهم ورفاقهم ويلتقطون العديد من الصور الفوتوغرافية وقد

تشابكت ايديهم وتوعدت بنادقهم. وينتهى بهم الامر إلى عبور الحدود ولم يراهم بعد ذلك سوى ضحاياهم وقاتليهم، كانت هذه هى الشهادة التى انتظرونها وأرادوها، ولم يعق غير سؤال واحد هو: كم عدد الضحايا الذين سوف يصحبونهم؟ لقد نبذهم العالم واحالهم إلى «شمشون» وقد عقدوا العزم على التدمير وان شملهم هذا الدمار ذلك لأنه لم يكن لهم من هدف سوى الانتقام من العالم وما كان لهم من أمل سوى أن يموت معهم اكبر عدد من اعدائهم.

الفصل الثانى

منظمة التحرير الفلسطينية والعالم العربي

ظلت فلسطين قضية عربية زهاء ١٣٠٠ سنة، فمن الناحية الجغرافية تقع فلسطين بالقرب من قلب العالم العربي ولها دائما في نفوس العرب أهمية لم ترق اليها المناطق الاخرى باستثناء الحجاز، ولم يحدث أن حظى أى جزء آخر من الوطن العربي بمثل هذا الاهتمام، ولم يدافع عن أى جزء آخر بمثل هذه الاستماتة ضد الجيوش الغازية. فالحملة الصليبية الثالثة والمغول ونابليون منيوا جميعا بالهزيمة في فلسطين على أيدى الجيوش العربية أو العثمانية التي كان الفلسطينيون لا يشكلون الا جزء منها.

ولقد ظلت فلسطين قضية حربية خلال هذا القرن وعندما زار ارنولد تونبى بغداد وحلب عقب الاضطرابات التي وقمت في الخليج وغيرها في عام ١٩٣٩، صادف جوا مشحونا بالتوتر، ووجد سكانها يهتمون بالاحداث في فلسطين اهتماما بالغا (١١).

وفى عام ١٩٣٦ قررت الحكومة العراقية، وبدافع من الروابط العراقية التى تربطها بعرب فلسطين القيام بالوساطة بين بريطانيا والفلسطينيين وخلال الثورة ذاتها تلقى الثورا مساعدة مالية كبيرة من سوريا والعراق ومصر ولما رفضت اللجنة العربية العليا، التى كان يهيمن عليها أنصار المفتى، الكتاب الابيض للحكومة البريطانية في عام ١٩٣٩، حذت حذوتها جميع الدول العربية باستثناء شرق الأردن اذ انا لما يعليه عليها الواجب.

ومنذ قيام دولة اسرائيل ازداد ارتباط العرب بالفلسطينيين وقضيتهم، فخاضت مصر اربعة حروب من أجل الفلسطينيين وقدمت سوريا والأردن ولبنان تضحيات كبيرة وتخاول الدول العربية أن يتفوق كل منها على الاخرى في تأبيد الفلسطينيين، ولا يقوى أى نظام حاكم على أن ينفر منه الرأى العام اذا ما تجاهلهم. ولقد وصف الأمير فهد ولى عهد العربية السعودية المسألة الفلسطينية بأنها انقطة ارتكاز دبلوماسية العربية السعودية، وإنها هدف ما تبذله من جهود وموضوع اهتمامها الاول والاكبر، هذا زعم طابعه المغالاة كما يتضح لكل من يلقى نظرة عابرة على السياسة الخارجية للعربية السعودية، ومع هذا فان التأبيد الشعبى العربي للفلسطينيين يعبر عن القوة إلى الحد الذي يزعم الزعماء العرب على الادلاء بمثل هذه التصريحات. وليس أدل على ذلك من أنه عندما بدأ الرائد عطا حكمه المشئوم الذي لم يدم سوى ثلاثة ايام في السودان في عام ١٩٧١، كان أول ما قام به هو الحديث عن اخلاصه للقضية الفلسطينية في عام ١٩٧١، كان أول ما قام به هو الحديث عن اخلاصه للقضية الفلسطينية قالمهوني— الامبربالي على الارض العربية، وسوف يقدم السودان كل ما تطلبه الثورة الفسطينية في سبيل استرداد اراضيها وبناء دولتها الديمقراطية، كما أن السودا سيضى أن على منظماته الفدائية الديمقراطية، كما أن السودا سيضى أن على منظماته الفدائية الديمقراطية، عما أن السودا سيضى أنه على منظماته الفدائية الديمقراطية، كما أن السودا سيوض أي حل لا يقبله شعب فلسطين عمالا في منظماته الفدائية الديمقراطية، سيرفض أي حل لا يقبله شعب فلسطين عمالا في منظماته الفدائية الديمقراطية، سيرفض أي حل لا يقبله شعب فلسطين عمالا في منظماته الفدائية الديمقراطية، سيرفض أي حل لا يقبله شعب فلسطين عمالا في منظماته الفدائية الديمقراطية،

لكن بعض الحكومات العربية لا تذهب إلى هذا الحد لانها رغم ما تعلنه على الملاً من ولاء للقضية الفلسطينية حتى سنحت لها الفرصة، تخشى بل وتكره منظمة التحرير الفلسطينية ذاتها. فمن المفهوم أن نظما ملكية محافظة كالعربية السعودية والمغرب لا تشعر بالارتياح مع رجل كحبش بينما يكره العمانيون زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لأن جزء من حركته الوطنية العربية هو الذى تولى السلطة في عدن لتحرير فلسطين لأن جزء من حركته الوطنية العربية من ظفار، ورغم ذلك، فان السعوديين والمغربيين أنفسهم يسندون بصدق الاماني الفلسطينية حتى وان كانوا لا يحبون القادة القلسطينية، ولا يؤمن كل العرب بعدالة القضية الفلسطينية فحسب، بل يؤمنون أيضا المعادية المعودية تأثرا الى حد بعيد، فقضيتهم الخاصة. وقد تأثر فيصل ملك العربية السعودية تأثرا

عميقا من جراء ضم اسرائيل للقدس ليس لانها مدينة فلسطينية فحسب، بل لأنها مدينة مقدمة بالنسبة للعرب جميعا.

ولا جدال في صدق المشاعر العربية بخاه فلسطين وان تفاوت الالتزام العربي بالنضال من أجل فلسطين واحتل المرتبة الثانية بعد الاهتمامات الداخلية أو الوطنية. فلم حدث أن اصطلحت مصالح معينة بمصالح منظمة التحرير الفلسطينية، فعادة ما تؤثر تلك الدولة مصالحها الخاصة. فعندما تعين على الأردن أو لبنان الاختيار بين تقييد حركات رجال المقاومة فوق اراضيهما أو التعرض لفازات القصف الانتقامية من جانب اسرائيل اختارتا، كما هو متوقع، تقييد حركة المقاومة، وكما هو متوقع ايضا فان الدول العربية التي لم تضطر إلى مواجهة مثل هذه المشكلة راحت مختج بشدة على التخل فيما يقوم به رجال المقاومة من أنشطة.

ولعل الجزائر، بفضل المسافة التي تجملها بمأمن من غارات اسرائيل اكثر الدول ثباتا في صداقتها لمنظمة التحرير الفلسطينية ومع ذلك لاتتردد كثيرا في أن تكون الاولوية للجزائر اذا ما اقتضى الصالح الوطني ذلك.

وكانت الجزائر أول دولة عربية تساند فتح في عام ١٩٦٢ وذلك قبل أن يسمع أى شخص اسم عرفات بوقت طويل لكن بعد ذلك بعامين عندما قامت جامعة الدول العربية بانشاء منظمة التحرير الفلسطينية للحد من العناد الفلسطيني قرر الجزائريون التخلى عن فتح واغلاق مكاتبها في مدينة الجزائر دفاعا عن موقفهم داخل جامعة الدول العربية، وأصبحت الجزائر شأنها شأن الدول العربية، من أشد مؤيدى فتح بعد ذلك بسنوات قليلة عندما باتت تسيطر على منظمة التحرير الفلسطينية. وفي عامي ١٩٧٠ و١٩٧١ كانت الجزائر هي المؤيد بشدة القتال منظمة التحرير الفلسطينية ضد الأردنيين إلى حد أنها قطعت علاقتها مع نظام الملك حسين. ولو ثبت الجزائريون

على مبدأهم، لقطعوا العلاقات الدبلوماسية مع دمشق في عام ١٩٨٦ عندما دخل الجيش السورى لبنان وهزم منظمة التحرير الفلسطينية. لكن، لدهشة بعض زعماء المقاومة، التزم الجزائريون الصحت التام، ولم يكن من الصعب معرفة السبب. فقد كانت الجزائر في غمرة نزاعها مع المغرب بشأن مستقبل الصحراء الاسبانية سابقا، وكانت سوريا واحدة من الدول القلائل التي تؤيدها، ومرة اخرى تخلت الجزائر عن المتعداء حلفاء هامين.

ولقد كان العقيد القذافي يسدى دائما النصيحة للدول العربية، ويحثها باستمرار على السماح لرجال المقاومة بالعمل من اراضيها ويصر على أنه لا يجب أن يسعى أحد إلى تسوية سلمية مع اسرائيل حتى لو أن الصهاينة عادوا إلى حدود عام ١٩٦٧.

وكذلك يمثل العراق إلى مهاجمة الدول التي يرى انها متساهلة حول القضية.

ففى توفمبر ١٩٦٧ عندما وافقت مصر على قرار مجلس الامن التابع للام المتحدة رقم ٢٤٢، وفي عام ١٩٩٠، عندما وافق عبد الناصر على وقف اطلاق النار على طول قناة السويس وقبل اقتراحات السلام التى طرحها وزير الخارجية الامريكي، كان المراقيون أول من أثاروا ضجة غير أن الرئيس عبد الناصر لم يأبه بهم. وفي خطاب القاه في مجلس الامة في ٢٤٢ توفمبر ١٩٦٧ في القاهرة، أعلن: «لسنا على استعداد للاصغاء لاولئك اللذين ينادون بشن حرب عاجلة، فهم أناس لم يخوضوا حربا في حياتهم، ولا يعترمون خوضها».

لقد بذل العرب بعض التضحيات من أجل فلسطين فبصرف النظر عن الحروب الباهظة التكاليف التي خاضوها من أجلها فانهم ساعدوا اللاجئين بطرق عديدة: فالأردن منحهم الجنسية، ووفتت لهم سوريا العمل واسقبلت مصر الآلاف منهم في القاهرة ووفرت لهم اماكن في جامعاتها، لكن الفلسطينيين عانوا ايضا الكثير على

ايدى بعض اخوتهم من العرب، ولا سيما فى الدول التى يها عدد كبير من اللاجئين والمتاحة لاسرائيل: سوويا والأردن ولبنان ولا يرجع السبب فى ذلك إلى أن أيا من هذه الدول غير متعاطفة مع القضية الفلسطينية، بل إلى وجود تناقض جوهرى بين متطلبات هذه الدول واحتياجات المقاومة.

فبوسع السورى، على سبيل المثال، أن يقول أنه يؤيد القضية الفلسطينية تأييدا مطلقا ويدلل على ذلك بالثمن الباهظ الذى تكبدته بلاده فى سبيل هذا التأييد. لكنه يقول فى الوقت نفسه أن ثمة حدودا لما هو مستعد أن يقدمه من تضحيات. وفى عام المهم الموتيد الدهشة بالعالم حيث رأى الحليفتين السابقتين سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية تتقاتلان على لبنان. والادهى من ذلك أن السوريين كانوا يساندون فى الواقع حركة لبنانية يمينية؛ أصدقاؤها الحميمون اسرائيل والأمريكيون. وتدخلوا بهدف انقاذ هذه الحركة من الهزيمة العسكرية والحيلولة دون أن نخل محلها حكومة، يسيطر عليها القوميون العرب اليساريون من اللبنانيين ومنظمة التحرير الفلسطينية لو لم تكن للمة اعتبارات أخرى لفضل السوريون، فيهما يبدو، نظام حكم فى لبنان من الفلسطينيين والقوميين العرب، تربطهم به علاقات ايديدلوجية وثيقة على نظام يمينى الفلسطينيين والقوميين العرب، تربطهم به علاقات ايديدلوجية وثيقة على نظام يمينى النظر اليها فى اطار السياسات الاقليمية، وعندئذ خلصوا الى أن انتصار القوميين العرب ومنظمة التحرير الفلسطينية وان كان مرغوبا من الناحية النظرية فانه قد يعنى كارثة بالنسبة لسوريا والمنطقة بأسرها.

ودفع السوريون بأنه لو تولت منظمة التحرير الفلسطينية الامور في بيروت لا تنهى الأمر بغزو اسرائيل للبنان وجرهم إلى خوض غمار حرب شاملة سوف يخسرونها لا محالة. ومن ثم ذهبوا إلى لبنان وأوقفوا منظمة التحرير الفلسطينية.

أما الأردن فهى الدولة التى تربطها علاقات أوثق بالفلسطينيين وان كانت مصالحها لا تزال تتعارض مع مصالح منظمة التحرير الفلسطينية فبعد قيام الملك عبد الله بضم الضفة الغربية، في اعقاب حرب ١٩٤٨، وجدت المملكة الأردنية أنها باتت تضم سكانا غالبيتهم من الفلسطينيين، وبالاضافة إلى نصف مليون نسمة هم سكان شرق الأردن أصبحت البلاد تأوى ما يربو على ٥٠٠،٠٠٠ فلسطيني نصفهم تقريبا من اللاجئين من المناطق التى تم غزوها في فلسطين والباقون من المقيمين في الضفة الفربية . وكان اللاجئون قد جاءوا من اللد والرملة، ومن غرب القدس، ومن يافا والقطاع الصحواوى، ومن منطقة بمر سبع، ومن الجنوب الشرقي.

واستقر اغلبيتهم في مخيمات اللاجئين حول نابلس ورام الله واريحا، لكن ما يزيد على ١٠٠ ألف منهم عبروا نهر الأردن وانتقلوا إلى مخيمات تبعث على الرثاء بالقرب من عمان والزرقاء.

كان اللاجئون فى بداية الامر فى حالة من اليأس وعدم التنظيم فأحسوا بالامتنان للاردنيين الذين وفروا لهم المأوى ووافق معظمهم على ضم عبد الله للقدس والضفة الغربية على اساس انه الخيار العملى الوحيد.

لكن فى السنوات التى اعقبت عام ١٩٤٨ عندما لم تفعل الام المتحدة من اجلهم موى اصدار القرارات حسنة النية باتوا يشعرون بالمرارة والاحباط. وشرع بعضهم فى العودة إلى ديارهم فى الليل، معرضين انفسهم لخطر دوريات الحدود الاسرائيلية، وذلك لاحضار ممتلكاتهم الشمينة او حتى ثمارهم، فكثيرون لقوا مصرعهم برصاص الجنود الاسرائيليين وآخرون منعهم الأردنيون من التسلل. وكان التوتر قد اشتد على طول خطوط الهدنة عندما بدأت اسرائيل تشن غاراتها الانتقامية على قرى الضفة الغرية.

وفى اكتوبر عام ١٩٥٣، وبعد ان لقى ثلاثة من المدنيين الاسرائيليين مصرعهم على اثر انفجار قنبلة قام الجيش الاسرائيلي بغارة انتقامية على قرية اقبية، منذ منتصف الليل قام بتدمير القرية باكملها فنسف البيوت بمن فيها وقتل ٢٦ شخصا. كان من الواضح أنه لم يكن لسكان قرية قبية اى تدخل فى الهجوم السابق الذى شنه متسللون يائسون وليس قروبون آمنون، كان الاسرائيليون على بينةنمن هذا وبالرغم من ذلك قاموا بهجومهم.

لم يكن الاسرائيليون يهتمون بالعثور على المهاجمين الحقيقيين- فقدعرض الجنرال جلوب، قائد الجيش الأردني، على الاسرائيليين التعاون معهم لمنع التسلل إلى حد السماح لهم بتتبع القتلة بكلابهم- بل كان اهتمامهم منصبا على اقامة مابات يعرف بالاسلوب الاسرائيلي في التعامل مع المتسلليين الفلسطينيين ويتمثل في استخدام الارهاب بدون تمييز ضد سكان الدول العربية المجاورة حتى ترغم حكومات تلك الدول على حماية اسرائيل ضد الفلسطينيين بوضع حراسة على الحدود ومنع التسلل. وهذا الاسلوب هو ابعد ما يكون عن مبادىء الدفاع عن النفس الملم بها مثل حق والمطاردة الساخنة، كما أنه ليس الانجاه لفكرة حق الانتقام وهي فكرة قديمة حيث ان اولئك الذين يتعرضون للهجوم ويعانون ليس هم من الحقوا الضرر باسرائيل. وبعد ان رفضت اسرائيل معالجة المظالم التي لها ما يبررها والتي تدفع إلى العنف الفلسطيني فانها كذلك ترفض ما تمخض عن ذلك من ضرورة الدفاع عن النفس بدون مساعدة جيرانها ضد المتسللين الفلسطينيين، وببدلا من ذلك فانها تعمل على ارغام تلك الدول على مشاركتها بـ اكبت جماح الاستياء والعنف الفلسطيني ضد اسرائيل، وهكذا فان المأزق الذي تفرضه اسرائيل على الحكومات العربية المضيفة هو عمل بشع بحق ولا يمكن الخروج منه الا على حساب مواطنيها او تأييدها للقضية الفلسطينية. وما من /أحد يلومها لو انها وضعت مصلحة شعبها في المقام الاول.

لقد كان جلوب وعبد الله واقعيين؛ فكانا يدركان انهما خسرا الحرب وكانا على استعداد لاقرار ذلك والبدء في بناء السلام، لكن الفلسطينيين والاسرائيليين على حد سواء رفضوا التعاون. ان نفرا قليلا من الفلسطينيين هم الذين كانوا على استعداد للتخلى عن وطنهم. واستاء الفلسطينيون من محاولات الأردن الرامية إلى دفعهم على ذلك، وفي الخمسينات توليد انتقادهم للنضال الأردني الذي كانوا يعتقدون انه استسلم للصهاينة، كذلك شعروا بكراهية لنظام الحكم ذائه الذي كانوا يعتبرونه مفارقة تاريخية اقطاعية يحمية الامبراليون البريطانيون وانه عدو للقومية العربية. وكان الفلسطينيون يشعرون بالاحباط من جراء وضعهم الجديد ويعتقدون انهم ينتمون إلى مجتمع اكثر تقدما من مواطني شرق الأردن الذين كانوا يحتقرونهم ويصفونهم وبالبدوة وان كان البدو في عام ١٩٤٨ اقل من عشر عدد مكان شرق الأردن وكان امرا قاسبا على شعب كان يحكم من القدس ان يخضع لعمان، فاستاء الفلسطينيون من ذلك. فقد شعب كان يحكم من القدس ان يخضع لعمان، فاستاء الفلسطينيون من ذلك. فقد كانوا افضل تعليما من سكان شرق الأردن وكان عدد المتعلمين كبيرا وكانوا يشعرون انه لا بد وان يتولى شونهم حكومة اكثر تعاطفا معهم ومع امانيهم.

وكان من الطبيعي أن يشعر سكان شرق الأردن بالقلق ازاء تدفق الفلسطينيين وبالرغم من وجود سكان زراعيين مستقرين في الضفة الشرقية في مناطق الصلت واريد لفترة طويلة، فانه كان مجتمعا مغايرا للمجتمع القائم في فلسطين، وكان نفوذ البدو في شرق الأردن أقوى بكثير منه في الضفة الغربية وازداد هذا النفوذ عندما ولي البريطانيون عبد الله أمير على شرق الأردن، وعبد الله نت أصل حجازى، فهو ابن شريف مكة، الذي عندما جاء إلى عمان أحضر معه عددا كبيرا من اتباعه من البدو ذي البشرة السمراء، وقد شكل هؤلاء البدو فيما بعد أساس الفيلق العربي الذي كان ضباطه بريطانيين ويقوده جلوب، ولما كان هؤلاء يختلفون عرقيا وثقافيا اختلافا كبيرا عن عرب فلسطين فان الثقة بينهما لم تتوافر منذ البداية. وكان جلوب، مثله في ذلك

مثل كثير من الانجليز الذين عاشوا مع البدو لعدة سنين، يساوره النبك في عرب المدينة، وكان من رأيه أنهم ليسوا جديرين بالثقة ويشك في أن يظلوا مخلصين للأسرة الملاكة الأردنية. وفي حرب ١٩٤٨ وجد أن قواته من البدو قد هزمت الاسرائيليين في الوقت الذي أهين فيه غيرهم من العرب، وبات مقتنما بضرورة أن يظل أساس الفيلق المحربي من البدو، وكان قد التحق بالفيلق عدد ضعيل من الفلسطينيين ولكنهم استخدموا أساسا كفتيين وميكانيكيين.

هكذا يتضح أن الأردن في الخمسينات كانت دولة مقسمة بشكل خطير، فمن ناحية كان هناك مجتمع شرق الأردن التقليدي الذي يتألف من أتباع الأسرة الهاشمية من البدو والفيلق العربي وعدد من الأعيان الفلسطينيين المحافظين الذين كانوا خلال فترة الانتداب يؤيدون جماعة عبد الله النشاشي. وكان من الناحية الاخرى يقابلهم اللاجئون والمثقفون السياسيون الذين كانوا لا يزالون على تأييدهم للمفتى في منفاه بالقاهرة والذين رفضوا الموافقة على ضم عبد الله للضفة الغربية. أما المتحسمون لعبد الناصر والقومية العربية فكانوا يقيمون ما اعتبرونه سياسة النظام الانهزامية حول فلسطين واتهموه بالتواطؤ مع الاسرائيليين. وكانوا في هجومهم على الحكومة الأردنية يتلقون تأييدا قويا وصريحا من مصر وسوريا وغالبية العالم العربي.

وفى عام ١٩٥٣ تولى الملك حسين (حفيد عبد الله) السلطة رسميا وهو فى الثامنة عشر من عمره، وحاول، فى بداية الامر، التوفيق بين الفريقين ولكن فى حين أن فريقا لم يحاول اخفاء كراهيته له ظل الفريق الآخر على ولائه دون تردد، فلم يمض وقت طويل حتى مخول إلى الائتلاف الذى كان جده قد شكله وقسم الأردن، طيلة حكم حسين، بين معسكرين، ومرارا ما بدا استمرار عرشه مشكوكا فى أمره.

ففي عام ١٩٥٨، عندما لقى ابن عمه فيصل الثاني ملك العراق مصرعه في

بغداد وأخذ مد القومية العربية يقوى فى ربوع الشرق الاوسط استدعى حسين القوات البريطانية لحماية نظامه وخلال الاعوام التالية كان هدفا لسلسلة من المحاولات الرامية إلى اغتياله أو الاطاحة به، لكنه لم يواجه أشد الازمات خطورة الابعد حرب ١٩٦٧.

فقد جاء التحدى الجديد من رجال المقاومة الفلسطينية الذين أصبحوا يتمتعون بتأييد شعبي كبير في أعقاب حرب يونيو وكانوا قد جندوا أعدادا غفيرة من اللاجئين، وفي غضون أشهر معدودة أصبحت الخيمات في الضفة الشرقية مراكز لغارات الفدائيين داخل اسرائيل والمناطق المحتلة وكان حسين يكره منظمات المقاومة لأنها تستفز الاسرائيليين وتحملهم على الانتقام من الأردن، كما أنها كانت تشكل تحديا مباشرا لسلطته واصبحت اعداد غفيرة من الفدائيين المسلمين فوق ارضه وكثيرون منهم ماركسيون يتطلبون إلى الاطاحة بالملكية - تشكل في حد ذاتها خطورة. والادهى من ذلك، من وجهة نظر حسين، انهم كانوا يزعمون أنهم الممثلون الحقيقيون للشعب الفلسطيني. وهذا ما لا يمكن أن يقبله الملك حسين فالاعتراف بأن رجال المقاومة هم الزعماء الشرعيون لثلثي رعاياه (بما فيهم من يخضعون للحكم الاسرائيلي في الضفة الغربية) كان من شأنه أن يدمر اساس حكمه تماما، فبالنسبة لحسين في ذلك الوقت كان الفلسطينيون في الضفة والغربية واطنين اردنيين وأنه حاكم لهم.

وكان الكثيرون من الأردنيين يراقبون بروز رجال المقاومة، بشيء من الفزع، ورأوا فيهم تهديدا محتملا سوف يزداد خطورة ما لم تتم السيطرة عليهم بسرعة، ومنذ البداية ومستشاروا الملك وقادة جيشه وحتى أخوه الحسن، ولى العهد، يحثونه على الحد من تواجد رجال المقاومة ومن نطاق أنشطتهم كذلك حرض الامريكيون على الحد من نشاط رجال المقاومة ووقع الاختيار على والمريكيون يشجعون الأردن على ارسال ضباط جيشه إلى الولايات المتحدة للتدريب على مقاومة التمرد فأرسل معظمهم إلى وفورت

فراج، بشمال كارولينا بينما تلقى غيرهم تدريبا مماثلا في تايوان، في هذه الاثناء تمكن أعضاء الخابرات من التسلل إلى صفوف معظم منظمات المقاومة ولا سيما جماعة تدعى «كتائب النصر، وقد أسهمت في تيسير هذه العملية معركة الكرامة التي وقعت في نوفمبر من عام ١٩٦٨ التي اكتسب رجال المقاومة على اثرها سمعتهم ودفعت الآلاف من المتطوعين إلى طلب الانضمام ووافقت المقاومة على انضمامهم لصفوفها دون أن تتمكن من التحقق من أغلبيتهم، نما مكن ضباط الخابرات الأردنية من الانضمام دون مشقة.

ويبدو أن الدور الرئيسي للمخابرات كان يتمثل في استفزاز الجيش الأردني ودفعه إلى مجابهة مع رجال المقاومة تسفر عن هزيمة المقاومة وضياع قوتها ومكانتها. وبناء على ذلك، تمكن عناصر الخابرات التي كانت قد تسللت إلى صفوف كتائب النصر من جر الطرفين إلى اشتياك في نوفمبر من عام ١٩٦٨. واستدعى الجيش الأردني للتعامل مع الكتائب، غير أنه انتهز الفرصة المتاحة لضرب المنظمات الاخرى ولم تدع الحكومة إلى وقف اطلاق النار الا بعد ان ادركت مدى قوة المقاومة، وقدمت إلى الطرفين بعض التنازلات وهذا الموقف انتظاراا لجولة قادمة. ونشب القتال من جديد في فبراير عام ١٩٧٠، وعندما تفاقمت الازمة تعرض حسين من جديد لضغوط لضرب رجال المقاومة وكانوا قد وحدوا صفوفهم في منظمة التحرير الفلسطينية التي تسيطر عليها فتح، والواقع أن حسين كان اكثر حارا واعتدالا من مستشاريه وكان يأمل التوصل إلى نوع من التسوية مع عرفات، لكن بينما كان الملك يواجه صعوبة كبت جماح مؤيديه كان زعيم منظمة التحرير الفلسطينية يواجه مشاكل مع حبش وحواتمة. فكانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تخث على الدخول في معركة مع النظام منذ فترة، وكانت تعتقد، وربما على حق، في النصف الاول من عام ١٩٧٠ كان يمكن للمقاومة هزيمة الأردنيين غير ان عرفات الدبلوماسي رفض الاستيلاء على

الحكم واصر على محاولة التوصل إلى اتفاق مع الحكومة، وكان يعتقد انه لو تسنى للفدائيين هزيمة حسين فان الاسرائيليين، بتأييد من الامريكيين سيتدخلون ضدهم. وجاء رد فعل حبش بان دفع إلى نشوب ازمة جديدة في يونيو عام ١٩٧٠ عندما احتجز رجاله ٨٠ ضيفا وبفندق انتر كوتتنتال، في عمان كرهائن، ومع ذلك ظل زعيم منظمة التحرير الفلسطينية يرفض التحرك فما كان من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في اوائل شهر سبتمبر ان جعلت الحرب الاهلية امرا مؤكدا عندما افلحت في اختطاف اربع طائرات دولية ونسفت ثلاث منها في مطار صغير بشمال الأردن.

استشاط عرفات غضبا واوقف عضوية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وحمى غضب حسين واحس بالمهانة لحدوث مثل هذه الانتهاكات فوق ارضه وعجز عن الحيلولة دونها، ومع اصرار قادة جيشه على القتال ادرك الملك انه لا سبيل الآن إلى تجنب المواجهة، هذا فضلا عن انه بات الآن المد قوة واكثر ثقة عن ذى قبل. وكانت دبلوماسية عرفات واستعداده الدائم للتفاوض قد زودا حسين بفسحة من الوقت لتدعيم مركزه فتمكن من استبعاد الضباط الموالين للفلسطينيين فى الجيش، كما ان تطرف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين حول الكثيرين ضد المقاومة، وجعل الرأى العام اكثر تأييدا للملك. وفى شهر سبتمبر كان الملك فى مركز اقوى بكثير عما كان عليه فى فصل الربيم.

وفى السابع عشر من سبتمبر اطلق العنان لجيشه ليهاجم مخيمات اللاجئين فى عمان واندلعت الحرب. حقق الفدائيون فى بادىء الامر بعض الانتصارات فى الشمال واستولت الجبهة الديمراطية الشعبية، بقيادة حواتمه، على مدينة اربد، التى اطلقوا عليها واول سوفييت عربى، وشكلوا ومكتبا سياسيا، لادارتها. ثم قامت دبابات سورية ضخمة، بعد ذلك بيومين بغزو البلاد لتدعيم المقاومة وشعر الكثيرون من الأردنيين،

بما فيهم الملك، انهم سيهزمون، وشرعت اسرائيل والولايات المتحدة في خطط طارئة لشن هجوم على منظمة التحرير الفلسطينية وحلفائها السوريين ولكن سرعان ما بدأ رجال المقاومة وبصورة غير متوقعة، يفقدون زمام المبادرة،، السبب الرئيسي في ذلك هو ان مؤيدهم العرب لم يكونو على استمداد لمساعلتهم، فمنذ بداية الازمة تعهد العالم العربي كله تقريبا بتأييد المقاومة. ففي مصر كاننت اذاعة القاهرة تندد بحسين بصفة مستمرة بينما أمره الرئيس عبد الناصر أن يطير إلى القاهرة لتوضيح تصوفه، أما العراق الذي لم يكن اقل من القاهرة سخطا، فقد اتبحت له فرصة طيبة للتأثير على سير القتال، حيث كان يرابط على الاراضي الأردنية ١٢٠٠٠ جندي عراقي لمساعدة رجال المقاومة ضد اسرائيل. وناشدهم عرفات الذي كان قد تأكد من تأييدهم، الرزيارة قام المتعداد ان تشجع كل من يقاتل حسين وان كانت غير مستعدة للقيام بذلك بنفسها، استعداد ان تشجع كل من يقاتل حسين وان كانت غير مستعدة للقيام بذلك بنفسها، سحبت قواتها إلى ارض الوطن.

وكان هناك عامل آخر من عوامل الفشل تمثل في مسلك السوريين، فلو ان النظام السورى ساند رجال المقاومة باخلاص لما كان هناك شك في الاحاطة بحسين، لكن حكومة دمشق كانت منقسمة على نفسها ولم تكن على يقين مما ستفعل، ولم تكن الاوامر قد صدرت إلى قوة الدبابات للتحرك داخل الأردن بناء على تعليمات من الحكومة، وانما قامت بارسالها احدى الجماعات المتنافسة برئاسة اللواء صلاح بجيب، وقد تم ذلك دون موافقة اللواء حافظ الاسد وزير الدفاع. وكان الاسد، الذى اصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية يمارض عملية الغزو اعتقادا منه بانها من المؤكد ان تندفع اسرائيل إلى التدخل وربما تؤدى إلى حرب واسعة النطاق، وعلى الرغم من انه لم يستطيع منع الدبابات، ومن ثم استطاع الجيش الأردنى، الذى جانب الجانب الآخر غطاء جوى للدبابات، ومن ثم استطاع الجيش الأردنى، الذى جانب الجانب الآخر

يفوقه عددا في الشمال، وقف الغزاة حتى وصل السلاح الجوى الأردني إلى ميدان المعركة ودمر معظم الدبابات السورية. وعندما عادت بقايا قوة الغزو إلى سوريا كانت الحرب تشرف على النهاية وكانت مهمة حسين الوحيدة الباقية هي تطويق قواعد المقاومة في بقية البلاد- وهي عملية طلبت منها قواته في شهر يوليو بصورة شاملة وبعنف، وفي خويف 19۷۱ لم يبق في الأردن اي رجال للمقاومة.

لقد اظهرت الحرب الاهلية الأردنية للفلسطينيين انهم، في ضبوء التحليل النهائي، لا يستطيعون الاعتماد على احد من اصدقائهم في العالم العربي، فقد وقفت مصر والعراق وغيرهما تهلل من بعيد ولكنها لم تجروء على التدخل، بينما كانت مساعدة سوريا عديمة الجدوى، واخيرا ادرك الكثيرون من الفلسطينين ان شن حرب المصابات على النمط الجزائرى لم يكن عكنا لانهم ما من دولة عربية مستمدة لان توفر لهم قاعدة ينطلقون منها والاستمداد على ما يمكن ان يترتب على ذلك من جانب اسرائيل ولذلك اتجه بعضهم للعمل سرا وآثروا شن حملات مختلفة من الارهاب السرى وبدأت منظمة تعرف باسم وايلول الاسودة وقد سميت بالشهر الذي نشبت فيه الحرب الأردنية، الانتقام من كل من اعتبرته عدوا للثورة الفلسطينيين على ان نوفمبر عام ١٩٧١م وجهت اولى ضرباتها، ولم تأسف قلة من الفلسطينيين على ان يكون أول ضحاياها وصفى التل، رئيس الوزراء الأردني الذي توجيه الحرب.

فى عامى ١٩٧٠م و١٩٧١ تعرضت منظمة التحرير الفلسطينية لاقصى هزيمة عسكرية ومع ذلك استطاعت ان تبقى كمنظمة بل وان تعزز من مكانتها فى الاعوام التالية، ولعله كان يتفق والاوضاع السائدة ان يمنع العالم العربى دائما المقاومة من ان تصبح قوة عسكرية خطيرة فى الوقت الذى يسمح لها فيه بان تكون عاملا سياسيا رئيسا فى المنطقة. ففى ربيع عام ١٩٧٢ وبعد أقل من عام من انتصاره الساحق على المقاومة رفض العالم العربى محاولة حسين المطالبة من جديد بالضفة الغرية كما رفض العالم العربى بالاجماع تقريبا مشروعه الخاص باقامة عملكة عربية متحدة تقوم على الساس فيدرالى ويكون لها عاصمتان اقليميتان فى القدس وعمان. وكانت منظمة التحرير الفلسطينية رغم ما لحق من قواتها من شبه ابادة فى ميدان القتال، لا تزال تتمتع بولاء الدول العربية. وفى عام ١٩٧٤، فى مؤتمر القمة الذى عقد فى الرباط فانه حتى حسين ارغم على الاعتراف بما احرزه الفلسطينيون من انتصار سياسى واقر بقية الدول الاعضاء فى الجامعة العربية بان منظمة التحرير الفلسطينية هى «الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينية»

لم تكن الأردن سوى اول دولة عربية تدخل فى مواجهة عسكرية شاملة مع منظمة التحرير الفلسطينية، فقد اعقبها فى ذلك لبنان وسوريا، وسنتناول بالوصف ما قام بينهم من نزاع فى الفصول التالية. غير ان الكثيرون من الفلسطينيين يرون ان اكبر خيانة جاءت من مصر التى كانت اول دولة عربية تتخلى عن القتال من اجل فلسطين وتعقد صلحا مم اسرائيل.

وعلى الرغم من ان الرئيس المصرى انور السادات لم يوقع على المعاهدة المصرية الاسرائيلية حتى عام ١٩٧٩ فانها كانت تتويجا لسنوات عديدة من الدبلوماسية. وهناك من يرى ان عملية السلام بدأها سلفه جمال عبد الناصر في عام ١٩٦٧ عندما وافقت مصر على قرار مجلس الامن التابع للام المتحدة رقم ٢٤٢، ومن ثم منحت اسرائيل اعترافا ضمنيا مشروط بابرام معاهدة صلح وان لم يكن محتملا ان عبد الناصر كان سيذهب إلى حد عقد صلح منفرد مع اسرائيل. وكان اللاجئون الفلسطينيون منذ الخمسينات يتطلعون إلى عبد الناصر من اجل تخرير بلادهم يبد انه من غير المحتمل ان عبد الناصر قد فكر جديا ذات يوم في غزو اسرائيل وبات واضحا بعد عام ١٩٦٧ انه

لم يكن يهتم الا باستمادة الاراضى التى تم احتلالها فى حرب يونيو ومحقيق العدالة للست للاجئين فقبوله لمقترحات السلام الامريكية فى عام ١٩٧٠ برهن على انه ليست للدية مخططات حول اسرائيل نفسها، فقد كان يرغب فى الصلح مع اسرائيل على اساس حدود ما قبل عام ١٩٦٧ وظل هذا هذفا اساسيا لأنور السادات عندما تولى الرئاسة عند وفاة عبد الناصر. وفى اوائل عام ١٩٧١ ابلغ جوزيت سيسكو، مساعد وزير الخارجية الامريكية الاسرائيليين انهم (اى السادات) يرغب فى الانفاق مع اسرائيل ولكنه اتفاق يتسنى له الدفاع عنه وتريره امام العرب.

وفي اكتوبر من عام ١٩٧٣ شنت مصر وحلفاؤها السوريون هجوما على القوات الاسرائيلية في سيناء ومرتفعات الجولان، بيد انها كانت حربا سياسية بقدر ما هي حرب عسكرية واستهدفت تحقيق اهداف محدودة. فكان هدف السادات هو استرداد الاراضى المحتلة سواء عن طريق القتال او المفاوضات التي تعقب الحرب بين كافة الاطراف إلى جانب الاتخاد السوفيتي والولايات المتحدة. وعلى الرغم من الفضل في يتقيق هدفه فقد كان يصر انه لن يكون هناك ومزيد من الحروب، وانه من الممكن حل النزاع العربي الاسرائيلي عن طريق الدبلوماسية. وكان يعتقد انه اذا ما مضت الدول العربية التي تؤيدها روسيا في قتال اسرائيل التي يخظى بمساندة امريكا فلن يمكن احراز أي تقدم وان الشيء الحيوى بالنسبة للعرب هو كسب الصداقة الامريكية حيث ان الولايات المتحدة اللولة الوحيدة في العالم القادرة على عمارسة ضغط على امرائيل للتخلي عن الاراضى العربية.

ان استعداد مصر لان تسبق الدول العربية في الوصول إلى حل للمسألة الفلسطينية يرجع إلى حد كبير إلى اعتبارات داخلية. فكانت مصر طيلة القرن التاسع عشر ومعظم القرن العشرين واحدة من اكثر دول الشرق الاوسط بعد اليمن الشمالية واليمن الجنوبية. وكاتت القاهرة في السبعينات من اشد دول العالم فقرا وكادت ان تضاهي كلكتا في الازدحام بالسكان، ويعيش اكثرية سكانها البالغ عددهم تسعة ملايين نسمة في حالة مروعة من القاطة دون ان يجدوا ما يكفى قوتهم، وقامت في الابحال الخبر التي راح ضحيتها عدد كبير من افراد الشعب، وبينما ماتعاني منه مصر من فقر ينسب اساسا الى الزيادة الكبيرة في السكان التي تعذر على المساحة المحدودة لاراضي وادى النيل ان تمولها، كان من الواضح ان الجيش العامل المساحة المحدودة لاراضي وادى النيل ان تمولها، كان من الواضح ان الجيش العامل المهول اللازم لمحاربة اسرائيل يستنزف جانبا كبيرا من موارد البلاد، وزاد مما تعانيه من المقرل استيلاء اسرائيل على سيناء وفقدان ان الدخل نتيجة لاغلاق قناة السويس وغارات القصف التي شنتها اسرائيل في عام ١٩٧٠ والتي اسفرت عن تدمير مدن منطقة القناة ومدن وقرى الدلتا.

كانت الطبقات التجارية التى ترى فى الالتزام العسكرى الضخم والتحالف القوى مع الاتخاد السوفيتى (الذى كان لديه ٢٥ ألف خبير يرابطون فى مصر قبل عام ١٩٧٧) ما يحول دون عودة الرخاء، اول من طالبوا بالانسحاب من الصراع العربى الاسرائيلي وإقامة علاقات اوثق مع الامريكين. لكن كان هناك شعور سائد فى جميع انحاء مصر بأن البلاد بذلت الكثير من اجل الفلسطينين ويتمين عليها الأن الاهتمام مصرى من اجل مليوني لاجيء ينعم الكثيرون منهم بما هو أفضل من حياة المصربين مصرى من اجل مليوني لاجيء ينعم الكثيرون منهم بما هو أفضل من حياة المصربين انفسهم. لقد قادت الدولة العالم العربي وشاركت فى المحاولات القومية الكبرى مثل حرب فلسطين والوحدة مع سوريا والدفاع عن الثورة اليمنية – وكل ما نتجحت فى يخقيقه هو انهيار اقتصادها. وكان الزعم هو ان مصر قدمت تضحيات جسيمة من اجل العالم العربي، بما فى ذلك الفلسطينيون ولم تخصل على مقابل يذكر. وحتى دول الغنية قد برهنت بصورة تدعو للدهشة على شحها الشديد فى مساعدة المصربين

في التغلب على مشاكلهم الاقتصادية.

عندما قام السادات بزيارة القلس في اواخر عام ۱۹۷۷ أيدته غالبية كبيرة من ابناء بلده، فقد كانوا يعتقدون انه ليس امامهم من خيار سوى عقد صلح وأيدوا محاولة زعيمهم في تخقيق ذلك وكتب المؤلف المسرحي يوسف ادريس: «انني اؤيد مبادرة السادات المصرية الشعبية السلمية، وهو موقف قد لا يعيبه اشقاؤنا العرب.....ونحن في مصر لا نملك وسائل الرفض او الحرب فالرفض يحتاج الى اقتصاد قوى يمكنك بأن تقول لا دون الموت جوعا، أو تعريض نسائك وبنائك للدعارة لشيىء من الخبزة

والواقع ان رد فعل الاشقاء العرب للمبادرة كان سيتا فاتهموا السادات بالخيانة وبالانانية في محاولة استرجاع اراضيه على حساب العرب الأخرين وحمى غضبهم اكثر باتفاقيات كامب ديفيد التي تم التوقيع عليها في سبتمبر ١٩٧٨، ثم معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية بعدها بستة أشهر.كانت هذه بالنسبة للفلسطينيين تمثل الخيانات العظمى ان تقوم اكبر دولة عربية، وكانت يوما من الايام مثلا اعلا للوحدة العربية، بعقد صلح مع اسرائيل بينما لايزال كل شبر في فلسطين في ايدى الصهايئة كانت هذه بالنسبة لهم تمثل نحيانة وضربة قاضية توجه الى قضية القومية العربية. اذ كان ذلك، من ناحية يمثل نكسة للفلسطينيين أشد سوءا من هزائمهم الأردنية واللبنانية في اوائل العقد لانهم بينما كان الرئيس الاسد يهاجم بعنف منظمة التحرير واللبنائية في عام ١٩٧٧ ظل متفقا مع موقفها السياسي الرئيسي. لقد اختلف مع عرفات بشأن السيادة الفلسطينية في لبنان لكنه أيد سياسة عرفات بالنسبة لفلسطين ذاتها وهي: الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي العربية المحتلة في عام ١٩٦٧ بها دفيها القدم الشرقية وحق تقرير المصير للفلسطينيين.

بدا الزئيس السادات للفسطينيين وقد تخلى عنهم كلية، وعندما ادلى السادات

يخطابه في الكنيست الاسرائيلي لم يشر إلى منظمة التحرير الفلسطينية ولم تتضمن الوثائق التي وقعها في كامب ديفيد وواشنطن اى دور للمنظمة، التي وافق في وقت سابق بالرباط على انها والممثل الشرعي الرحيد، للشعب الفلسطيني، ان توقيعات السادات لم تعط شيئا للفلسطينين باستثناء التزام اسرائيلي بمنح الحكم الذاتي لسكان الضفة الغربية وغزة - وهو التزام تنكرت له اسرائيل فيما بعد فضلا عن انها اغفلت بالفعل معظم المسائل الهامة كمسائة اعادة توطين لاجئي ١٩٤٨ ومستقبل القدس.

وراح الفلسطينيون براقبون السادات وهو يتخلى عن حقوقهم بدهشة. فلقد كانت فلسطين دائما قضية عربية وعلى حين غرة وجد الفلسطينيون الدولة العربية الرائدة تتفض يديها طواعية عن وطنهم. أما بالنسبة للاجئين في كافة ارجاء الشرق الاوسط فكانت الضربة اشد اضمافا لروحهم المعنوية من أية ضربات اخرى. فقد كان الامل الذي راود الذين لم يروا فلسطين منذ ثلاثين عاما هو العودة إلى ديارهم في يوم من الايام «ان لم يكن في الحرب القادمة وفي الحرب التي تليها اوتلك التي تليها استها على المعاهدة عندما يتحقق النصر للعرب في نهاية المطاف، ولكن عندما وقع السادات على المعاهدة في واشنطن، وجالس، عن طيب خاطر، الرئيس كارتر ورئيس الوزراء الاسرائيلي على المروج الخضراء في البيت الابيض بدد بذلك آخر امل كان يراود على الاقل الطاعنين.

القصل الثالث

لبنان والفلسطينيين

كان لبنان حتى عام ١٩١٧، لايزال حزءا من الامبراطورية العثمانية شأته فى ذلك شأن فلسطين، فكان يعتبر جزءا من المنطقة المعروفة بسوريا الكبرى، كما كان، مثل فلسطين، مطمعاً لقوة خارجية، وفى نهاية الحرب العالمية الأولى جرى بحث مستقبل القطرين بنفس الأسلوب تقريبا، ووجدت فى الحالتين إعداد غفيرة من الوطنيين العرب بمن أرادوا أن يظل قطرهم مستقلاً وعربياً وفى كلتا الحالتين كانت هنالك دولة غربية تواقة إلى فرض سيطرتها لمصلحتها الخاصة ولمصلحة محمية لها بعينها، وفى فلسطين، تعهدت بريطانيا بإقامة وطن قومى يهودى للصهاينة، فى لبنان أصرت على أقامة دولة موالية للفرنسيين تهيمن عليها حليفتها القديمة، الطائفة أطرونية الكاوليكية.

وكان السنيون، حتى مطلع القرن العشرين، أهم الطوائف الدينية في المنطقة، وكان طبيعيا أن يكونوا، وهم على نفس مذهب الحكام العثمانيين وبشكلون الغالبية في سوريا الكبرى، أقوى الجماعات وأكثرها تمتما بالأمتيازات أما السنيون في الأقليم الذي عرف فيما بعد بلبنان فكانوا دائماً يعتبرون أنفسهم جزءا من منطقة ثقافية وسياسية واسعة، وكانت ارتباطتهم مع دمشق والمناطق الداخلية السورية أوثق منها مع منطقة جبل لبنان الأقرب، وإن تكن المعادية في غالب الأحيان، التي هي موطن المارونيين والدروز، ومن المتوقع أن يكون من أشد المؤيدين لهدف القومية العربية حماما منذ سنوات إنهيار الأمراطورية العثمانية.

وهناك طائفة واحدة لم تظهر قط الولاء للأمبراطورية العشمانية ولا حماسا للوطنيين العرب وهي طائفة الموارنة الكاثوليك. كانت هذه الطائفة متأصلة في جبل لبنان ولم تكن على استعداد لأن تفقد وضعها شبه المستقل التي كانت تتمتع به في ظل العشمانيين، وعلى الرغم من أن الموارنة كانوا يتمنون، ولا شك، التخلص من الأتراك فإنهم لم يكونو يريدون أن تبتلمهم سوريا الكبرى ويدويون في أمبراطورية عربية يهيمن عليها المسلمون .

ويعتبر الموارنة، وهم طائفة جبلية لا تشكل سوى نسبة ضئيلة من سكان الساحل، أكثر شعوب الشام استقلالية، ومن المؤكد أنهم لم يكن لهم أرتباط ثقافى أو تاريخي يذكر بالطوائف المسيحية الصغيرة في المدن الساحلية. وفقا لما ذكره اصطفان الدويحي، وهو بطريرك ماروني من القرن السابع عشر وفإن تاريخ الطائفة المارونية يعد نضالا متواصلاً من أجل الحفاظ عل شخصية قومية في يئة يهيمن عليها المسلمون (وتصدق هذه الملاحظة اليوم وإن كان يجب أن نضيف إليها إن الأساليب المارونية لحماية هذه الشخصية غالباً ما تتسم بالأستفزاز) فهي طائفة واعية جداً بتاريخها ولاتزال تذكر المحاولات المتكررة من جانب البيزنطيين والمماليك والعثمانيين الرامية للسيطرة عليها».

ومن ثم فإن الرمزية الدينية والتاريخية تلعب دوراً هاماً بين صفوف الطائفة، فعلى سبيل المثال، مخمل ميليشيات الحرب الأهلية التابعة لها القابا دينية غربية لتعيد إلى الأذهان الحملات الصليبية مثل: فرسان العذراء وخشبة الصليب وشباب القديس مارون وغيرها. وقد خاض الكثيرون منهم المعركة وهم يعلقون صلبانا ضخمة على الزى العسكرى .

وبسبب عزلتهم المحلية اضطر الموارنة إلى البحث عن حلفاء في أماكن أخرى ووقع أختيارهم على أوروبا وخاصة فرنسا. ويرجع أهتمام فرنسا بالمنطقة إلى عهد شارلمان. وفي عام ١٢٥٠ كتب لويس الحادى عشر يقول: «نحن على يقين من أن هذا الشعب الذى سمى بأسم القديس مارون يعتبر جزءا من الشعب الفرنسي وعلى الرغم من عدم وضوح الأساس الذى أقام عليه لويس الحادى عشر زعمه، فإن الفرنسيين صدقوه وأوجز لامارتين، مشاعر الكثيرين من أبناء وطنه عندما وصف لبنان وبأنها مستعمرة فرنسية رائعة في أنتظار فرنساه. ومن المؤكد أنه أبتداء من القرن السادس عشر عندما تم توقيع معاهدة بين فرنسيس الأول وحليفة سليمان العظيم يعتبر الموارنة فرنسا الحامية لهم ويصفونها وبالأم الحنونه .

استعذب الفرنسيون الدور وغالباً ما كان قنصلهم في بيروت، أبتداء من عام ١٦٥٥، شيخا مارونيا، وفي غضون القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أخذ الموارنة يعتمدون أكثر فأكثر على الفرنسيين الذين قاموا في عام ١٩٦٠ بحملة عسكرية لأعادة النظام بعد قتال واسع النطاق بين الموارنة والدروز. وكانت العلاقة بين المورانة وفرنسا وثيقة إلى حد أن أعرب بطريرك الموارنة في عام ١٩١٥عن أمتنان بلاده من فرنسا جهارا، رغم حقيقة أن لبنان، بأعتبارها جزءا من الأمبراطورية العثمانية كانت في حرب مع الجمهورية الفرنسية .

وعندما أحتل القرنسيون الأقليم في عام ١٩١٨ أعلن القائم بالأعمال الفرنسي على الملاً أن السبب الرئيسي لتواجد الفرنسيين هو حماية أصدقائهم الموارنة .

هكذا كان الموقف الماروني يحكمه عاملان: تاريخ مضطرب عنيف وصداقة مع فرنسا. واسفر هذان العاملان عن العقيدة المارونية أو «النزعة اللبنانية، وتقوم على تأكيد النزعة الفردية والأكتفاء الذاتي ورفض الأسلام والعالم العربي والأرتباط الوثيق بالغرب وبعض القيم الغربية والأصرار على بقاء لبنان بلذا مسيحيا ديمقراطيا في قلب الشرق الأوسط.

لقد ترك إنهيار الأمبراطورية العثمانية وراءه الطائفتين الدينيتين الرئيسيتين في

الشام في حالة من العداء العقائدي المتزايد، فكان مفهوم السنيين للقومية، في اطارها العربي الشامل أبعد ما يكون عن الهدف الماروني المتمثل في أقامة دولة صغيرة موالية للغرب مخت سيطرة المسيحين، مما جعل التوصل إلى حل وسط أمرا مستحيلا. وكانت لجنة الملك كرين التي بعث بها الرئيس ويلسون في أعقاب الحرب العالمية الأولى تميل بشدة إلى وجهة النظر القومية العربية وأوصت بالحفاظ على وحدة سوريا ومنح قدر من الحكم الذاتي للموارنة والدروز داخل دولة قومية سورية. ومن المؤسف أن الدولة الغربية المنتصرة لم تعر التقرير أي أهتمام بل مجاهلت أعلان أعضائها بان آخر ما تبتغيه الغالبية العظمي من الشعب هو الخضوع لأي نوع من السيطرة الفرنسية وفي نفس الوقت بعث الموارنة بوفود إلى مؤتمر الصلح الذي عقد بفرنسا للمطالبة بإنتداب فرنسي على لبنان. فقد كانوا يدركون إنهم بحاجة إلى الفرنسيين بقدر ما الفرنسيون في حاجة إليهم. فهم بذلك يكونون بمأمن من مطامع القوميين العرب في مقابل أن يوفروا لفرنسا تأييدا يمكنها الأعتماد عليه إذا حدث وأستعدت بقية السكان بسبب معارضتها للقومية العربية، وفي سان ريمو مجح التحالف الفرنسي الماروني وعرض على فرنسا في إبريل ١٩٢٠ الأنتداب على سوريا ولبنان. كانت أقامة البنان الكبرى، أول وأهم ما قام به الفرنسيون من أعمال، لقد كان قراراً مدمراً لأن الحدود التي رسمها الفرنيسون كانت حدوداً مصطنعة تماماً إذا لم يكن لها أساس تاريخي. كذلك لم تضع فرنسا في الأعتبار العوامل الثقافية أو الأقتصادية عند تخديد هذه الحدود، فكان قراراً سياسباً خالصًا لم يراعي غير مصالح الفرنسيين والموارنة، ومن ثم جعل نشوب حرب أهلية أمراً مؤكداً.

وفى المطالب التى تقدم بها الدول الغربية طالب الموارنة، بالإضافة إلى جبل لبنان بمنطاق أخرى من لبنان الحديث تشمل وادى البقاع ومنطقة عكار فى الشمال وصور صيداً فى الجنوب وأهم مينائين: بيروت وطرابلس وكان هدفهم أقامة دولة مستقلة يمكنها البقاء وتسيطر عليها الطوائف المسيحية ومع ذلك فأن إضافة هذه المناطق أكذ في واقع الأمر آن المسيحيين أصبحوا أقلية على المدى البعيد، لأنه بينما كان الموارنة غالبية في جبل لبنان نفسه، أصبحوا يشكلون أقل من ثلث سكان لبنان الكبرى، لأن المناطق الجديدة التى أصروا عليها كانت تضم غالبية مسلمة. لقد كان هذا التوسع منطقياً من الناحية الأقتصادية لأن جبل لبنان في حد ذاته لا يمكنه تحقيق الأكتفاء الذاتي ويعد سياسة قصيرة النظر لو أننا حكمنا عليها بمعايير أخرى حيث أن الوطنيين العرب رفضوه بشدة وطالبوا بأثخاد فيدرالي مع سوريا المزقة. كان إستياء الوطنيين العرب من بينهم أعداد غفيرة من اليونان الأرثوذكس وغيرهم من الطوائف المسيحية والسنيون والمسلمون غير المتشددين – وشعورهم بخيبة الأمل، وقد وجدوا أنفسهم في دولة ذات صبغة غربية تعذر عليهم الأندماج فيها هو العامل الأساسي الذي يتحكم في السياسة اللبنانية منذ عام ١٩٧٠، والسبب الرئيسي للحرب الأهلية برمتها بما في ذلك الحرب

لقد بدت السياسة الفرنسية طيلة فترة الأنتداب، كما لو أنها عاقدة العزم على إتمام الأنقسام بين البنانين الذين يتطلعون إلى الغرب وأولتك الذين ظلت ثقافتهم ورجهات نظرهم عربية، ومضى السنيون في إنكار الشريعة الجديدة والقلة منهم هى التي أمكن أقتاعها للقيام بدور حكم البلاد، وكثيراً ما طالبوا بضم المناطق الأسلامية إلى سوريا، وفي مرات عديدة، ولاسيما في عام ١٩٣٦، وقعت أعمال العنف في طرابلس وبيروت بين مؤيديهم والجماعات المارونية وأصبحت تسمى نفسها بالوطنيين اللبنانيين.

وبعد أن آستولى البريطانيون وقوة من الفرنسين الأحرار على السلطة في لبنان من حكومة فيشى في ١٩٤١، كان من الممكن أن يفضى تنفيذ أتفاقية ما قبل الحرب من أجل الأستقلال من فرنسا، إلى صراع مباشر لولا حماقة السياسة الفرنسية التى نفرت حتى بعض أصدقائها الموارنة، فإحجام ديجول عن منح الأستقلال وسجنه لأعضاء مجلس الوزراء اللبناني الذى أعلن الأستقلال قد أتنع الكثيرين بأن الفرنسيين قد أستنفذوا الأستفادة منهم، فما كان منهم إلا أن قاموا بتشكيل وحدة بين الطوائف اللبنانية لن تتكرر أبداً .

كما حالف لبنان الحظ بوجود زعيمين قادين على وضع أساس مقبول للتعايش،: بشارة الخورى، الرئيس الماروني الجديد ورياض الصلح، رئيس الوزراء السني.

أدرك الزعيمان الجديدان آن التعاون بين الطوائف هو السبيل الوحيد الذى حول دون تصدع لبنان، وأنه لا ينبغى السماح لأية طائفة بمعاداة الطوائف الأخرى ولاسيما حول السياسة الخارجية، ولا ينبغى على الموارنة أن يؤيدوا التحالف مع الغرب كما يتمين على السنيين كبت جماح تخمسهم للوحدة العربية الشاملة. كان هذا هو أساس الميثاق الوطنى غير المكتوب بين الطوائف اللبنانية .

وكان الأسلوب الذي آتيع لضمان عدم حصول أية طائفة على أكثر من نصيبها المادل هو خلق مناصب في الأدارة لا يشغلها سوى أفراد من طائفة بعينها، فعلى سبيل المثال كان رئيس الجمهورية مارونيا ورئيس الوزراء سنياً ورئيس النواب شيعياً، فكان أول حكومة لبشارة الخورى تضم ممثلين من كافة الطوائف الرئيسية، وأستمر الحال على هذا المنوال منذ ذلك الحين. كذلك أستطاع الخورى أن يوزع المناصب بين المسيحين والمسلمين بعدالة أكثر، ومن ثم أستطاع أمتصاص غضب السنين، لم يكن النظام كاملاً بحال من الأحوال، غير أنه ربما كان النظام الوحيد الممكن آنذاك، إذ وفر للطوائف المسيحية، ولاسيما الطائفة المارونية هيمنة ربما وجدت لها مبرراً في عدما وتطورها السياسي، مما أدى إلى منحهما إمتيازا يقضى بأن تكون نسبة التمثيل النيابي ٦:٥، كما عهد إلى الموازنة إلى جانب منصب الرئيس بقيادة الجيش وكتب مدير عام الأمن المام .

ولقد أتبعت هذه السياسة منذ عام ١٩٤٣ وقبل نشوب الحرب الأهلية وهكذا أصبحت الطائفية المبدأ الأساسى في الحياة اللبنانية، ومع ذلك فشلت في حل مشكلة للبنان، وأن كان على أحسن الفروض، قد خففت من حدتها، ولاتزال المشكلة التي خلقها الأنتداب الفرنسى قائمة وهي: هل يتجه لبنان إلى الشرق أم الغرب؟ وعلى الرغم من حكومة بشارة الخورى التوفيقية ظلت الشكوى بين الموارنة والوطنيين العرب قائمة لكن الموارنة قد فقدوا حمياتهم، وعلى الرغم من النهج الذي كانوا يحكمون به لازم الكثيريون منهم على رحيل الفرنسيين، أما الوطنيون العرب فعلى الرغم من أنهم تقبلوا بصورة أو بأخرى توسيع نطاق الحدود اللبنانية في عام ١٩٢٠ فأنهم لم يحققوا موى القليل من أهدافهم، وظل الموارنة يسيطرون على الدولة فهم منحازون سياسياً للغرب ولا يدون أهتماما يذكر بقضايا الدول العربية الأخرى، هذا فضلاً عن أن أمال الوطنيين في أن تمكن جامعة الدول العربية التي تأسست في أعقاب الحرب العالمية الثانية من يخقيق درجة من الوحدة العربية، سرعان ما تبين أنه درب من الأوهام.

وفى حين أن سلسلة من العوامل الجديدة قد أدت إلى تعقيد السياسات اللبنانية خلال الخمس والعشرين عاماً الماضية، ظل الصراع بين الوطنيين العرب والموارنة الذى إحتواه الميثاق الوطنى وأن لم يضع له حدا أساس مشكلات البلاد. ومع ذلك حدث مرة واحدة قبل عام ١٩٧٥ إن النظام الطائفى قد أنهار تماماً وأستقطبت البلاد خلف المؤسسات المارونية والسنية، كان ذلك في عام ١٩٥٨، عندما وافق كميل شمعون، رئيس الجمهورية وقتئذ، على مبدأ ايزنهاور وسعى إلى دفع لبنان إلى التحالف مع الغرب، مما كان يشكل، بطبيعة الحال، إنتهاكا لأول مبادئ الميثاق الوطنى، إلى جانب كونه صفعه توجه إلى الوطنين العرب. وكان الوطنيون حينذاك قد أزداد غضبهم من جراء تلاعب الحكومة في أتتخابات عام ١٩٥٧، مما أدى إلى أستبعاد معظم الزعماء الوطنيين من البرلمان وأعتزام شمعون تعديل الدستور بما يمكنه من تولى منصب

الرئاسة لفترة ثانية. كان من الصعب في غمرة الحماس النديد للوحدة العربية الشاملة في عام ١٩٥٨ أن يظل الوطنيون بدون إكتراث وجاءت ثورتهم المتوقعة. كان عبد الناصر بطلهم وأخذ الزعيمان السنيان صائب سلام ورشيد كرامي، يرددان صراحة تصريحات الرئيس المصرى حول الوحدة العربية الشاملة، لكنهما كانا يدركان أنهما لايستطيعان المضى مع عبد الناصر على طول الخط حيث أن ظروف لبنان الخاصة تتطلب تقرير كل شئ للتوصل إلى الحل الوسط عندما أنهت السياسة الحكيمة للرئيس الجديد الجنرال شهاب الثورة عاد لبنان إلى سياسيته السابقة في أقامة علاقات صداقة وليس مخالف العربية.

ولعل المؤسسة السنية راعت الطبيعة الخاصة للبنان ولكن هناك الكثيرين لا يراعون ذلك وبصورة متزايدة. وتقبل مسئولية ذلك من ناحية على الوضع الأجتماعي فبينما كانت ثروة البلاد تنمو بسرعة ظلت مستويات معيشة الكثيرين على ما هي عليه، وأن نسبة ضئيلة من هذه الشروة وجدت طريقها إلى المناطق المتخلفة، وأدى الأفتقار إلى وجود نظام للرعاية إلى ترك الأعداد المتزايدة من سكان المدن – وأكثريتهم مهاجرون من الريف – دون مسكن أو خدمات أساسية. وبدأ الجيل الجديد للوطنيين، يالهام من عبد الناصر، يطالب بنصيب عادل من السلطة السياسية والشروة. وراح يتساءل لماذ يحتفظ المسيحيون بأغلبية مقاعد البرلمان في الوقت الذي يعلم فيه الجميع أنهم أصبحوا الأن أقلية في البلاد؟ ولماذا يشغل للوارنة أهم المناصب وما السبب في أن الأغلبية الساحقة من ضباط الجيش مسيحيون؟ .

وإلى جانب المشكلة الأجتماعية كانت هناك مسألة الفلسطنيين الذين كانت مصالحهم تلتقى مع مصالح الوطنيين في نواحي كثيرة. لقد كان النصر الذي حققته إسرائيل في عام ١٩٦٧ مهيناً للعرب جميعاً وأنتهى بالأحتلال الصهيوني لاجراء من صوريا والأردن ومصر ولفلسطين بأسرها .

ومنذ ذلك الحين أصبح النضال الفلسطين يعنى بالنسبة للوطنيين العرب ما كان يعنيه نضال عبد الناصر ضد الغرب بالنسبة للجيل السابق، وفي داخل لبنان نفسه لم يكن وضع الفلسطنيين يختلف كثيراً عن وضع المسلمين الفقراء، فكان كلاهما يعيش في الأحياء القارة المقذذة التي تخيط بالعاصمة، كما عانوا مما في الجنوب من الغارات التي تشهنا إسرائيل .

فى أواخر الستينات أربط الكثيرون من الزعماء السنيين القدامى بالنظام الحاكم للرجة أنهم فقدوا الكثير من ثقة الجيل الجديد من الوطنيين العرب الأكثر تقدمية، وتولى زعامة الحرب الوطنية كمال جنبلاط، وهو زعيم دروزى كون الحركة الوطنية حول حزبه الخاص المسمى بالأشتراكيين التقدميين وكان هذا الائتلاف غير المنظم والذى لم يكن قد تبلور فى عام ١٩٦٠ عندما أدرك التقدميون أن الزعماء الوطنيين تقليد لم يعودوا قادرين على تخفيق مطالبهم. وكانت الحركة تضم عدداً من الناصريين والجماعات القومية الأخرى والأحزاب الشيوعية والأفرع اللبنانية لحزب البعث السورى والعماقرة وغيره.

كان من المتوقع أن يلاحظ الموارنة هذه التطورات بقلق والواقع أنه، فيما يبدو، أعتبروا مخططات الوطنيين وحلفائهم الفلسطينيين أعادة مألوفة للتاريخ، وأعتقد الموارنة مثلما حدث مع البيزنطيين والمماليك أن ثمة خطرا يتهددهم وتصرفوا بنفس طريقة تصرفهم الدائمة وهي رفض التوصل إلى حل وسط. ولقد تأثر موقفهم بشدة بالوضع السياسي داخل طائفتهم حيث فقد السياسيون المعتدلون من أنصار بشارة الخورى والجنرال شهاب دعامتهم وخلفهم زعماء متشددون، وأصبح يقرر بصورة متزايدة السياسة المارونية الرئيس السابق شمعون وكذلك حزب الكتائب بزعامة بيار الجميل وحزب الكتائب، منظمة غوغائية شبه عسكرية تم تشكيلها أثر زيارة قام بها زعيم المنظمة الألمانية النازية لعام 1971.

كانت المسألة الفلسطينية هي السبب في هجدد الصراع بين الموارنة والوطنيين العرب، ويتألف سكان لبنان الفلسطينيون أساساً من المسلمين السنيين الذين فروا من المحوب في عام ١٩٤٨ عبر التلال الواقعة شمالي فلسطين أو هربوا في زوارق من حيفاً. كما حدثت هجرات صغيرة في عام ١٩٦٧ عقب حرب يونيو، وكذلك عام ١٩٧٥ عندما أرغم الكثيرون من الفلسطينيين على مفادرة الأرردن. وفي عام ١٩٧٥ أرتفع عدد اللاجئين الأصلي من ١٤٠٠٠ الاجئ إلى ما يزيد على ٢٠٠٠٠ لاجئ يقيم ثلثهم في مخيمات للاجئين موزعة في أجزاء البلاد. لكن عدد الفلسطينيين ليس هو الذي أثار المارونيين على هذا النحو بل حقيقة أن بيروت قد أصبحت مقراً لحكومة المقاومة الفلسطينية.

ويحلول عام ١٩٧١ كان لبنان هو الدولة الوحيدة الباقية التي يمكن للفدائيين مهاجمة إسرائيل منها فقد الفدائيون في حرب ١٩٦٧ قواعدهم القديمة في الأراضي التي كانت تخضع لسيطرة المصربين، وفي عامي ١٩٧٠، ١٩٧١ طرد الفدائيون من الأرن، وفي سوريا تكاد حريتهم في الحركة قد قيدت تماماً. لكن في لبنان حيث الحكومة أضعف من أن تقمع المقاومة سمع للأخيرة أن تعمل كيفما شاءت. وكانت الحكومة اللبنانية قد أشترطت، في بادئ الأمر عندما تم تشكيل جيش التحرير الفلسطينية في عام ١٩٦٤، العالم المنطقينية في عام ١٩٦٤، عدم أقامة قواعد في لبنان. وعلى الرغم من ذلك جرى تدريب عدد محدود من الفدائيين في الأراضي اللبنانية وهو ما سمحت به السلطات لفترة، لكن هذا العدد لم يكن يمكن من شن غارات على إسرائيل من جنوب لبنان. لكن بعد حرب ١٩٦٧ تغير هذا كله. فنظرا للتأييد الشعبي الهائل الذي حظى به رجال المقاومة في أنحاء العالم العربي كافة وجدت الحكومة اللبنانية من الصعب فرض ميطرتها على المقاومة المارة مون أنصار المقاومة المناوة أشارة هجوم شديد من جانب كل الدول العربية الأخرى، ومن أنصار المقاومة دون أشارة هجوم شديد من جانب كل الدول العربية الأخرى، ومن أنصار المقاومة دون أشارة هجوم شديد من جانب كل الدول العربية الأخرى، ومن أنصار المقاومة

داخل لبنان وشهد عام ١٩٦٨ تزايدا سريعا لنشاط الفدائيين في جنوب البلاد حتى أنه في أكتوبر من ذلك العام أصبحت المناوشات بين الفدائبين والقوات الإسرائيلية تقع عدة مرات في اليوم الواحد .

كان القلق الذى شعر به اللبنانيون مفهوماً، فمن ناحية كان اللبنانييون يخشون الأنتقام الإسرائيلي إذ كان يسود الدوائر العربية أعتقادا بأن إسرائيل طامعة في منطقة جنوب لبنان المعروفة بحوض الليطاني – وهو أعتقاد عززته ملاحظة الجنرال دايان عقب حرب يونيو ١٩٦٧ بأن حدود إسرائيل أصبحت الآن نموذجية فيما عدا حدودها مع لبنان. وكان هذا في حد ذاته أحد الأسباب التي جعلت الحكومة اللبنانية حريصة على الأوفر لإسرائيل ذريعة لغزو البلاد. وحدث أن قرر الإسرائيليون في ذلك الوقت عدم ضم المنطقة وأكتفوا بالرد بقصف أهداف مختارة بعناية في لبنان، وكانت أكشر العمليات أثارة تلك التي وقعت في نهاية عام ١٩٦٨ عندما هبطت قوات بطائرة عمودية بمطار بيروت الدولي نسفت ثلاث عشر طائرة مدنية .

ومن ناحية أخرى كانت السلطات اللبنائية قلقة بحق من أن تشاط المقاومة وما تثيره من غارات أنتقامية من جاتب الإسرائيليين أخذ يوسع شقة الخلاف بين الموارنة والوطنتين العرب .

فقد كان من الطبيعي أن يتصدى الوطنيون العرب لإسرائيل ويتحملون نتائج ذلك. فلسطين قصيتهم ومن ثم طالبوا برفع كافة القيود المفروضة على مخركات الفدائيين. أما المؤسسة المارونية، ومن جانبها، فقد زعمت بأن لبنان يتجنب عادة الأشتراك في معارك النضال العربي ودفعت بأنه طالما أن الإسرائيلين هم الأقرى في المنطقة فأنه عمل أنتحارى المضى في استفزازهم، ومن سؤ الحظ أن زعماء البلاد بدأوا في أتخاذ الموقف إلى جانب أو أخر، بل أن رئيس الوزراء السني في ذلك الوقت، عبد

الله اليافى، ذهب إلى حد القول جهاراً أنه ينبغى السماح للمقاومة بالحرية الكاملة للقيام بأى عمليات يرغبون القيام بها. وكان لأبد الجانب الآخر، لن تلحق الضرر الأ بالتوازن الطائفي الدقيق الذي أعتمدت عليه البلاد في بقائها .

أما موقف الجيش اللبناني فكان مثالاً لمدى حساسية هذا التوازن فلم يشكل الجيش أطلاقًا قوة ثلاثية وكانت قواته وقوامها ١٤٠٠٠ مقاتل تستخدم في الحفاظ على الأمن الداخلي وليس كجزء من الجبهة العربية ضد إسرائيل، لكنه كان المؤسسة الوطنية الوحيدة التي خرجت من أزمة ١٩٥٨ دون أن تلطخ أو تمس بأذى، وأحتفظ قائدها، اللواء شهاب، بموقف حيادى كامل ورفض الأذعان لأوامر الرئيس بأستخدام الجيش إلى جانب المؤسسة المارونية، وفي الجيش كما هو في كل شئ آخر في لبنان تتمثل مختلف الطوائف الدينية، ففي حين أن غالبية الضباط من المسيحيين، وعادة من الموازنة، فأن غالبية الرتب الأخرى من الطوائف الأسلامية. ولا يمكن لجيش، على من الموازنة، فأن غالبية الرتب الأخرى من الطوائف الأسلامية. ولا يمكن لجيش، على هذا النحو من التشكيل، أن يستمر إلا إذ أستخدم داخل البلاد بحياد تام، لقد كان شهاب يدرك هذه الحقيقة ومن ثم رفض وضع قواته تخت تصرف لا تمثل سوى وجهة نظر الموازنة.

أما الموقف الذى وجدت الحكومة نفسها فيه إزاء المقاومة الفلسطينية فكان أكثر صعوبة، فبحلول عام ١٩٦٩ كان الفدائيون قد أقاموا عدداً كبيراً من القواعد في المرقوب، وهي منطقة جبيلة تقع جنوب شرق البلاد، أصبحت تعرف فيما بعد، وبأرض فتح، وزعم الموارنة أن لبنان أصبح عاجزاً الآن عن ممارسة سياسته الشرعية في هذه المنطقة، ولم يكن هذا الوضع مقبولاً لزعماء الموارنة وكان الكثيرون منهم لا يؤيد القضية الفلسطينية ألا نفاقا بينما يبدون أعجابهم سرا بالكثير في الدولة الإسرائيلية. واخدوا يطالبون بأستعادة السيطرة اللبنانية على منطقة العرقوب ووضع حد لمناوشات الفدائيين مع الإسرائيليين وكما ذكر بيار الجميل، بشئ من التبرير، في مؤتمر لحزب

الكتائب: ولو كانت المقاومة قادرة على حماية الحدود أو حماية نفسها أو لو كنا نحن قادن مع المقاومة بل مع القوات العربية بأسرها على حمايتهم ربما كنا على أستعداد للتنازل عن هذه المنطقة للمقاومة. لكن حقيقة أن تصر المقاومة على حق التصرف في حدين نعجز جميمًا عن حمايتها أمر يدعو للغرابة حقًاه."

وكان ما يريده الموارنة هو أن يحكم الجيش سيطرته على المقاومة لكنهم لم يكن يدركون إن تنفيذ مثل هذه السياسة كان من شأنه أن يؤدى حتما إلى عواقب وخيمة، فلو أن الجيش هاجم الفدائيين لترتب على ذلك ثلاث نتائج محتملة يمكن جميعها يؤدى إلى كارثة: أولاً قد يهزم وإن كان هذا أقل أحتمال وثانيا قد يحدث أنشقاق في صفوفه عندما يرفض صغار الضباط والجنود المسلحون محاربة قضية هم مرتبطون بها غير أنه حتى لو لم يقع أى من هذين الأحتمالين فمن المؤكد أن العناصر الوطنية العربية في البلاد سوف مختج ليتبع ذلك نشوب ثورة على غرار المواجهة التي وقعت في عام ١٩٥٨.

ومن ثم كان من المستحيل في عام ١٩٦٠ أن تتخذ الحكومة أجراء حاسما ضد الفدائيين الذى قام به الملك حسين في العام التالى، ولكن أذا لم تقم بأى أجراء فأن إسرائيل لن تتردد في تصعيد عملياتها الأنتقامية ضد لبنان، وعندئذ راحت الحكومة تتخبط في أطار نفسها من الورطة لأصدار الأوامر للجيش للقيام بأجراء محدود ضد الفدائيين، لكن سرعان ما أعقبت ذلك موجة من الأضطرابات عمت البلاد، وقام التقدميون والوطنيون العرب بمظاهرات تأييدا للمقاومة، وبدأ تصرف الجيش آنذاك وكأنه أجراء يقتقر إلى الحكمة .

فعند قمع مظاهرة غير شرعية في صيدا لقى عدد من الأشخاص مصرعهم وأمتدت الأشتباكات بين الجيش والفدائيين إلى بيروت وطرابلس وأستمرت على نحو متقطع من إبريل ١٩٦٩ حتى نوفمبر من نفس العام. في هذه الأثناء أصاب الشلل الحكومة اللبنانية وظلت بدون رئيس للوزراء معظم العام لأن رشيد كرامي كان قد أستقال في شهر إبريل رافضاً للمساهمة في سياسة معادية للفلسطينين .

فى وسط هذه القلاقل أنهارت الأنتقادات على الحكومة اللبنانية من جانب الدول العربية التي أستنكرت كافة المحاولات الرمية لآعادة الفدائيين. الأمر الذى كان ينطوى على قدر كبير من الرياء: فالحكومات العربية التي حثت لبنان على أطلاق يد المقاومة لم تكن بمكنا أن توافق على هذا المبدأ في بلادها. فالسوريون، الذين كان أحتجاجهم أقوى أحتجاج رفضوا السماح لأى نشاط للمقاومة من أراضيهم وأخضعوا فدائيهم الحليين لامرة الجيش السورى وكذلك الحال بالنسبة لمصر التي فقد معظم الفدائيين فيها أثناء حرب ١٩٦٧ فقد شعرت بحريتها في توجيه النقد لأى تخرك ضد المقاومة وأكدت رسالة صدرت من مجلس الأمة المصرى أثناء دولة لاحقة من القتال. وأن حماية العمل الفدائي واجب مقدس يقع على عاتق كل مواطن عربي من كل بلد عربي وأن الفدائيين الفلسطينيين في خوضهم المعركة من أجل فلسطين أنما يخوضون في واقع الأمر، معركة من أجل لبنانه؟

كان المخرج الوحيد من هذه المشكلة هو التوصل إلى حل وسط، وفي نوقمبر 1979 وقع قائد الجيش اللبناني ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية على ما بات يعرف في وقت لأحق وبأفاقية القاهرة، والواقع أنها لم تكن تسوية بقدر ما كانت أستسلاماً تاماً للموقف الفلسطيني، وعلى الرغم من أن الأتفاقية قد أعلنت أن والسلطات العسكرية والمدنية اللبنانية ستواصل ممارسة حقوقها الكاملة على كافة المناطق اللبنانية في كافة المناطق، قد تنازلت الحكومة اللبنانية عن موقفها السابق فيما يتعلق بثلاثة مسائل هامة: فسمحت لأى فلسطيني في لبنان بالأشتراك في الثورة الفلسطينية من خلال النضال المسلح ومنحت

الفدائيين سيادة كاملة على مخيمات اللاجئين التي سرعات ما خفقت أعلامهم في سمائها، والأدهى من ذلك كله أنها وافقت على مساعدة المقاومة في تصعيد عملياتها من أرض فتح، وفي مقابل ذلك تعهد قادة منظمة التحرير الفلسيطنية بكبح جماح المتطرفين الفلسطينيين وهو تعهد كانوا يدركون أنهم لا يستطيعون تنفيذه، أما التنازلات الأخرى التي أعتبر الكثيرون من زحماء الموارنة أتفاقية القاهرة خيانة، فكانوا يرون أن المقاومة الفلسطينية تتعدى على أستقلالهم مثل ما فعل غيرهم من قبل، ومن ثم قررت رفض الأتفاقية وأكدوا بأنه أذا ماعجزت السلطات عن حفظ النظام فأن الموارنة مسيح أنفسهم أستعدادا للصراع سيقدمون لها العون. وفي الوقت نفسه قرر الموارنة تسليح أنفسهم أستعدادا للصراع

ووقع أول أشتباك بين الفلسطينيين والموارنة في مارس ١٩٧٠ بمجابهة مباشرة بين ميلشيا حزب الكتائب ورجال المقاومة على مشارف بيروت. ومع رفض كرامى وجمبلاط، وكأنا يشغلان آنذاك منصبى رئيس الوزراء ووزير الداخلية، توريط الجيش في حرب ضد الفلسطينيين نصبت ميليشيا الكتائب نفسها حاميا للسيادة اللبنانية. غير أن القيادة المارونية أدركت بعد مزيد من القتال في عام ١٩٧٣ أنه يتمين عليها تعزيز قواتها بشدة أذا أرادات السيطرة على الفلسطينين. ومن ثم ففي الأشهر التالية وصلت شحنات ضخمة من الأسلحة إلى ميناء بيروت بموافقة تامة من الرئيس الماروني سليمان فريخية. كما وصلت شحة أخرى عن طريق نادى اليخت في جونية تمت بواسطة كولونيل متقاعد من السلاح الجوى الأمريكي، وكانت عملا لوكالة المخابرات المركزية يعمل صحفياً في بيروت. وكانت الأسلحة في الحالتين خاصة بحزب الكتائب وحليفة حرب الأحرار بزعامة كميل شمعون .

كانت بعض أعتراضات الموارنة على المقاومة الصحيحة، فقد أتسم الفدائيون بالغطرسة ودأبوا على التجول حول بيروت وهم يلوحون ببنادقهم، وكانوا يوقفون

السياسات كيفما ويفحصون بطاقات الهوية .

أما المشاكل الأخطر فكانت تلك التي جلبها نشاط الفدائيين على جنوب لبنان ولكى تشجع الحكومة على أتخاذ نفس الأجراء الذى أتخذه الملك حسين ضد المقاوم في عام ١٩٧٠ بدأت إسرائيل في شن حملة منتظمة من الأرهاب على القرى اللبنانية في الجنوب، وكان يعقب الغارات الجوية على مخيمات اللاجئين الأعتداء على أية قرى يشتبه في إيوائها للفلسطينن. وكان الإسرائيليين، في كل مرة ينسفون المنازل والجسور ويدمرون الشوارع والمحاصيل، وكثيراً ما كان يأسرون القرويين أنفسهم ويحملونهم إلى إسرائيل لأستجوابهم.

ولما شرع الفدائيون في القيام بعملياتهم من خارج الدول العربية توابدات الغارات الجوية الأنتقامية الإسرائيلية على لبنان. فبعد الهجوم على مطار اللد في إسرائيل في مايو ١٩٧٧ فأن اللبنانيين هم الذين عانوا من جراء ذلك على الرغم من تساؤل الرئيس في الحاج: «كيف يمكن لبنان أن يتحمل مسئولية عمل قام به أجانب أقلتهم إلى إسرائيل طائرة أجنبية في عاصمة أجنبية ؟» وأعقب حادث اللد حادث ميونخ، ونتيجة لذلك أيضا قتل الكثيرين تطبيقاً لمبدأ إسرائيل المين بالعين، وعلى الرغم من أن هذه الغارات الانتقامية تسفر عن العادة عن خسائر في الأرواح تصل إلى نسبة ١٠ أو ٢٠ عينا مقابل عين واحدة فقد غارت إسرائيل في الغارات الجوية التي أعقبت حادث ميونخ وحتى عندما وافق الفلسطنييون على وقف عملياتهم على طول الحدود في عام ١٩٧٤ أستمرت سياسة إسرائيل الإنتقامية فقد كان مخطط إسرائيل يهدف إلى أثارة الأضطرابات في لبنان وقد أفلحت ويمكن الحكم على درجة تجاحها بواقعة واحدة حدث في إبريل من عام ١٩٧٣. ففي اليوم التاسع من ذلك الشهر وصلت إلى بيروت حدثت في إبريل من عام ١٩٧٣. ففي اليوم التاسع من ذلك الشهر وصلت إلى بيروت فرقة أرهاب إسرائيلية بواسطة زورق وقامت بقتل ثلاثة من زعماء فتح (من

بينهم الشاعر كمال نصر) وعدد من الأشخاص الأخرين. وأستطاع الإسرائيليون السيطرة على إحدى مناطق ببيروت في عدة ساعات بل قاموا بتوجيه حركة المرور. ومع هذا لم يعلق الجيش اللبناني رصاصة واحدة، بل لم يفعل شئ على الأطلاق على الرغم من الأوامر التي صدرت إليه من صائب سلام رئيس الوزراء. وسرعان ما قامت مظاهرات ضخمة إحتجاجا على عدم كفاءة الجيش وطالب سلام نفسه بإقصاء قائد الجيش الماروني، أسكندر غائم، بيد أن غائم كان صديقا للرئيس فرنجية الذي رفض إقصاءه. فما كان من سلام إلا أن أستقال من منصبه لتعقيب ذلك أزمة سياسية طاحنة. إذ بعد ثلاثة أسابيع نشب قتال بين الفدائيين والجيش اللبناني لأول مرة منذ أتفاقية القاهرة.

ومع أستمرار الغارت الأتقامية الإسرائيلية بدأت عمليات إخلاء قرى الحدود من السكان، وتدفق سيل اللاجئين من أتباع المذهب الشيعى أساسا على بيروت وإحتجت المجماعات المارونية على تشريد المواطنين اللبنائيين بسبب صراع لا دخل لهم فيه. وكتب جان بابير حداد، أحد الموارنة يقول: «لقد رحبنا باللاجئين الفلسطنين ومنحناهم مأوى، ثم سمح للفدائيين بالتصرف كيفما يحلو لهم، وعلينا أن نرحب بالاجئين اللبين طردوا من ديارهم من جراء أعتداءات الفلسطنيين على إسرائيل، لكن عطف الموارنة على اللاجئيين الجدد لم يكن مقنما، فلو كان الموارنة يعنيهم حقاً مصير الشيعة لقدموا لهم يد المون عندما وصلوا إلى بيروت وهم في عوز شديد، فحقيقة أن اللاجئين ظلوا بلا مأوى وبدون عمل ويعيشون في فقر كبير في أحياء الأكواخ حول الماصمة – هذه الحقيقة تلل على أن إحتجاجات الموارنة أنما كانت تطبها أعتبارات ثلاثية وليست أى مناعر إيثار جديدة.

ولعل الأعتراض الماروني الرئيس على المقاومة هو أنها الوسيلة التي تعلقت بها

كافة الأحزاب اللبنانية التقدمية، وهذا عين ماحدث. فقد كانت قوة التقدميين مبعثرة عدد كبير من الأحزاب الصغيرة، بعضها شيوعي وبعضها وطني عربي أو ناصري وغيرها ممن يؤيد الجماعين السورى والعراقي لحزب البعث. لم تكن هذه الأحزاب في حد ذاتها ذات أهمية إذ كان مؤيدها قلة ولا تتمتع بأى قوة برلمانية، وعندما أنضمت هذه الأحزاب التقدمية بشكل أو بأخر إلى المقاومة أو إلى حركة كمال جميلاط الوطنية، التي تؤيد المقاومة بكل أخلاص، أصبحت أكثر قوة وبدأت في مطالبة الحكومة بسلسلة من الأصلاحات. لم تكن هذه المطالب متطرفة وكان يمكن لأية حكومة غربية أن توافق على معظمها دون تردد، بيد أن الموارنة تصرفوا بعنادهم المعهود ورفضوا قبول أي شيع من اليسار. وكانت التمثيل النيابي هو أحد هذه المسائل، فنسبة الستة مسيحين لكل خمسة مسلمين كانت قد محددت عند الأستقلال بناءًا على أفتراض أن المسيحيين كانوا يشكلون غالبية محدودة في الدولة. ربما كان هذا صحيحًا، وربما لم يكن، لكن لم يجر تعدادا للسكان لمعرفة ذلك. وعلى الرغم من ذلك فأنه خلال الثلاثين عاما التالية فأن معدل المواليد المرتفع بين المسلمين، ولاسيما بين الشيعة وهجرة الكثيرين من الموارنة قد أحدثا تغييرا كالما في التوازن وبات وأضحا في السبعينيات من القرن العشرين أن المسلمين يشكلون حوالي ٦٠٪ من عدد السكان، وليس ثمة خلاف على ذلك حتى من جانب الموارنة ومع ذلك رفض الموارنة رفضا تاما بحث تغيير النسبة أو حتى القيام باحصاء سكاني لمعرفة الأعداد الحقيقية .

ومن بين أمور أخرى سعى التقدميون والوطنيون العرب إلى القضاء على الطابع الطائفي للدولة، وهو أصلاح كان حزب الكتائب قد أقترحه قبل ذلك بأعوام كثيرة. لكن المؤسسة المارونية أدراك أيم تكمن مصالحهم الحقيقية وهم، من الناحية السياسية، في موقف الدفاع يدركون أن أعدادهم أصبحت قليلة كما قلت مبادرات ما ينعمون به من إمتيازات، وأختاروا بغير مبرر، الوضع الذي تكون فيه وظهورهم إلى الحائط،

وأعتبروا مخالف التقدميين والوطنيين العرب والفلسطينيين مؤامرة من جانب اليسار العالمي، هذا فضلاً عن أن رفضهم تقديم أية تنازلات على الأطلاق قد أرغم الكثيرين من السنيين المعتدلين على الأنضمام للمعسكر التقدمي .

وكان زعماء الموارنة المتشددون يستعدون منذ وقت طويل لمعركة فاصلة ... آل شمعون وحزب الأحرار الذى يتزعموه، على سبيل المثال، لم يكن قد وأفقوا، وذلك في السر، على وأتفاقية القاهرة ولم يكن يهتمون بأستمرارها فكميل شمعون لا يشعر بأى تعاطف مع الاجثين بل يكره الفلسطينيين وقد أشار إليهم في وقت لأحق بأنهم وقتلة لبنانه ، ويشاركه ابنه دورى، أمين عام الحزب نفس الآراء، فكان يشير إلى الفلسطينين سرا بأنهم عنصر من الجبناء وأن حياة اللاجئين هي ما يستحقون الإوعم بأن جميع اللبنانين يكرهونهم وكلما كان طردهم أسرع كلما كان ذلك أفضل وأن لرم فسوف نقذف بالفلسطينين إلى البحر، أنهم سيلوثونه وهذا أمر في غاية السو.

ويحلول عام ١٩٧٥ كانت أعداد وفيرة من الطائفة المارونية قد أقتنمت بأن المقاومة تنوى بجد الأستيلاء على مقاليد الأمور في البلاد. ووفقًا لجان بيبر حداد فأن هدف الفلسطينيين هو اتصفية المقاومة اللبنانية سباسيًا وجسديًا وأقامة جمهورية شعبية يسيطر عليها فليسطينو فتح وحلفاؤهم الماركسيونه ^ وهو الأمر الذي يعتبر أبعد ما يكون عن الحقيقة، فآخر ما كانوا الفلسطينيون يريدونه هو القتال داخل لبنان، وليس أدل على ذلك من دبلوماسية عرفات أثناء الحرب. فكلما كان الفلسطينيون يبغتونه هو الاحتفاظ بالقاعدة الوحيدة الباقية لعملياتهمم ضد إسرائيل ولم يكن يرغبون في إستفزاز اللبنانيين حتى ينتهجوا نفس السياسة التي إنتهجها ضدهم الملك حسين ولا أستفزاز اللبنانيين عنى المتهم الحالية التي بلغت، عقب خطاب عرفات في الأم المتحدة في نوفمبر عام ١٩٧٤، دروتها لا في الدول العربية فحسب بل وفي جميع أنحاء

العالم على حد سواء.

ومع ذلك أعتقد الموارنة أو على الأقل تظاهروا بالأعتقاد، بأن بلدهم في خطر، ورأوا أنهم لو اربد للبنان البقاء لتمين سحق المقاومة وطود الفلسطينيين وأشاروا إلى أن لبنان بعد أصغر دولة في العالم العربي وأكثرها كثافة سكانية فلماذا يتمين عليه إيواء مثل هذا العدد الهائل من اللاجئين ولماذا لا يوزعون في جميع أنحاء الشرق الأوسط؟ ولقد أيد الرئيس فرنجية هذا الرأى أبان الحرب فأعلن أنه ينبغي «توزيع الفلسطينيين بين جميع الدول العربية وفق لأمكانيات كل منهاه ، بل ذهب البعض إلى ما هو أبعد من ذلك. فأحدى الجماعات المارونية وتعلق على نفسها أسم «حماة الدروز» رفعت شعار لا فلسطين واحد في لبنان».

هكذا أخذ الهدف الماروني الرئيس يتضح شيئاً فشيئاً وهو قمع المقاومة الفلسطينة في لبنان، ثم يتبع ذلك كهدف فرعى أبعاد بعض اللاجئين على الأقل. ووفقاً للنظرية المارونية فإن هذا من شأنه حل أكبر مشكلتين تواجههما اللاد. فتصفيية المقاومة واستعادة السيطرة اللبنائية على منطقة العرقوب ومخيمات اللاجئين من شأنه أن ينهى وضع الفلسطينيين «كدولة داخل دولة»، وهو ما تعارضه الموارنة كما كان يفترض أن فشك صوف يضع حداً لغارات إسرائيل الأنتقامية .

ثانياً فإن قوة الجماعات التقدمية والوطنية العربية التي طالبت بالأصلاح السياسي ووضع حد للإمتيازات المورانية سوف تضعف إلى حد كبير إذا ما غادر الفلسطينيون البلاد .

لكن الموارنة أدركوا أنهم لايستطيعون القيام بهذه المهمة بمفردهم فلم يكن يملكون القوة ولا الرغبة في القيام بذلك. فالصدام مباشر بين الموارنة والفلسطينيين سوف يكون مدمرا ليس فقط من الناحية العسكرية. فأن أراد الموارنة تخقيق النجاح عليهم إيراز صراعهم على أنه صراع بين الفلسطينين واللبنانيين أعتقادًا منهم بأنهم في هذه الحالة بمكنهم أرغام الجيش على التدخل إلى جانبهم وسحق رجال المقاومة.

على هذا الأساس أنطلق الموارنة وأتباعهم في تنفيذ مخططهم وراحوا ينشرون أسطورة إلى الأزمة اللبنانية لا علاقة لها بالمشكلات بين اللبنانيين فالعداء التقليدي بين الموارنة والوطنيين العرب والصراعات السياسية بين اليسار واليمين والمشاكل المتعلقة بالعلاقات الأسلامية المسيحية والظلم الأجتماعي الصارخ — كل هذه تم أستبعادها كأشياء وهمية وزعموا أن المشكلة ببساطة هي بين اللبنانيين والفلسطنيين اللبنانين والفلسطنيين الذين أساعوا إلى كرم الفنيافة وعقدوا العزم على تدمير «الديمقراطية الحقيقية الوحيدة» في العالم العربي، وهب الموارنة لمواجهة هذا التحدي وذكرت السيدة كوشران أن حزب الكتائب إنما يشكل ودولة المقاومة اللبنانية ضد العدوان والأحتلال الأجنبي و١٠٠ أما كميل شمعون، الذي أثار بنفسه المواجهة اللبنانية البحتة في عام ١٩٨٥، فقد كان فيصا يبدو، يتوقع أن يؤخذ مأخذ الجد حين قال: وعلى الرغم من التدخل الخارجي الدي يؤجج الصراع فليس هناك ما يمنع الوفاق بين اللبنانين» ١١

كانت هذه النظرية منافية للمنطق بشكل مفضوح حتى أتأحداً لم ينخدع بها، ذلك لأن الموارنة قدعجزوا نماما عن تفسير حقيقة وأضحة واحدة وهي: إذا كان الفلسطينيون أعداء للبنان لماذا يفضلهم ثلاثة أخماس الشعب اللبناني على الأقل عن الموارنة ؟ ولم يكن ثمة جواب بطبيعة الحال. وفي محاولة فاشلة لتفسير تخالف الفلسطينين واللبنانيين المسلمين وجهت السيدة كوشران اللوم إلى الدعاية اليسارية «التي رفضت القضية الفلسطينية بقضية الأسلام » "ازعم آخرون أن بعض المسلمين شيوعون لا يدينون بالولاء للبنان وأن ولاءهم الأول للثورة وكانوا يرون في كمال جمبلاط أداة للجماعات المعادية للبنان ومن ثم لجأوا إلى الكذب السافر بأنهم إنما

يقاتلون الأجانب (أى روسيا)، وذات يوم كان النزاع الذى يثيره الموارنة بهدف قمع المقاومة يصوره بيار الجميل على أنه «إعتداء شيوعي» يصفه دورى شمعون بأنه «مؤامرة اليسار العالمي» «بأوامر من موسكر».

هكذا أعلنت الحرب اللبنانية، وفي سبيل التخلص من مصدر للأزعاج دفع الموارنة البلاد إلى حرب أهلية لأنهم أساؤا تقدير الموقف ولم ينخدع أحد بدعايتهم ولاسيما اللبنانيون الأخرون الذي أنضم معظمهم إلى صفوف العدو. كذلك لم يكن لأعتمادهم على الجيش ما يبروه، فقد أنقسم الجيش على نفسه وأنضمت أكثر عناصر فعاليه إلى الجانب الآخر، هكذا وجد الموارنة أنفسهم يقاتلون بمفردهم فخسروا المعركة ولم يحل دون هزيمتهم الكاملة سوى تدخل جيش أجنبي.

القصل الرابع

الحرب الأهلية اللبنانية

كان القصف الأيطالى لبيروت في عام ١٩١٢، بالنسبة لشاعر بريطانى هو جيمس اللروى فليكر، مشهدا كبيرا بأن يذكر: «فلا ينسى دوى المدافع وهو يهز زرقة البحر والسماء، ولم تكن ثمة نسمة تحرك أشجار النخيل، ولم تخيم سحابة فوق ثلوج لبنان التي هي أشبه ما يكون بالأوز العراقي، أما القصف الذى وقع في عامى ١٩٧٥ و ١٩٧٦ فكان أقل شاعرية، فلم تعد هناك أشجار النخيل التي أرتفعت في مكانها صفوف من المباني الشاهقة الجديدة... كانت المباني فيما مضى بيضاء تطل في خيلاء فأصبحت ملطخة مليئة بالثقوب وفي سمأاء المدينة تندفع سحب كثيفة من الدخان لتخفى ثلوج لبنان الشبيهة بالأوز العراقي. لم يكن هناك دوى للمدافع وأنما أنفجارات قنابل متراصلة وطلقات البنادق الروسية والامريكية التي لأتتوقف .

لايمكن أن نحدد بدقة متى بدأت الحرب الأهلية اللبنانية بل أن العالم الذى بدأت فيه هو موضع شك، فالبعض يعتقد أن أزمة ١٩٧٥ ليست سوى أستمرار لما حدث في عامى ١٩٦٩ و ١٩٧٣. وربما لم تكن هناك بداية حقيقية للحرب الأهلية تما كما يبدو وأنها بغير نهاية، أما الشئ المؤكد فهو أنه لم يسبقها أنذارات أو بيانات طنانة، وكلما حدث هو أنها تفاقمت من أحداث صغيرة متفرقة ليتسع نطاقها شيئا فشيئا لتصبح في نهاية الأمر أحداثا متلاحقة يتعذر ولعل الرصاصات الأولى أطلقت في نزاير لا علاقة له بالفسطينيين أو في أى قضايا أخرى هامة تمس البلاد، ففي فبراير عام ١٩٧٥ حدث أضطراب في صيدا حول حقوق الصيد فقد أعتقد الصيادون المحليون أن ثمة خطر يتهددهم من جراء أنشاء جماعة صيد أطلق عليها «شركة البروتين» وهي شركة لبنانية — كويتيلا مشتركة) يرأسها كميل شمعون. كما من الصيادين بتشجيع شركة لبنانية — كويتيلا مشتركة) يرأسها كميل شمعون. كما من الصيادين بتشجيع

من بعض الجماعات المتشددة إلا أن أحتجوا بشدة ونظموا مظاهرة ضخمة فى صيدا يوم ٢٦ فبراير. وحاولت وحدة صغيرة من الجيش منع المظاهرة فلم تفلح إلا فى أثارة الشغب مما أدى إلى أصابة معووف سعد عمدة صيدا ومؤيد الصيادين بأصابة خطيرة.

كانت الحادثة محلية وكان من الممكن أن تظل هكذا، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن كل من الموارنة والتقدميين حسبوا أن بوسعهم مخقيق أهداف سياسية من وراء تحويل هذه الواقعة المحلية إلى قضية كبرى. وتحرك الراديكاليون أولا وقاموا بالمظاهرات في بيورت يوم ٢٨ من فيراير واشعلت النيران في السيارات واقيمت متاريس في الشوارع من الأطارات المشتملة. وفي أول مارس قاموا بتنظيم مظاهرة إحتجاج أخرى في صيدا وقعلموا الطريق الساحلي المفضى إلى صور. وعندما تحرك الجيش للسيطرة على الموقف نصب له المسلحون الكمائن وأرغموه على التقهقر، وسرعان ما وصل تعزيز أن غير أنها لم تواجه إلا بمقاومة أشد عنقاء من الراديكاليين اللين كان يساندهم أعضاء من جبهة الرفض الفلسطينية. وبدلا من الخاطرة بمزيد من الخسائر في الأرواح أتخذ اللواء الماروني غانم، قائد الجيش، قرارا يدعو إلى الدهشة يتمثل في قصف صيدا تخصيص بالقيانين شريطة أن يسحب الجيش إلى الدينة .

وفى الماصمة بدأت تنطلق التنديدات بالجيش وبمسلكه على أشدها لتعقبها المطالبة بأستقالة الحكومة. بل أن المجلس الأعلى للمسلمين وهو هيئة محافظة تمثل أهل السنة، طالب بإعادة تنظيم قيادة الجيش وفي مجلس الوزراء نفسه تردد الحديث حول تقديم الأستقالات مالم يستبعد اللواء غانم، وزادت الطين بلة وفاة معروف سعد بعد أسبوع من نقله إلى المستشفى. وكانت جنازته، حيث التف العالم الفلسطيني حول جشمانه بشكل وأضح، بمثابة فرصة جديدة أستغلها الموارنة للتنديد بالتحالف

المقدس بين الفلسطينيين والتقدميين. وعلى الرقم من أن ما قام به الصيدون والتقديون كانت كانت أستفزازيا بشكل وأضع فإن رد الحكومة والجيش جاء عنيفا بلا مبرر. لقد كانت ممالجة الأزمة منذ البداية خرقاء تموذها اللباقة، فكان من سؤ الحظ أن يختار حوب الكتائب والجماعات المارونية الأخرى هذه اللحظة لأعلان تأييدهم السديد للجيش، فنظموا المظاهرات وراحوا يؤكدون بشدة تضامنهم معه، ونظم الموارنة في شرق بيروت مسيرات في ربوع العاصمة وأنطلقوا يعربون عن ثقتهم الكاملة بالقوات المسلحة ويرددون شعارات معادية للفلسطينيين. لقد كانت مناورة سياسية ساذجة مآلها الهزيمة في نهاية المطاف.

كان هدف الموارنة وأضحا فقد كانوا يحاولون بصورة جلية ربط الدولة اللبنانية بطائفتهم، متظاهرين بأنهم حماة الدولة في الوقت الذي يسعى معه الشيوعيون والأجانبه إلى تقويض سلطتها، وكان الموارنة، الذين هوجموا مرارا على أنهم أقلية أنانية محظوظة، يتوقون إلى أنتهاز أية فرصة للظهور فيها بمظهر حماة لبنان الحقيقيين، وعلى أية حال فإن تلك الأيماءات المبالغ فيها بالتضامن قد أضعفت بالفعل من فاعلية الجيش إذ أصبح المسلمون والوطنيون العرب يعتبرونه حليفا وثيق الصلة بحرب الكتائب، وبات الموقف للمسلمين وأضحا جليا وهو أن الموارنة والجيش يقفان في صف واحد، وحتى السنيين المحافظيين، وهم الجيل الأكبر من الوطنيين العرب من أمثال صائب سلام والمفتى حسن خالد لم يقبلوا هذا الوضع وطالبوا بأصلاح الجيش لأنهم أدركوا، شأنهم في شأن كل فرد آخر، شأنهم في ذلك أن الجيش لأيصلح بعد ذلك في شائد على في التدخل في المنازعات بين اللبنانيين إذا أعتقد المسلمون أنه الحامي الموائفة المارونية ليس الا ولم تبد مطالب المسلمين ثورية بصفة خاصة، فكل ما طالبوا به هو التمثيل المتكافئ في قيادة الجيش، وهو حتى يخوله لهم عددهم أن لم يكن أي

بحث هذا المشروع .

لم تشعر غالبية اللبنانيين بقلق بالغ إزاء أحداث صيدا ونفر قليل هم الذين كانوا
يتحدثون عن أحتمال أن تتكرر المواجهة التي وقعت في عام ١٩٥٨ ومع ذلك لم
تكن الروح السائدة متشائمة. لقد أصبحت المظاهرات وعلم الأستقرار السياسي مرضا
مزمنا بالنسبة للبنان، ومع ذلك كانت ثروة البلاد كالمادة، وظل هذا التفاؤل قائما
حتى أواخر فصل الصيف، كان هناك، بطبيعة الحال، قدراً كبيراً من الشعور بالأستياء
والأتهامات الموجهة للفلسطينيين بوجه الخصوص، فسبب الدور الذي قامت به المقاومة
في يخقيق وقف أطلاق النار شكا الموارنة من أنها أضحت أقوى من الدولة ذاتها، ومن
ثم بلغ الشعور المعادى للفلسطينيين ذروته في ربيع ذلك العام وأصبح رجال المقاومة
ثم بلغ الشعور المعادى للفلسطينيين ذروته في ربيع ذلك العام وأصبح رجال المقاومة
كبش الفداء لكل خطر يقع في لبنان. وأخذ الموارنة ينسبون كل حادث وكل مشكلة وكل ماهو شر إلى المقاومة في نهاية الأمر، ولم يكن من الصعب تصور
مايرونه حلا مثاليا للمشكلة، فطالما تردد أسم الملك حسين بإعجاب وتأبيد في الدوائر
المارونية .

وفى يوم الأحد، ١٣ إبريل من عام ١٩٧٥ بجدد القتل عندما نصب مسلحوا الكتائب كمينا لسيارة تقل فلسطينين فى ضاحية عين الرمانة المسيحية وقتلوا منهم ٢٧ شخصا، وفى صبيحة اليوم التالى نشبت المعارك فى بيروت فهاجمت ميليشيا الكتائب فدائى الجبهة الشمبية لتحرير فلسطين وجماعاتها المنشقة وقصفت من مواقعها فى الأشرفية مخيم اللاجئين فى تل الزعتر، رد الفدائيون من برج البراجنة بالهجوم على حى الشياح المسيحى، كللك جرى أطلاق النار فى بعض الأحياء الأخرى وفى طرابلس وصيفا، وأستمر القتال معظم أيام الأسبوع التالى، وعلى الرغم من أنه أعلن رسميا من أن عدد القتلى وصل إلى ١٥٠ قيلا، كان الجميع على بينة من أن الرقم رسميا من أن عدد القتلى وصل إلى ١٥٠ قيلا، كان الجميع على بينة من أن الرقم

الحقيقي أضعاف هذا العدد .

كان طبيعيا أن تصبح واقعة عين الرمانة القضية الرئيسية في السياسات اللبنانية، فقد زعم التقدميون أنها جوء من مؤامرة دولية لتصفية المقاومة الفلسطينية بينما انحى البعض باللائمة على الخابرات المركزية الأمريكية، والبعض الآخر على الصهانية، وأعلن نفر قليل أن المذبحة جرى التخطيط لها بالتوطؤ مع الرئيس فرنجية. أما الكتائيبيون فقد رأوا من جانبهم أن الفلسطينيين أثاروا المعركة عن عمد، بإرسال فدائييهم إلى معقل الموارنة– وأن كانت هذه الحجة غير مقنعة بالمرة لان السيارة كانت تقل أيضاً عددا كبيرا من النساء والأطفال. وقد صرح الجميل بأنه لو قام بإستعراض قواته بملابس الميدان عبر حي صبرا الفلسطيني لتوقع أن يثير ذلك القلاقل، كما أعلن أن المذبحة لم تكن حادثة قائمة بداتها بينما جاءت نتيجة لهجومين فلسطينيين على رجاله في عين الرمانة أيضاً في صباح ذلك اليوم. أما الواقعة الثانية فكانت عندما هرعت سيارة اليجوا لوحة أرقامها مغطاة بأقصى سرعة نحو مدخل الكميسة التي كان الجميل وشخصيا وغيره من زعماء الكتائب يخضرون فيها حفلا دينيا، وقام المسلحون داخل السيارة بأطلاق رخات من الرصاص على مدخل الكنيسة ولاذوا بالفرار، وأسفر الحادث عن مقتل أربع أشخاص من بينهم مسئولان من حزب الكتائب. وأشار الجميل بأنه في هذا الأطار لايمكن أعتبار وصول سيارة نقل محملة بالفدائيين في نفس المنطقة سوى عمل أستفزازي، ومع ذلك فإن الدرجة العالية من الكفاءة التي تم بها تنفيذ العملية وحقيقة أن كثيرين من الفدائيين قد لقوا مصرعهم أقنعتا الكثيرين بإنها كانت مدبرة من قبل .

وفى عشية السادس عشر من إبريل أعلن وقف أطلاق النار، لكن على الرغم من العاصفة الرعدية التي أباحت البلاد لم يكاد بوسع أى فرد أن يسمع أستمرار طلقات المدافع. وفي اليوم التالى ظل التوتر قائما بواسطة مسلحون مجهولون يطلقون الرصاص من فوق أسطح المنازل في المركز التجارى لبيروت، وفي حين كانت الحكومة تلقى بتبعة أطلاق النار على طرف ثالث سرعان ما بات وأضحا أن القناصة باتوا يحظون على الأقل بتأييد ضمنى من جانب الرئيس والأحزاب المارونية، فكانت الأحياء المسيحية هي مصدر معظم النيران، هذا فضلا عن أن الحكومة كانت ترفض الكشف عن هوية القناصة حتى وأن كانت قوات الأمن قد قتلت رميا بالورصاص أو أسرت العديد منها، الأمر الذي أكد الأحساس السائد بين المسلمين والتقدميين بأن الموارنة لايرغبون في وقف أطلاق النار وكانوا يعتقدون أنه إذا ما أستمرت الأزمة فإن الموارنة سيتمكنون من أرغام الجيش على القتال إلى جانيب ميليشيا الكتائب وسحق الفلسطينيين .

لقد وضعت عين الرمانة حرب الكتائب في موقف الدفاع من الناحية السياسية، ففي عشية المذبح أجتمع زعماء الحركة الوطنية في منزل كمال جنبلاط وطالبوا باقصاء وزيرى من حزب الكتائب بالحكومة، وبعد أسبوعين أعلن جنبلاط أن الكتلة البرلمانية ستصوت ضد أي حكومة تضم أعضاء من حزب الكتائب، وقد اسئ توقيت هذا التصلب، وحتى الفلسطينيين الذين كانوا ضحايا عين الرمانة كانوا متخوفين من عواقبه. وثقة منه في تأييد الأحزاب المسيحية الأخرى بأستثناء للكتلة الوطنية المعتدلة وراكا منه بأن الكثيرين من السياسيين السنيين قد أفزعهم جنبلاط قرر الجميل محويل أثبخاه الضغط وتصعيده، فما كان من رجاله إلا أن قدموا أستقالاتهم في السابع من مايو من بينهم ثلاثة من وزراء حزب الأحرار الذي يتزعمه كميل شمعون، كما أستقال أيضاً أمير مجيد أرسلان وهو شيخ درزى مسن ركزت حياته السياسية حول ألمعارضة التامة لأي أقتراح يطرحه جنبلاط. ولم يمض سوى أسبوع حتى قدم رشيد الصلح رئيس الوزراء أستقالته، وفي المفاوضات التي أعقبت ذلك حول تشكيل حكومة الصلح رئيس الكتائيبيون وحزب الأحرار انهم لن يقبلوا نخت أي ظروف أعتراض حديدة أوضح الكتائيبيون وحزب الأحرار انهم لن يقبلوا نخت أي ظروف أعتراض

جنبلاط على أن تضم الحكومة كتاثييين .

فى هذه الأثناء تعرض القانون والأمن فى أنحاء البلاد كافة للأنهيار فلم يكد يمر يوما دون أنفجارات القنابل وحوادث قتل وخطف ترتكب معظمها عصابات محترفة أستغلت الوضع القائم، لكن فى ١٨ مايو يجدد القتال العنيف ولاسيما فى الأحياء الشمالية من العاصمة، ولم يتضع على الأطلاق سبب وقوع الأشتباكات أو من بالضبط مقاتل من. أما فى حى الدكوانة فكان الموقف وأضحا نسبيا: حيث أشتبك رجال الميليشا الكتائب مع فدائى جبهة الرفض فى مخيمات وعلى الجبهات الأخرى كان الكتائبيون وحلفاؤهم بما فيهم ميليشيا كميل شمعون المسماه وبميليشيا النمور، تقاتل مجموعات من النصارين وسكان الأحياء الفقيرة من الأكراد والشيعة يساندهم الشوعيون والأحزاب التقدمية الأخرى.

تدهور الموقف بتشكيل وزارة جديدة، فأصرار جنبلاط على أستبعاد حزب الكتائب من الحكومة ورفض الجميل قبول ذلك وضع الرئيس فرنجية في موقف صعب ولكن يتخلص من الأزمة تخلى عما كان متبعا وشكل حكومة يرأسها عميد متقاعد وتضم ضابط عسكريين، بأستثناء لوسيان دحداح، قريبه الذي أصبح وزيرا للمالية والشئون الخارجية. وفي ضؤ الأرتباط الماروني الوثيق للجيش وتولى اللواء غانم منصب وزير الدفاع لم يكن غريبا أن لايوجد مسلم لبناني او فلسطيني تقريبا على أستعداد لتأييد المشروع، كما أن مالاتيه المشروع من أستقبال حماسي في الأحياء المسبحية من بيروت حيث حيوه بوابل من نيران المدافع فضلا عن موافقة الجميل وشمعون عليه، جعل مصيره، بالرغم من كل هذا، محتوما.

أما مؤسسة السنيين والشيعة والفلسطينيون والتقدميون والوطنيون العرب فقد كانوا على أنفاق تام حول هذه المسألة وهو لاسبيل إلى التعاون مع الحكومة العسكرية، وبمساندة المسيحين الأحرار والكتلة الوطنية كانوا بحبون بتأييد مالا يقل عن ثلثى البلاد وكان بوسعهم أتخاذ موقف متشدد. فما كان من الحكومة الجديدة إلا أن أستفرقت بمتقالت بعد ثلاثة أيام وطلب فرنجية من رشيد كرامى تشكيل الحكومة، وأستغرقت المفاوضات حول تشكيل الوزارة الجديدة شهرا، خلالها اخذت الفوضى تعم البلاد. لكن في ٣٠ يونيو شكلت الحكومة ليتوقف أطلاق النار بعد ثلاثة أيام بفضل ما كان يتحلى به رئيس الوزرء الجديد من حنكة سياسية فقد تغلب رئيد كرامى على الأزمة السياسى بأستبعاد أعضاء حزب الكتائب وحزب جنبلاط الأشتراكى التقدمى من الوزارة الجديدة.

لم يستطيع زعيم الدروز نظرا لأستبعاد رجال الجميل، وشعر الكتائبيون بالرضا لتعيين حليفه الجديد شمعون وزيرا للداخلية. وهكذا أستطاع كرامى حل المشكلة الأساسية وأصبح للبلاد حكومة من جديد، ومع ذلك كان أعضاء الوزارة الستة أساسا متقدمين في السن ومحافظين ققد شغل ثلاثة منهم مناصب وزارية في عام ١٩٤٣ ولم يكن من المحتمل ان يقوموا باية من الأصلاحات التي كانت البلاد آنذاك بحاجة اليها، بالأضافة إلى أن عضوين فقط وشمعون وكرامي، هما اللذانكانا يتمتمان بسلطة حقيقية في البلاد .

كان نجاح كرامى، بالرغم من روعته فى ظل الظروف التى كانت قائمة سريع الزوال، فحتى فى خلال شهرى يوليو وأغسطس، عندما كانت الحكومة لأنزال تسيطر من الناحية الفنية على البلاد كانت الترتيبات تجرى على قدم وساق لما أشار الميه كمال جنبلاط وبالجولة الرابعة فاخذت شحنات الأسلحة تصل من ست دول وبدأ تدريب وتجنيد أفراد يتتمون لكل الأجيال. وفى التلال تشكلت مجموعات أرهابية شبه سرية تدعو إلى العجب أطلقت عليها أسماء من العصور الوسطى مثل فرسان على

وشيعة، وحماة الأرز وموارنة.

وفي أوائل شهخر سبتمبر بدأت الجولة الرابعة عندما نشب قتال حول مدينة زحلة المارونية على أطراف وأدى البقاع. ولم تمض أيام قليلة حتى إمتد القتال إلى طرابلس في شمال البلاد حيث وقعت مناوشات بين الموارنة في مدينة زغورتة حيث يقيم فرنجية وبين الجماعات الأسلامية التقدمية في طرابلس نفسها، وفي محاولة يائسة لفرض وقف أطلاق النار بين الطرفين أرسل كرامي الجيش مع أوامر مشددة بإلتنزام الحياد لكنه إنحاز، في وأقع الأمر، وفي أكثر من مرة إلى جانب ميليشيا الموارنة ضد المسلمين، مما أسفر عن مقتل ١٣ فدائيا من القوات التقدمية على أيدى القوات النظامية على ساحل الشقاء ولكن لم تتخذ أية خطوة مماثلة لصد إنتهاكات الموارنة لوقف أطلاق النار، فما كان من كمال جنبلاط الذي إصثاره بشدة تدخل الجيش، إلا أن دعا إلى القيام بإضراب عام في يبروت لكنه عاد وإلغاه في اللحظة الأخيرة، وعلم , الرغم من ذلك أمتد القتال في غضون أيام إلى العاصمة. وفي ١٧ سبتمبر نقل الكتائيبيون الحرب إلى قلب المدينة ونصبوا مدفعيتهم على الطرف الشرقي من ساحة الشهداء وشرعوا في توجيه قصف عنيف للسوق على الجانب الآخر من الميدان. استمر وأبل نيران المدفعية أربعة أيام حتى أنه لم يبق شيئ على الأطلاق من لحي القديم الوحيد الباقي من المدينة. وصلت فرقة دمشق للمطافي للمساعدة غير أنه لم يكن ثمة شيئ يمكن القيام به: فلم يكن أحد يقترب من المنطقة إلا ويتعرض لرصاصا الكتائبيين .

لقد كان التدمير الكامل للعنطقة متعمدا تماما، وجاء بمثابة رد الموارنة على مطالب ائتلاف التقدميينن والفلسطينيين والوطنيين العرب. وكان رد الفعل مماثلا لطائفة أستجابتها الغريزية لأى تهديدات خارجية وأحدة دائما وهى: الأستجابة الدموية المتصلة وغير المنطقية، هكذا كان الموارنة يقولون لأعدائهم أنهم على أستعداد لتدمير لبنان بأسرها ولايتوصلون إلى حل وسط مع الفلسطينيين أو غيرهم، كما كانوا يقومون بمحاولة متعمدة لتصعيد أزمة إلى حد يضطر معه الجيش إلى التدخل لصالحهم .

وللعادة أخطأ الموارنة التقدير، فقد اعقب تدمير السوق هجوم شامل على مواقع الكتائبيين في غرب بيروت سته فدائيو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة التى يتزعمها أحمد جبريل يساندهم جماعية الناصريين اللبنانيين التى تسمى بالمرابطين. ففي جولتين في أواخر أكتوبر وفي شهر ديسمبر، هاجمت قوات جبريل الكتائب رالحقت بهم الهزيمة، وعندما أرغموا على التراجع إلى شرق بيروت كل مأستطاع مبليثيا الموارنة الرئيسية أنقاذه من الأستيلاء هو مقر قيادتهم. كذلك لم تسفر محاولات الموارنة الدائبة لجر الجيش للأشتراك في القتال إلا عن نتائج عكسية، ففي مرات محدودة للغاية تدخل الجيش إلى جانب الموارنة ولكن بدون فاعلية. وفي نهاية الأمر فدفع التحيز الواضح من جانب القادة العسكريين قطاعات كبيرة من الجيش إلى التصرد السافر.

انصرم عام ١٩٧٥ والموارنة أبعد مايكون عن تخقيق أهدافهم فقد منيوا بنكسات في بيروت ولم يحققوا سوى القليل من أهدافهم المسكرية على الجبهات الأخرى، هذا فضلا عن أنهم عجزوا عن تحقيق النصر حتى وأن كانت القوة الرئيسية للمقاومة لم تشترك في القتال. فلم يشترك مع التقدميين اللبنانيين غير فدائى الجبهة الشمبية لتحرير فلسطين وجماعاتها المنشقة. أما فتح والصاعقة فقد تعمدتا الأبتماد عن الحرب وظلتا بمنأى عنها. والواقع أن عرفات وغيره من الفلسطينين أمثال الأكاديمي البارز وليد الخالدى، كانوا يقومون بدون الوسطاء بين الطواوائف اللبنانية واليهم يرجع الفضل إلى حد ما للهدرء النسبي الذي ساد في شهرى يوليو وأغسطس.

وبحلول العام الجديد كان زعماء المورانة قد تخلوا عن هدف قمع رجال المقاومة الفلسطينية وخلفائهم. وأستعاضوا عن ذلك بالتركيز على هدف أصغر هو تقسيم لبنان. فإذا كانوا قد عجزوا عن السيطرة على لبنان باسرها كما كانوا يرغبون فإنهم عقدوا العزم على السيطرة على منطقتهم التاريخية المتمثلة في جبل لبنان والمناطق الساحلية التى تقع بين بيروت وطرابلس. وهكذا رسموا مستطيلا بين زغورتة والأرز في الشمال وزحلة وشرق بيروت في الجنوب، وقرروا طرد جميع المسلمين ووالأجانب؛ (أي الفلسطينيين) الذين يقيمون في وقلب وطنهم، وفي جميع أتحاء المناطق القديمة من الجبل أخليت قرى المسلمين وأرغم سكانها على أخلائها وتعرضت مخيمات اللائجين الفلسطينين في شمال بيروت وشرقها للهجوم أو المحاصرة، وفي العاصمة نفسها بدأ الكتائبيون بشن هجوم على الأحياء الفقيرة في الكرنينة والمسلخ .

لقد حقق الموارنة داخل هذا المستطيل شيئا ، فأستولوا على مخيم اللاجئين الفلسطينين في دباية في أوائل يناير، كما حاصرت وميليشيا النموره، التابعة لكميل شمعون الخيم الأكبر في تل الزعتر وصدوا بنجاح طابور أغاثة من الفلسطينيين قدم من الجنوب. وفي ١٨ يناير سقطت الكرنتينة والمسلخ بينما قتل السكان رميا بالرصاص أو طردوا. كما صدرت الأوامر البولد وزرات لتسود الأرض أكواخهم ومبانيهم التي تضم العديد من الوحدات السكنية .

ومع ذلك لم يحقق الموارنة مثل هذا النجاح خارج وستطيلهم، فتعرضت مدنهم وقراهم في وأدى البقاع للحصار كما أخذت وحداتهم في الشمال تتقهقر أمام قوات طرابلس التقدمية، والأهم من ذلك أنهم أستفزوا القوة الرئيسية من الفلسطينيين ودفعوها إلى الأشتراك في الحرب في نهياية الأمر، ففي حين فرض الحصار على المخيمات الفلسطينية في الشمال دخلت فتح الحرب في آخر الأمر، بعد مرور عام تقريبا

من بدايتها الحرب التي زعم الكتائييون أن المقاومة هي التي بدأتها، فلم يصدر عرفات أوامره لقواته بالهجوم إلا في يناير عام ١٩٧٦، فبهدف تخفيف الضغط على تل الزعتر هاجمت قوة فلسطينية لبنانية مشتركة الأحياء الساحلية المارونية القائمة بين بيوت وصيدا وأستولت عليها قبل نهاية الشهر .

وفي منتصف شهر يناير كانت أية سلطة باقية للحكومة قد بدأت تتبخ يسرعة، فلم يعد للحكومة المحلية وجود وكانت دفع الأمور تديرها أية قوة مسيطرة، ومرة تلو الأخرى تنهار، وسط الأتهامات المتبادلة أتفاقيات وقف أطلاق النار التي يتم التوصل إليها بمشقة مع ممثلين لجميع الأطراف. وبدأ، في وأقع الأمر، أنه لا أمل للسلام دون أستسلام طرف أوآخر. في هذه المرحلة قرر الرئيس السوري حافظ الأسد التدخل، ولم يسع الأسد الذي التزم بالنضال ضد إسرائيل وعقد العزم على أستعادة الأراضي التي أحتلها الإسرائيليون عام ١٩٦٧، أن يرى لبنان يتردى في حالة من الفوضى التامة. وعلى الرغم من تخالفه مع الفلسطينيين لم يكن يستطيع السماح لنصر كامل لجبهة جنبلاط ومنظمة التحرير الفلسطينية اذ كان ذلك سيؤدى (ولاشك) إلى غزو إسرائيلي وقد يترك تأثيرا على أستقرار نظام حكمه داخل سوريا ذاتها. كما أنه لم يسبق للموارنة باقامة دولة قد تتحالف مع إسرائيل، ومن ثم لم يكن أمامهم من خيار سوى التوصل إلى حل وسط وفرضه على اللبنانيين، ولعل هذا الحل، الذي كفل أستمرارية النظام اللبناني وإدخال بعض الأصلاحات السياسية في الوقت نفسه كان أفضل محاولة تبدل لمعالجة المشكلة الرئيسية. لكن لما كان الموارنة قد ادانوه على الفور بحجة أنه تقدمي أكثر مما ينبغي فإن التقدميين ادانوه أيضا على أنه محافظ أكثر مما ينبغي. ومن ثم كان السبيل الوحيد إلى نجاحه هو فرضه على البلاد .

وكان الأسلوب الذي أتبعه الأسد في فرض تسوية حاسمة وأن كان بأرعا، فقد

بعث بلواء من جيش التحرير الفلسطيني عبر الحدود اللبنانية في ١٩ يناير ولم تكن مهمته هي التحالف مع منظمة التحرير الفلسطينية – فكان ضباطه سوريون ويتلقى الأوامر السورية – بل أعادة النظام في تلك المناطق من البلاد وثلاثة أرباع البلاد بأسرها التي لأتخضع لسيطرة ميليشيا الموارنة. ففي اليوم التالي وصل وزير الخارجية السورى ورئيس الأركان قائد السلاح الجوى إلى قصر فرنجية لأجراء المشاورات، وتم التوصل إلى وقف أطلاق النار الذي يتولى مراقبته جيش التحرير الفلسطيني بحياد تام. وقبل جميع الزعماء اللبنانيين والفلسطينيين – بأستثناء شمعون – الوساطة السورية. وفي أوائل شهر فبراير توجه فرنجية إلى دمشق ليبلغه الأسد ما أراده السوريون، ولم يمض على ذلك اسبوع حتى أعلن الرئيس اللبناني الميثاق الوطني اللبناني الجديد للذي وضعه السوريون في وأقع الأمر.

جاء الميثاق بلهجة محافظة وأكد من جديد حق الطائفة المارونية بالأحتفاظ بمنصب رئيس الجمهورية بما نص على تجريد الخيمات الفلسطينية القريبة من بيروت من السلاح وأعادة تركيز أتفاقية القاهرة. اما تعويض قوات الممارضة فكان محدودا فبغض النظر عن إلتزام غامض وبتحقيق عدالة أجتماعية عامة عن طريق إصلاح مالى وأقتصادى وأجتماعي، وأقتراح بتوفير خدمات تعليمية فإن المكسب الوحيد الذى حققه كمال جنبلاط فكان الأقتراح بتعثيل برلماني متساوى للمسيحيين والمسلمين .

أعقب وقف أطلاق النار، مثلما يحدث في كل مرة، موجة عامة من الشعور بالتفاثل وأعلنت كافة الأطراف أن الحرب قد انتهت غيران أولئك الذين يحملون السلاح كان لهم رأى مغاير. فالموارنة، الذين يرفضون أن يظلوا جزءا من لبنان يضعف فيه دورهم شرعوا يعدون العدة للتقسيم واقاموا عاصمة لهم في جنيف، وهي مدينة صغيرة في شمال بيروت، وشكلوا قوة من الشرطة بل وبنوا مطارا خاصه بهم. وعلى الجانب الأخر لم يكن الأتتلاف المعزق الذى كان يعتبر جنبلاط متحدثا رسميا بأسمه ولا الفلسطينيون برئاسة عرفات على أستعداد لقبول مشروع الأسد. لقد قاتلوا ببسالة ومن الواضح أن الغلبة كانت لهم عقدوا الغزم على أن تكافأ تضحياتهم ببرنامج أصلاحي وأسع نطاقا، كذلك كانوا يدركون أنه لو أطلقت يد فدائى منظمة التحرير الفلسطينية لأستطاعوا تصفية الميليشيا المارونية في غضون أيام. ولم يخف على أحد أن جنبلاط وحلفاؤه قد هددتهم تسوية تمنع المهزومين أكثر نما تمنحه للمنتصرين، كانوا يتوقون إلى المضى في القتال قدما.

وبنهاية شهرفبراير بات وأضحا أن التدخل السورى لم يحقق نجاحا كبيرا اذ لم يستطع جيس التحرير الفلسطيني الحفاظ على النظام كما كان الأسد يأمل، وبرهن على عجزه في الحيلولة دون إنهيار البلاد وأتشار الفوضي. ولعل أهم جانب في هذه العملية هو تفكك القوات المسلحة، وهو تطور تقع مسئوليته إلى حد بعيد على كبار ضباط الموارنة، فعلى الرغم من تغيير اللواء غانم فإن خليفته حنا سعد، سرعان ما برهن على أنه لأيقل عن سلفه نخيزا وبينما كان يفترض نظريا، أن يتلقى أوامره من رئيس الوزراء (وكان يشغل منصب وزير الدفاع أيضاً) أثر اللواء حنا سعد في الواقع بجاهل رشيد كرامي كلية، وبدلا من ذلك كانت قراواته تتم بالتشاور مع فرنجية أو شمعون. أن هذا الموقف الذي أدى إلى استخدام كل من الجيش والسلاح الجوى إلى جانب هنموري شمعون في الدامور حيث لحقت بهم الهزيمة لم يسفر إلا عن تمرد عسكرى وأسع النطاق. لقد تمردت حاميات باسرها وطردت ضباطها المسيحيين فما لبشت أن شكلت الوحدات المتمردة بقيادة الملازم أحمد الخطيب الجيش العربي اللبناني وأتخلت مواقع إلى جانب رجال جنبلاط ومنظمة التحرير الفلسطينية .

ومع الإنهيار التام للقانون والنظام في البلاد وتصميم القوى المعارضة على

مواصلة القتال سرعان ما لحق أتفاق وقف أطلاق النار، الذي تم بمساعدة سوريا، غيره من الأتفاقيات السابقة، وكان الهدف المباشر لجنبلاط وحلفائه هو أرغام الرئيس فرنجية على الأستقالة، وكان يعتبرونه العقبة الأولى في سبيل التوصل إلى تسوية مرضية. ومن ثم مخركت فرق من الجيش العربي اللبناني في إنجاه بعبدا وقصفت قصره لكن فرنجية الذي غادر القصر على عجل وفض الأستقالة. لكن حين طلبت إليه الغالبية الساحقة من النواب أن يستقيل إذ عن للأمر بعد أن تم أنتخاب الياس سركيس خلفا له. وفي المجال المطلة على بيروت شنت قوات جنبلاط من الدروز تساندهم فتح هجوما على المناطق المارونية وردوا المدافعين الكتائبيين. وفي العاصمة نفضها قام الفلسطنيون والمرابطون بهجوم على أمتداد الجبهة الساحلية وأستولوا على فندق هولى داى، المعقل الرئيسي لقوات الكتائب وفي إبريل بنت ميليشيا الموارنة، وكانت مخطى بمساندة وحدات الجيش العربي اللبناني دون مخفظ، على شفا الهزيمة .

ومع ذلك لم يتغير الموقف السورى وأصر الأسد على إنهاء القتال والحيلولة دون أن يحقق جنبلاط والفلسطينيون أنتصارا كاملا. وبعد أن فشل الأسد فى مخقيق ذلك عن طريق الضغط السياسى لم أمامه من بديل سوى التدخل عسكريا. وفى أول يونيو دخلت وحدات نظامية تابعة للجيش السورى البلاد فتقدم طابور نحو بيروت وأنجحه آخر صوب صيدا وكان من الواضح أن السوريين، الذين كانو يعتمدون على مؤيديهم فى جيش التحرير الفلسطينى ومنظمة الماعقة الفدائية التابعة لهم لم يكن يتوقعون نشوب معركة جد عنيفة. لكن عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية كانا قد أستمدا وفى أنتظار وصولهم. وعندما وصل الطابور الثانى إلى صيدا نصب له فدائيو فتح وجبهة الرفض كمينا وأرغموه على التقهقر، كما أن هجومه الثانى باء بالفشل .

لم تكن نكسة تشكل، على الصعيد العسكرى، نكبة على السوريين فلو كان

لديهم الأستعداد لتحمل الخسائر في الأرواح يتسنى لهم التقدم ومخقيق النصر في النهاية، لكن موقفهم، على الصعيد العالمي، هو الذي كان مدمرا. فمنظر سوريا وهي تعمل دون سائر الدول، على تصفية المقاومة، قد جلب عليها الهجوم من معظم الدول العربية. وأجتمع وزراء خارجية الدول الاعضاء في جامعة الدول العربية بالقاهرة وطالبوا بابعاد القوات السورية وإحلال قوة عربية مشتركة محلها وكانت العراق على حدود سريا الشرقية تطلق صيحات التهديد وتقوم بتعبئة قواتها. وحتى في داخل بلاده إدرك الأسد أن هناك عداء كبيرا لتحاففه المفاجئ مع الموارنة ومن الشعارات التي تتاثرت فوق جدران دمشق يتضع أن بيار الجميل كان يتمتع بشعبية لدى السوريين تكاد تماثل شعبية إسحق رابين رئيس وزاراء إسرائيل ووكائة الخايرات المركزي. فلو أن الأسد، على شعبية إسحق رابين رئيس وزاراء إسرائيل ووكائة الخايرات المركزي. فلو أن الأسد، على الرغم من كل شيئ، مضى في طريقهقدما ربما حالفه النجاح. لكنه تردد في الوقت الذي تزايد فيه الغضب العالمي وعندما تبين ان فرصة الأحتلال السريع لبيروت وصيداقا الذي توادة إلى مواقع تطل على الساحل وراح ينتظر .

لم يضع الغزو السورى حدا للحرب على النحو الذى أراده الأسد لكنه أستطاع أن ينهيها في نهاية الأمر مع أستمرار الأسد في سيطرته على الموقف، فالضغط السورى على الفلسطنيين ارغمهم على أبعاد قواتهم عن الجبهات التقليدية ومن ثم مكنوا قوات الكتائب من أستعادة بعض أراضيهم، كما ان الحصار الذى فرضه السوريون أعاق تدفق الوقود والأسلحة إلى المنظمات الفدائية. كذلك فأن ضغط سوريا السياسي قد لرغم زعماء طائفة الشيعي على التخلي عن حفائهم السابقين، أما أكثر نتائج التدخل السورى إثارة فكان سقوط تل الزعتر. لقد ظل مخيم اللاجئين الفلسطينين الضخم على مشارف شرق بيروت محاصرا لأكثر من سبعة أشهر، وكانت الأحوال بلاخل الخيم تبعث على اليأس حيث إن رجال الميليشيا التابعين لشمعون منعوا وصول بلاخة غراؤ مدادات طبية لثلاثين ألف لاجئ أو يزيد .

وبحلول شهر أغسطس كان الآلاف منهم قد لقوا حتفهم، ومع ذلك حال التواجد السورى بصورة فعالة دون وصول قوات فلسطينية أخرى لأغاثتهم، وقشلت الهجمات لتشتيت الأنتباه في أنحاء أخرى من البلاد في تخفيف الضغط. فقد قدر لتل الزعتر الدمار وهو ما كان يدركه الجميع، وكان بوسع «نمور» شمعون بما يملكون من كميات غير محدودة من الأسلحة التي زردهم بها حلفاؤهم الإسرائيليون أن يجلسوا في هدؤ خارج الخيم ويقصفونه يوما بعد الآخر. لكن حتى بعد سبعة أشهر ورغم الهجمات المتواصلة رفض الفدائيون الفلسطينيون الأستسلام. وفي ١٢ أغسطس تمت السيطرة الكاملة على الخيم. لقد أسفر الهجرم الأخير على مصرع ما يربو على ألف شخص، كما قتل بعد ذلك مباشرة، ألف آخرون رميا بالرصاص بعد أن أوقفوهم في صفوف، وكان رجال شمعون يقتلون كل من يصادفهم: من أطفال ورجال دين كل من كانوا يشتبهون في انهم فلسطينيين بل أنهم لم يتظاهروا حتى بأخذ أسرى .

كان تل الزعتر المعركة الأخيرة وأن تواصلت الحرب حتى شهر نوفمبر. وفي النهاية حسمت المشكلة في العربية السعودية أجتماع ضم ستة من رؤساء الدول وزعيم منظمة التحرير الفلسطينية. كان الموقف السورى مقبولا بوجه عام من جانب دول لها وزنها مثل مصر والكويت والعربية السعودية.، وكان عرفات يدرك زوم وعليه أن يزعن لما يملى عليه. أما لبنان فكان لأبد من أحيائه على يد لياس سركيس الرئيس، الجديد المعتدل، ويتولى الأسد الإشراف على تنميته. وفي الخامس عشر من نوفمبر عندما لاحورون بيروت دون معارضة اعلن عن نهاية الحرب، ولكن القتال لم يكن قد توقف حتى ذلك الوقت. فبعد ثلاثة أعوام من إنهاء الحرب رسميا ظل الفلسطينيون وحلفاؤهم يحاربون في جنوب البلاد ضد القوات المارونية التي يؤيدها الإسرائيليون ويسحلونها.

كانت خسائر الفلسطينيين في لبنان أكبر منها في الأردن فقد لقى ما يقرب من عشرين ألف فلسطيني مصرعهم معظمهم من المدنيين المقيمين في مخيمات اللاجئين. لم تكن الهزيمة العسكرية في لبنان ساحقة كهزيمة الأردن لكنها كانت، من ناحية، أشد خطورة. فعقب الكارثة الأردنية تمكن من ظلوا على قيد الحياة من الدهاب إلى لبنان والعمل هناك، ولكن بعد الحرب الأهلية اللبنانية تركوا بدون أية قاعدة ملائمة في أي مكان بأستثناء شريط صغير من الأرض في جنوب لبنان بين الجيش السورى وقوات الزعيم الماروني المتمرد، سعد حداد.

وأستطاع عرفات من الناحية السلياسية، أن يتفادى، كمادته، الدمار الكامل وسرعان ما توصل بعد ذلك إلى أثفاق مع السوريين. وظلت مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية الأدارية في دمشق بينما بقى القيادة العسريكة في بيورت. وفي جنوب لبنان ظل رجال المقاومة بالرغم من أستزافهم، بالقوة التي مكنتهم من التصدى للغزو الإسرائيلي في مارس ١٩٧٨. كما أستطاع عرفات، بالدبولوماسية الحذرة أن يغزو من مكاتته الشخصية. وفي عام ١٩٧٩ كانت مكاتبه بين الأنظمة العربية قد تدعمت بالقدر الذي لم يجرؤ معه أحد في مؤدم قمة تونس أن يعارضه أثناء نزاعه مع الرئيس اللبناني بثأن مرابطة قوات منظمة التحرير الفلسطينية في جنوب لبنان .

القصل الخامس

فلسطين والمجتمع الدولى

لم يطرأ تحول يذكر على أحوال الشعب الفلسطينى خلال الثلاثين السنة التى أمضاها في المنفى، لقد أستطاع عدد منهم رفع مستوى معيشته عن طريق الهجرة إلى دول الخليج وغيرها، غير أن الغالبية لم يطرأ على حياتها تحسن يذكر، لكن على الرغم من أن أحوال الفلسطينيين المادية لم تتحسن كثيراً بنهاية السبعينيات كما كانت عليه في بدايتها فإن السنوات العشر قد شهدت تقدما ملحوظا في أحواله السياسية. فقبل عام ١٩٧٠ كانت الجمعية العامة التابعة للأم المتحدة تؤيد بصفة دائمة عودة اللاجئين إلى ديارهم، ومع ذلك كان واضحا أنها لاتنوى ضمان عودتهم، وفي الوقت نفسه بينما بدأت منظمة التحرير الفلسطينية في تخقيق قدر من الشهرة فأنها حظيت بتأييد الدول العربية وإن لم يؤيدها سوى عدد قليل من الدول الأخرى، ولم تمض على ذلك عشرة أعوام حتى تغير كل شيع. فقد تبنى العالم الثالث واليسار العالمي القضية القسطينية بالنسبة لدول آسيا العالمي القضية التحرير الفلسطينية بالنسبة لدول آسيا

وفى خارج أمريكيا وغرب أوروبا اصبح تأييد الفلسطينيين من القوة بحيث أصبحت إسرائيل تنافس جنوب أفريقيا، أنها أكثر دول العالم أفتقارا إلى الشعبية .

منذ أوائل الستينيات والفلسطينيون يعتبرون أنفسهم حركة وطنية تناضل ضد غاصب أستعمارى على غرار الجزائر وفيتام. لكن على الرغم من أن إسرائيل هى، فى الواقع، قوة أستعمارية فى جوهرها، فأنها لم تكن دولة أمبريالية بالمفهوم التقليدى مثل فرنسا أو بريطانيا واقتضى الأمر بعض الوقت حتى تدرك بقية شعوب العالم أن نضال الفلسطينيين ضد إسرائيل هو نضال ضد الاستعمار، وتعترف بالمقاومة كحركة يخرير حقيقية. ففى مسائل كالجزائر وروديسيا كانت الأمور واضحة، مما مكن الآخرين من يتحديد موقفهم ازائها. أما المشكلة الفلسطينية - الإسرائيلية فمليئة بالتناقضات. فالصهيونية حركة أستيطانية تشجمها دولة أمبريالية، وكان من الميسور تعريفها على هلا النحو. لكن في أعقاب الأبادة الجماعية التي قام بها هتلر حظيت الصهيونية بتأييد ليس من الغرب فحسب بل ومن الأتخاد السوفيتي أيضاً إلى جانب تأييد السين في أوائل الخمسينيات. وفي أعقاب حرب ١٩٤٨ آثرت الزعامة السوفيتية تأييد إسرائيل ضمد الشرق الأوسط العربي حين كانت بريطانيا تسيطر على معظمها. ومرت سنوات صديدة قبل أن يتفهم الروس ومؤيدوهم في بقية أنحاء العالم وجهة النظر الفلسطينية من المصراع.

ولقد حال الطابع غير العقائدى للثورة الفلسطينية دون كسب المؤيدين من المحركات اليسارية في أنحاء العالم الأخرى، وإدرك عرفات بزعامة فتح وهم يقوضون معركتهم في منطقة محافظة أن مساعدة ثورين كوبين أو فيتناميين سوف تكون لها نتائج حكسية، ومن ثم ركزوا على كسب التأييد من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وفي المجزائر أقاموا أولى قواعدهم السياسية والعسكرية، وحصلوا من الجماعات الفلسطينية المتواجدة في منطقة الخليج على الدعم الأقتصادى الذي يمكن الأعتماد عليه، ومن يقية العالم العربي حظيت فتح بالمسائدة وأن كانت هذه المسائدة، كما يوضح هذا الكتاب، لم تكن ثابتة. ومع ذلك فقد كان العالم العربي بالنسبة لفتح هو نصيرها أما تأييد المناطق الأخرى من العالم فكان قليل الأهمية وأن لم تكن بمنأى عنها فقد كانت هذف عرفات الدبلوماسي الرئيسي هو الحفاظ على التأييد وتعزيزه أولا من شعبه وثانييا من العربية السعودية واللول المتاخمة لإسرائيل وثالثا من بقية دول من شعبه وثانييا من العربية السعودية واللول المتاخمة لإسرائيل وثالثا من بقية دول المعالم العربي. وكثيرا ما كان مؤيدو الفلسطينين في الغرب يرددون بأنه لو حلق عرفات العالم العربي. وكثيرا ما كان مؤيدو الفلسطينين في الغرب يرددون بأنه لو حلق عرفات العالم العربي. وكثيرا ما كان مؤيدو الفلسطينين في الغرب يرددون بأنه لو حلق عرفاته لكان أكثر نجاحا في كسب تأييد الرأى العام

الغربي. لكن عرفات، مصيبا كان أم مخطئا، كان أكثر اهتماما بالرأى العام العربي والفلسطيني، هذا فضلا عن أنه عربي ويفضل أن يرتدى الملابس العربية .

وبعد أن أصبح ياسر عرفات رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية تدعمت مكانته وشرع يجرى أتصالات دولية أكثر، ولكن ليس هناك دليل قوى على أن فتح أو منظمة التحرير الفلسطينية قاتلت لصالح آية حركات ثورية فى أجزاء أخرى من العالم. من المحكد إنهم قدموا تدريبات عسكرية لجماعات مثل جبهة مخرى أريتريا لكنهم لم يقاتلوا قط فى أرتيريا، ومن بين اولئك الذين تلقوا تدريبات على ايدى فتح الفدائيون الإرانيون التابعون لآية الله الخميني الذين قاموا بدور حاسم فى الأحاطة بالشاه فى عام الإرانيون التابعون لآية الله الخميني الذين قاموا بدور حاسم فى الأحاطة بالشاه فى عام التي لأتتجاوز مساعدتها، بعلبيمة الحال، الحركات الثورية التي حظيت بتأييد الحكومة السورية فى أية لحظة ومن بينها جبهة البوليزاريو فى الصحراء الغربية ومنظمات المقاومة فى مصر وتركيا .

أما الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وفروعها فتربطها بالحركات الثورية العالمية علاقات أقرى بما لفتح أو العماعقة وأن كانت لا تزال تعانى مما يختلف موقف الأشخاد السوفيتي من غموض إزاء المسألة الفلسطينية ومن علم موافقة روسيا على الأرهاب. ولما كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تحث على الثورة في معظم أنحاء العالم العربي فإن ما تخطى به من تاييد في المتعلقة يعتبر تأييدا محدودا، فهي لاتخطى إلا بتأييد ليبيا والعراق كما أن الميمن الجنوبية هي الحليف الثابت الوحيد للجبهة. وقد كان حكامها الحاليون ذات يوم جزء من الحركة القومية العربية يزعامة حبش. ومن بين الجماعات الثورية في العلم العربي تتمتع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعلاقات بين الجماعات الثوبية إلى جماعات قليلة

أخرى. ولما واجه حبش ترددا من جانب الدول العربية في تاييد نظريته الخاصة بالحرب الشعبية انجه إلى مناطق أخرى من العالم طلبا للتأييد. فمن كوريا الشمالية حصل على تأييد سياسي وعسكري ومن الجيش الأحمر الياباني لقى مساندة عسكرية فعالة. ومنذ عام ١٩٧٢، عندما قام أعضاء التنظيم بالهجوم على أعضاء اللد نيابة عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين على مطار اللد وقتل عدد كبير من الركاب، ويرغب الجيش الأحمر في توسيع نطاق عملياته في الشرق الأوسط، وخلال عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ عرض مساعدة الصاعقة في أية عمليات أختطاف تفكير الجبهة في القيام بها- وهو رفضه زهير محسن بلباقة- وفي عام ١٩٧٩ عاود إمكانية القيام بعمليات مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. إن موقف الأنخاد السوفيتي الغامض من المشكلة الفلسطينية هو الذي عقد التأييد الشيوعي الرسمي للمقاومة. ففي عام ١٩٤٧ صوت الأمخاد السوفيتي لصالح تقسيم فلسطين، وخلال الحرب التي نشبت في العام التالي قام بتزويد إسرائيل بكميات هائلة من الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا. وهكذا التزم الروس بوجود إسرائيل، ولم يحتجوا عندما خرج الصهاينة في عام ١٩٤٩ بحدود أوسع بكثير مما خصصته لهم الأم المتحدة. وخلال الخمسينيات، عندما توطدت علاقات إسرائيل بالغرب، شرع الأتحاد السوفيتي في تأييد أنظمة الحكم العربية الوطنية ضد بريطانيا، والولايات المتحدة. كذلك بدأ في أنتقاد إسرائيل لسؤ معاملتها للأقلية العربية. وأزدادت حدة النقد في الستينيات. وفي أعقاب حرب ١٩٦٧ قطع الروس علاقاته الدبلوماسية مع إسرائيل، ومع ذلك ظلوا، رغما عن معارضة العالم العربي، يؤيدون حق إسرائيل في البقاء كدولة صهيونية. كان هذا الخلاف الجوهري حول أهداف النضال الفلسطيني والذي حال في السنوات الأولى دون تأييد الأثخاد السوفيتي للمقاومة .

ظل الروس طيلة الخمسينات يعالجون المسألة الفلسطينية علَى أساس أنها مشكلة لاجئين دون أن يكون لها بعد سياسي ولم يكن قبل عام ١٩٦٤ أن تخدث خروشوف

لأول مرة عن والحقوق الثابتة والمشروعة للشعب الفلسطيني فكان موقف الأتخاد السوفيتي طابعه الشك والتحفظ إزاء منظمة التحرير الفليسطينية منذ أنشائها، وعندما توجه أول وفد لها إلى موسكوفي عام ١٩٧٠ لم يكن في أستقباله مسئولون عن الحكومة، بل لجنة التضامن الأسيوى الأفريقي فقد كان الروس يشعرون بالقلق من جراء عدم وحدة منظمة التحرير الفلسطينية والصراع المتواصل بين الجماعات المختلفة. كذلك كانوا يشعرون بالضيق والحرج من جراء أستخدام الأرهاب ولم يكن يتفقون معها في هدفها النهائي. ذلك لأن الأعتاد السوفيتي الذي التزم ببقاء إسرائيل كان يبدو تافها لو أنه أيد تأييد كاملا منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت تدعو وقتئد بأعادة توحيد فلسطين. هكذا بدأ الأعمّاد السوفيتي في تأييد المعتدلين في الزعامة الفلسطينية ويشجعهم على الموافقة على العودة إلى حدود ما قبل ١٩٦٧. ومع بجنب حبش وجبريل بدأ الأنخاد السوفيتي في تقديم مساعدة محدودة لعرفات وفتح والصاعقة بزعامة زخير محسن عندما كانت العلاقات الروسية -- السورية طيبة، وكذلك لنايف حواتمة الذي كان يؤيد، على الرغم من تطرفه حول معظم القضايا فكرة اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة بيد أن الروس لم يشعروا بالرضا على كل هذه المجموعات لأن واحد منها لم تكن على أستعداد لأتباع الخط السوفيتي أو حتى الانصات بامعان للمشورة السوفيتية، غير أنه عندما قام السوفييت كرد فعل، بتشكيل جماعة فدائية خاصة بهم نخت أسم (الانصار) رفض كل من حبش وعرفات السماح لها بالانضمام إلى منظمة التحرير الفلسطينية على أساس أنها مجرد آداة سوفيتية .

أن موقف الأتخاد السوفيتي الغامض منظمة التحرير الفلسطينية قد أكده موقف دول شرق أوروبا من المقامة. فمن الطبيعي أن دول الست الواقعة خلف الستار المحديدي، بأستثناء رومانيا، مخذو حذو الأعجاد السوفيتي فيما يتعلق بالشئون الخارجية. أما بالنسبة لقضية منظمة التحرير الفلسطينية كانت هنالك كتلتان وإضحتان. فخلال الفترة التى حقق فيها عرفات مكاسب دبلوماسية هائلة في أوائل السبعينيات توجتها دعوته بالقاء خطاب في الجمعية العامة للأم المتحدة. في عام ١٩٧٤ ظهر اتجاهان واضحان داخل صفوف حلف وارسوء فاستمرت المجر وتشيكوسلوفاكيا وبولندا في شخفطاتها أزاء المقاومة، بل كانت في بعض الأحيان، تنتقد بشدة كلا من أساليبها وأيديولوجيتها. فهذه الدول التي لم يكن لها أتصال شخصي يذكر بمحثلين فلسطينين، ربما كانت أكثر ترددا وتخفظا من الأتخاد السوفيتي ذاته. أما بلغاريا والمانيا الشرقية فكان حماسهما لمنظمة التحرير الفلسطينية لايعرف القيود وأبدت كلتا الدولتين المقاومة بشدة وارسلت لها كميات من المعونة الطيبة. كما أنهما شجعتا الازيارات المتكررة لوفود منظمة التحرير الفلسطينية، وتمت لقاءات عديدة بين عرفات اوليك هونيكر زعيم المانيا الشرقية. وفي عام ١٩٧٤ ارسل هونيكر ببرقية إلى عرفات اعلن فيها أن حزب الوحدة الاشتراكي يؤكد من جديد تأييده المطلق لمنظمة التحرير الفلسطينية في نضالها من أجل الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطينية.

ولعل هذه المواقف المتناقضة أزاء منظمة التحرير الفلسطينية كانت جزء من مخطط يمكن الروس من الابقاء على باب الخيار مفتوحا ففى الوقت الذى ظلت فيه أكثرية دول حلف وارسو، بما فيها الاتخاد السوفيتى، بمنأى عن المقاومة خشية إنهيارها من ناحية، وعدم رغبتها فى الأرتباط أكثر بما ينبغى باساليب المنظمة وأهدافها من ناحية أخرى فى نفس الوقت صدرت تعليمات لبلغاريا والمانيا الشرقية بتقديم التأييد غير المحدود لمنظمة التحرير الفلسطينية بهدف تحسين صورة الأتخاد السوفيتى فى العالم الثالث ومنع الصين من أن تنصب نفسها المؤيد الرئيسي للحركات الثورية العربية .

لقد سبقت الصين الأعجاد السوفيتي في تأييد القضية الفلسطينية بوقت طويل،

وهي حقيقة يطيب للزعامة الصينية أن تؤكدها. ففي عام ١٩٦٤ وأفقت الصين على فكرة اقامة (وطن فلسطيني)، وفي العام الذي يليه كانت الصين أول دولة كبرى تمترف بمنظمة التحرير الفلسطينية. فقد كان الصينيون يدركون أن القضية الفلسطينية مسألة سياسية ومشكلة لاجئين على حد سواء وكان يحلو لهم مقارنة الدولة الصهيونية بنظام شياغ كاى شيك في تايوان. وفي عام ١٩٦٥ ذكر ماوتسي تونج لوفد فلسطيني: وأن الأمبريالية تخشى الصين وتخشى العرب. وأن إسرائيل وفورموزا ما هما إلا قاعدتان للأمبريالية في آسيا. فانتم البوابة الأمامية للقارة العظيمة وتحن نشكل المؤخرة. لقد خلقوا لنا فرموزا، وهدفهم واحد....فأسيا أكبر قارة في العالم والغرب يويد مواصلة استغلالها؟

كان هذا اللون من الحديث هو الذى يستهوى جورج حبش الذى صرح فى وقت لأحق يقول: أن الصين أفضل صديق لنا، فالصين ترغب محو إسرائيل من على الخريطة لأنه طالما بقيت إسرائيل ستظل فوق الأرض العربية مركزا متقدما عدوانيا للأمريالية، لكن على الرغم من أن أيديولوجية حبش الخاصة أقرب إلى الماوتسية من أيديولوجية عرفات فقد صرح الصينيون بأن الجانب الأكبر فن تأييدهم من نصيب فتح، فقد كانت لهم نظرة واقمية إلى امكانيات منظمة التحرير الفلسطينية وحثوا المنظمات الفدائية بشدة على أن تتحد، ونتيجة لشكوكهم فى أن حواتمة موال للسوفييت بشدة وعلم موافقتهم على أستخدام حبش للأرهاب ركز الصينيون أهتمامه على تزويد فتح وعدم موافقتهم على أستخدام حبش للأرهاب ركز الصينيون أهتمامه على تزويد فتح بالأسلحة والتوجيهات، وكانت هذه الأمدادات مجانية وقبل وصول أمدادات الأتخاد السوفيتي أو حلفائه بوقت طويل علاوة على ذلك، فإن الصينيين، بخلاف الروس، لم يضعوا أية شروط تتعلق بالسيامة والمبادئ التى يريدون الفلسطينيين أن يتبعوها. ومن ثم لم يكن مدعاة للدهشة أن يعلن عرفان بعد ذلك أن الصين كانت أكبر مؤثر فى تأييد لم ودعم أستمرارهاه.

لم يحدث أن حقق الفلسطينيون مجاحا ديلوماسيا في أى منطقة في العالم مثل النجاح الذى أحرزوه في أفريقيا السوداء خلال العقد الماضى فلم تكن القارة إلى البخوب من الصحراء حتى عام ١٩٦٧ تبدى أهتماما يذكر بالشرق الأوسط. وكانت معظم الدول الأفريقية قد تخلصت لتوها من الحكم الأستعمارى، وكانت مشغولة بمشكلاتها الخاصة بصورة تعذر معها أتخاذ موقف من النزاع العربي - الإسرائيلي، كذلك لم تكن الدول العربية تهتم كثيرا بالشئون الافريقية، والوواقع أن إسرائيلي كذلك لم تكن الدول العربية تهتم كثيرا بالشئون الافريقية، والوواقع أن إسرائيلي كانت، ولاجدال، أكثر دول الشرق الأوسط نشاطا في أفريقيا السوداء منذ فترة أستقلال كان الإسرائيليون بحاجة إلى تأييد دبلومالسي في العالم النامي، فإذا بهم يركزون جمودهم على أفريقيا وأمريكا اللائينية، وأرتبطوا في القارتين بحلفاء عن طريق برامج المساعدات المسكرية والفنية الباهظة، غير أنه كان لهم في أفريقيا اعداء لدودون نتيجة المساعدات الحبكرية والفنية الباهظة، غير أنه كان لهم في أفريقيا اعداء لدودون نتيجة الأستقلال الجزائية وتشومي في ثورة كاتانجا. كذلك ساندوا بيافرا ضد نيجيريا، وكان الأستقلال العزائية وتشومي في ثورة كاتانجا. كذلك ساندوا بيافرا ضد نيجيريا، وكان من بين حلفائهم الأحرين في أفريقيا هوفويه بوانيه في ساحل العاج، وهيلاسيلاسي في أثيربيا وهاستنجرباندا في ملاويا .

كان زعماء أفريقيا اليساريون، أمثال جوليوس نيريرى في تانزانيا، وسيكوتورى في غينيا وكوامى نكروما في غانا، يعتقدون الصهيونية بشدة، لكنهم لم يعتبروا إسرائيل دولة استطانية توسعية إلا بعد عام ١٩٦٧، وفي أوائل السبعينيات، عندما لم تبد إسرائيل أية بوادر للانسحاب من أراضى دولة أفريقية (مصر) واثبت، وهو الأسوأ، أنها صديقة لمجنوب أفريقيا، شرعت دول أفريقيا السوداء في أعادة النظر في مواقعها حول الشرق الأوسط، وصاحب ذلك حملة ديلوماسية عربية بقيادة ليبيا والجزائر، وفي أجتماع لرؤساء دول منظمة الوحدة الأفريقية في مايو ١٩٧٧، أعلن الرئيس الجزائري

بومدين: أن أفريقيا لابمكنها أن تتخذ موقفا هجاه الأستممار في أفريقيا الجنوبية، وموفقا مغايرا تماما أزاء الأستعمار الصهيوني في شمال أفريقياه ومع ذلك فإنه حتى قبل هذا التاريخ، كانت الدل الأفريقية قد بدأت في قطع علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل. وفي عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ - قبل أن يشرع النرب في أعادة النظر في موقفة الـ أزاء الشرق الأوسط على ضؤ حرب أكتوبر وحظر النفط- قطعت اوغدا وتشاد والكونغو والنيجر ومالي وبورندي والتوجووزائر علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل. وفي أجتماع مايو ١٩٧٣، أتخذت منظمة الوحدة الأفريقية قرارا أعلنت فيه أن أحترام الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني امر جوهري بالنسبة لأي حل عادل لمشكلة الشرق

ومع نهاية السبعينيات كان باستطاعة الفلسطينيون أن يحققوا أنتصارات على الصهيونية في أى محفل دولى تقريبا، فكان يقف من خلفهم العالم الأسلامي الممتلام من موريتانيا حتى الباكستان ومعظم بقية دول آسيا، وأفريقيا السوداء والدول الشيوعية، كما كانوا يحظون بتأييد متزايد في لمغرب، من الدول الأوروبية مثل فرنسا والنمسنا وأسبانيا والبرتفال، ومن عدد متزايد من دول أمريكا اللأتينية، كالا رجنتين والبرازيل وكوبا وجرينادا وجوبانا والمكسيك وترنيداد وتوباجو، وبحلول شهر ديسمبر عام ١٩٧٩ كان عرفات قد أستقبل رسميا من قبل رؤساء وراء أو رؤساء دول أسبانيا والبرتغال والنمسا، بينما أجتمع فاروق قدومي المتحدث بأسم منظمة التحرير الفلسطينية للشئون الخارجية، بوزراء خارجية ايطاليا وبلجيكا. وعلى النقيض من هذا النجاح الدبلوماسي فإن إسرائيل لم تكن تستطيع الاعتماد إلا على حفنة من المؤيدين مثل شيلي وجنوب أتريقيا وهايتي وهوند راوس وكوستاريكا والولايات المتحدة. وحتى نيكرجوا غيرت

هكذا اكتملت الدائرة، ففى وقت مبكر لعام ١٩١٩ وأفقت عصبة الأمم، من حيث المبدأ، على حق الفلسطينيين فى اقامة وطن لهم، وفى عام ١٩٤٧ التزمت الأمم المتحدة باقامة دولة عربية فى فلسطين. لكن خلال ربع القرن الذى أعقب قيام إسرائيل، اغفل المجتمع الدولى الحقوق السياسية للفلسطينيين ولم يكن قبل عام ١٩٧٤ حتى أفاقت الأم المتحدة من غفلتها واقرت بأن الفلسطينيين لاتزال لهم هذه الحقوق. وفى سبتمبر من ذلك العام وصفت الجمعية العامة للأمم المتحدة هذه الحقوق كما يلى: وحق تقرير المصير دون تدخل خارجى: وحق الأستقلال الوطني والسيادة.... (حقوق الفلسطينيين الثابتة فى المودة إلى ديارهم. كذلك أعترفت الجمعية وبأن الشعب الفلسطيني طرف رئيس فى أقرار سلام دائم وعادل فى الشرق الأوسط ووه حق الشعب الفلسطيني فى أستعادة حقوقه بكل الوسائل وفقا لأهداف ومبادئ ميثاق الأم

هكذا بحلول عام ١٩٧٤ كانت الأم المتحدة قد أعترفت بعدالة نضال الفلسطينيين من أجل حقوقهم في السيادة القومية وتقرير المصير. فحتى الدول التي كانت قد عارضت القرار أو امتنعت عن التصويت وأفقت بعد ذلك على حتى الفلسطينيين في تقرير مصيرهم، وفي مؤتمر صحفي عقد بالقاهرة في ٢٨ ديسمبر من عام ١٩٧٧ أعلن مستشار المانيا الغربية، هيلموث شيميث قائلا: ونحن الالمان نشعر بان للشعب الفلسطيني حقا في تقرير مصيره بقدر ما لأى شعب آخر في العالم من حق، بقدر مالأى شعب آخر في العالم من المطلق لإسرائيل في عرقلة التوصل إلى تسوية لفترة طويلة، اجمهت إلى الرأى القائل بضرورة أن يكون الفلسطينيين وطن من نوع ما، وغالبا ما انسمت تصريحات الرئيس كارتر حول الشرق الأوسط بالتناقض والتضارب، لكنه وافق، من حيث المبدأ، على الفكرة، فقد صرح في أجتماع عقده بما شاموست في ١٧ مارس عام ١٩٧٧ قائلا:

ألابد من توفير وطن للاجئيين الفلسطينيين الذين عانوا سنين وسنين عديدة وفي يوم غ يناير عام ١٩٧٨ اعلن في اسوان: ولابد من حل للمشكلة الفلسطينية من جميع جوانبها، والمشكلة تتمثل في ضرورة الأعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وتمكين الفلسطينيين من الأشتراك في تقرير مستقبلهم وكانت واقعة اندرويونج في صيف عام ١٩٧٩ مؤشرا على مدى التغيير الذى اخذ يطرأ على الرأى العام الأمريكي حول القضية الفلسطينية. فاستقالة يونج من منصبة كرئيس للوفد الأمريكي لدى الأم المتحدة التي طالب بها مؤيدو إسرائيل. لا لسبب إلا لأنه إحدى مباحثات مع عمثل منظمة التحرير الفلسطينية قد الارت ضبعة في جميع أنحاء الولايات المتحدة .

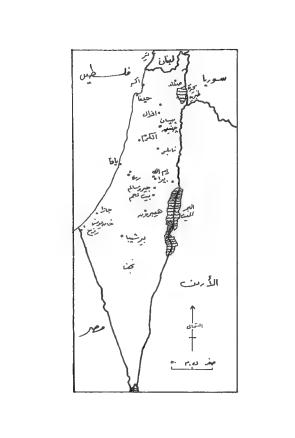
أخيرا وبعد ما يزيد على ثلاثين عاما من التشتت وافق المالم على تصحيح الظلم الذى وقع بعرب فلسطين، كما اقر في نهاية الامر، بان الفلسطينيين يشكلون شعبا مستقلا وانه لابد لهم من وطن- ليس قطعة لارض يحاصرها الجيش الإسرائيلي بل وطن منامب.... لابد لهم من دولة لانخل محل إسرائيل، بل دولة تميش جنبا إلى جنب معها، ومثل هذا الحل سوف يتطلب بالضرورة تضحيات، لامن جانب ايسرائيل والعسهيونية، بل من جانب الفلسطينيين انفسهم، فإسرائيل تملك ٧٧٪ من فلسطين التربخية، أما الـ ٣٢٪ الباقية التي تشمل مدينة القدس العتيقة فتخضع للاحتلال الإسرائيلي، لكن الفلسطينيين يقرون الآن بما حققته إسرائيل من استيلاء وضم في عام ١٩٤٨ على الرغم نما ينطوى عليه ذلك من ظلم- وأوضحوا انهم على استمداد علم للموافقة على اقامة دولة مستقلة في هذا الجزء الضعيل من اراضيهم المحتلة في عام للموافقة على اقامة دولة مستقلة في هذا الجزء الضعيل من اراضيهم المحتلة في عام

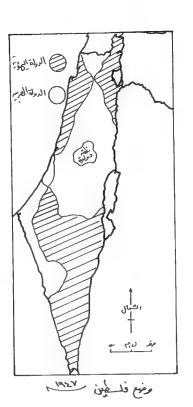
وحتى أن كان بعض الفلسطينيين الإزالون يحملون باعادة توحيد يلادهم على نحو سلمى في نهاية الأمر، حيث يمكن للعرب واليهود أن يعيشوا معا في سلام، الميس هذا حلما جميلا وأنه أمر جدير بالأمل في أن يتحقق في القرن القادم؟ أنهم يدركون أن مخقيقه الآن ضرب من المستحيل ذلك لأن الأيديولوجية الصهيونية على حرجة من التعصب لاتسمح بالتعايش معهم، ولكنهم يعتقدون أن حلقاء بيجين وديان لا بد من أن يعترفوا في يوم من الأيام بأنه حق سكان الدولة الشرعيين الاقامة فيها، أما الآن، وفي المستقبل القريب فإن الفلسطينيون أو الغالبية العظمى منهم على أية حال على استعداد لنسيان حلمهم والموافقة على تسوية وعلى تقسيم بلدهم .

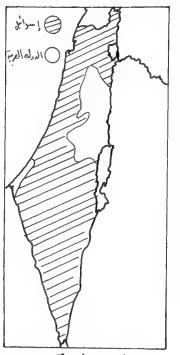
أن اقامة دولة في الضفة الغربية وغزة هو أقل ما يمكن ان يفعله العالم المفلسطينيين في الوقت الراهن. وهذا في حد ذاته لايمكن أن يمثل العدالة الكاملة، ولابد أن يعوضهم عن الضرر الذي لحق بهم على أمتداد اعوام عديدة. غير أنها ستعيد المهم شعورهم بالوطن— الشعور بانهم ينتمون بالوطن يعملون على بنائه كيفما شاؤا بأيديهم شأنهم في ذلك شأن سائر الشعوب.

منذ ستين عاما كان ثمة اعتراف بحقهم فى فلسطين بأسرها. ومنذ ثلاثين عاما عرض عليهم نصفها. واليوم وقد أصبحوا على استعداد لقبول أقل من وبع بلادهم، فإن قنضيتهم، ولاغرو، مفحمة .

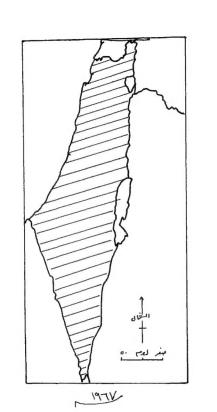








ونبع فلسلين عاً ١٩٤٩



MADBOULI BOOKSHOP

محسبه مدبوس

٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة – ت: ٧٥٦٤ ٢١

6 Talat Harb SQ. Tel:756421